

الصراع على اللّه في أمريكا

مسيحي أوروبي يعاين الدِّين المدني

جيكو موللر - فاهرنهولتز

نقله إلى العربية

معين الإمام

العبيكان
Obeikan

الصراع على اللّه في أمريكا

الصراع على اللّه في أمريكا

مسيحي أوروبي يعاين الدِّين المدني

جيكو موللر - فاهرنهولتز

نقله إلى العربية

معين الإمام

العبيكان
Obeikan

Original Title

America's Battle for God: A European Christian Looks at Civil Religion

Geiko Muller-Fahrenholz & Donald W., Jr. Shriver

ISBN-10: 0-8028-4418-9

ISBN-13: 978-0-8028-4418-7

Published by Wm. B. Eerdmans Publishing Co.

2140 Oak Industrial Drive N.E., Grand Rapids, Michigan 49505

P.O. Box 163, Cambridge CB3 9PU (U.K.)

ISBN: 2 - 034 - 503 - 603 - 978

الطبعة العربية الأولى 1431 ـ 2010

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية – شارع العليا العام – جنوب برج المملكة – عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

مكتبة العبيكان، 1431 .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موللر، جيكو

الصراع على الله في أمريكا./ جيكو موللر؛ معين الإمام.– الرياض 1431 .

289ص؛ 14 21سم

ردمك: 978 - 603 - 503 - 034 - 2

1 – الديانات 2 – الالتزام (دين)

أ. الإمام، معين (مترجم) ب. العنوان ديوي 290

ردمك: 978 - 603 - 503 - 034 - 2 رقم الإيداع: 6189 1431

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 – فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

الإهداء

إلى شارلوت ووليام جونستون

وكارين وفيليب بيترسون

تعبيراً عن الشكر لأربعين سنة من الصداقة

المحتوى

تمهيد

قبل مئة وسبعين عاماً (في ثلاثينيات القرن التاسع عشر)، حين لم يتجاوز عمر الولايات المتحدة خمسين سنة، جال رجل فرنسي أريب اسمه الكسيس دو توكفيل في شتى أرجاء البلاد وألَّف كتاباً عنها بعنوان ـالديمقراطية في أمريكاـ. ثم أصبح الكتاب مجموعة كلاسيكية من الرؤى في «الشخصية الأمريكية» الثابتة. أعجب توكفيل بالأمة الفتية، لكن إعجابه لم يشمل كل شيء فيها. فالأمريكيون، كما عرف، شعب وطني غيور جداً. وبين عامي 1775ـ1783م حارب أسلافهم أقوى إمبراطورية في العالم لنيل حريتهم. و«هم يقدرون تقديراً عالياً هذه الحرية إلى حد أنهم يعارضون بشدة أي انتقاد من أجنبي لأمتهم الجديدة»، كما لاحظ. وفي الحقيقة قال توكفيل: إنه «لا يوجد ما هو أشد تكديراً في التعامل مع الأمريكيين في الحياة العادية [هنا] من مشاعرهم الوطنية المتعصبة والمزعجة. ولسوف يوافق الأجنبي عن طيب خاطر على امتداح الكثير من الأشياء في بلدهم، لكنه يريد أن يسمح له بانتقاد شيء ما، وهذا محظور عليه تماماً».

كان توكفيل سيقدر الفروق التمييزية المرسومة في إحدى المواعظ التي ألقاها وليام سلون كوفين (الابن):

هنالك ثلاثة أنواع من الوطنيين، نوعان سيئان وواحد جيد.
السيئان يمثلهما الوطنيون الذين يحبون وطنهم حباً أعمى،

والمنتقدون المتحاملون المتحيزون ضده. والجيد يمثله الذين يتابعون شكوى المحب من وطنه، التي هي شكوى محبي الله من الدنيا.

كثيراً ما تنبثق المشاعر الوطنية المتعصبة من الضعف والإحساس بانعدام الأمان. ستيفن ديكاتور رفع نخباً شهيراً عام 1815م: «إلى بلادي! أرجو أن تكون على حق. وستظل بلادي حتى لو كانت على باطل!». ماذا لو قال ديكاتور: «حين تكون بلادي على صواب آمل أن تبقى كذلك؛ وحين تخطئ أتمنى أن تصحح خطأها». الحب الأعمى المتعصب للوطن دعوة إلى الاحتفاء بالفساد الأخلاقي، مثلما الانتقاد المتحامل والمتحيز دعوة إلى الأخلاقية المتشككة.

أي أمريكي يقرأ هذا الكتاب سوف يخضع نضج إحساسه الوطني إلى اختبار صارم، المسيحيون بيننا سوف يعرضون نضج إيمانهم ومبادئه الأخلاقية المرتبطة به إلى الاختبار. المزمور 15 : 4 يعرف «من يتقون الرب» بوصفهم أولئك المستعدين «للقسم حتى إن أضروا بأنفسهم». وعليهم الموافقة على الحقيقة المتعلقة بهم حتى إن كانت جارحة ومؤلمة. لقد قصد من هذا الكتاب، المطبوع بالإنكليزية بواسطة دار نشر أمريكية، أن يقرأه الأمريكيون. فهل يقرؤه الكثيرون منهم؟ آمل ذلك. لكنني في خضم دوامات السياسة الراهنة في أمريكا، لست متيقناً. فبعد الحادي عشر من سبتمبر مباشرة، اجتاحت البلاد من شاطئ الأطلسي إلى الهادي موجات جديدة من المشاعر الوطنية المتعصبة. رئيس الولايات المتحدة ردَّ على الحدث معرباً عن «دهشته» من أن يظهر أي أجنبي

«كراهية حادة» لأمريكا، «لأنني أعلم كم نحن أخيار وصالحون» كما قال. في تلك الأيام سأل بعض الأمريكيين: «لماذا يكرهوننا؟». والسؤال عنوان وموضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب. أما بالنسبة للرئيس فقد كان السؤال مجرد بلاغة خطابية على ما يبدو. فقلة من جيراني الأمريكيين قضوا وقتاً في البحث عن الجواب (مثل رئيسهم تماماً)، وهذا ما ذكرني ببيت من قصيدة للشاعر الإنكليزي سوينبيرن: «سأل بيلاطس*: «ما هي الحقيقة؟» لكنه لم ينتظر الجواب».

سوف تقدم هذه الصفحات للقارئ الأمريكي الصبور بعض الأسئلة. لكن قراءتها لن تكون تجربة ممتعة كثيراً، مثلما لن تكون قراءة قصص جرائم النازية ممتعة لأجيال الألمان بعد الحرب العالمية الثانية. وحتى اقتراح مثل هذه المقارنة سيثير بالطبع غضباً عارماً لدى بعض القراء، الذين أشعر أن من واجبي أن أذكرهم بما يلي:

> يأتي هذا الكتاب من عقل وقلب لاهوتي ألماني ورجل دين يعرف الكثير عن هذا البلد، بعد أن عاش داخل وقرب حدودنا مدة طويلة، لكنه يحب أمريكا إلى حد أن نقده لها ينبثق من حزنه على التهديد الذي يتعرض له أفضل ما في تاريخ أمريكا من أسوأ ما فيه.
>
> ومن مواطن ألماني يحب بلده أيضاً، لكن عانى في حياته حين بلغ سن الرشد بعد عام 1945م مواجهة داخلية متعاظمة مع أكثر أشكال السياسة شراً في تاريخ العالم - النازية. وجب

* الحاكم الروماني (26 - 36؟م) لما يعرف اليوم بالضفة الغربية في فلسطين. ترأس بيلاطس على المحكمة التي أدانت ونفذت العقوبة بالمسيح. (م)

على الألمان على مدى عدة أجيال مجابهة تحدي إنقاذ شيء من استمرارية الفخر والاعتزاز بتاريخهم في حين يعانون شعورا عميقا بالخجل والعار من أجزاء ذلك التاريخ.

جمع الفخر والعار يمثل كفاحاً صعباً لنا نحن البشر. وهو كفاح انخرط فيه المؤلف في ألمانية. ومثلما يقول في الفصل الثاني: «عبء الحزن والخوف الذي نحمله نحن الأوروبيون يأتي من كوننا عشنا تاريخ الأعداء المكروهين ودمرناهم مرات عديدة».

أخيراً، يأتي هذا الكتاب من لاهوتي مسيحي يعتمد على واقع الزمالة المسكونية (التي تشمل الكنائس كافة) للسمو على الحواجز القومية وفتح آذان المسيحيين في هذا البلد لسماع حكمة إخواننا في الدين في البلدان الأخرى ووجهة نظرهم بالعالم. إن قراءة هذه الصفحات بصبر وأناة تتطلب من المسيحي الأمريكي إجراء تمييز لاهوتي حاسم وواع بين الولاء للولايات المتحدة والولاء لله والمسيح*. أما إخفاق بعض المسيحيين بيننا في إجراء هذا التمييز بوضوح ـ الذي ترمز إليه الأعلام الأمريكية المرفوعة على العديد من الكنائس في شتى أنحاء البلاد ـ فهو إحدى المآسي المعاصرة للحياة الدينية في أمريكا. جيكو موللر ـ فاهرنهولتز يعبر عن حزنه لهذه المأساة، كحالي أنا.

لست الأمريكي الوحيد الذي يعاني هذا الحزن. وهذا الكتاب يترك في نفسي قلقا لا من الانقسامات الحالية بين أمتي والأمم الأخرى فقط، بل من الانقسامات الداخلية بين مختلف جماعات المواطنين والمتدينين في أمريكا حول أدوار بلادنا الراهنة في العالم. أتصور بعضا منا يلتقطون

* خطأ عقدي فالمفروض أن تكون العبارة (الولاء لله وإتباع المسيح).

الكتاب ثم يلقونه غاضبين، وغيرهم يقرؤونه حتى النهاية والدموع في مآقيهم. هنالك غضب كامن بين الصفحات، لكن آمل ألا يهمل أي قارئ الشعور بالحزن الذي ينبع منه حتى الغضب.

يدرك موللر ـ فاهرنهولتز حجم الخير والعون الذي قدمته بلادنا إلى العالم خلال سنوات حياته، خصوصا نجاحها المكلف في إنقاذ أوروبا من التوتاليتارية ومن تهديدات الكارثة الاقتصادية في الأربعينيات والخمسينيات. وعلى شاكلة العديد من الألمان الذين يتمتعون بالفطنة والتبصر، يعي فضائلنا الديمقراطية التي نتحمس لها. ويعتقد أنها تستحق أن تحاكيها وتتبناها الأمم الأخرى طوال القرنين الماضيين. لكنه يدرك أيضا استحالة أن تحتكر أمة الفضيلة السياسية أو الأخلاقية، وأن المبالغة في التوكيد على فضيلة الأمة تتعارض مع الحقيقة ومع النظرة المسيحية إلى جنسنا البشري. اعتاد رينوهولد نيبور القول: «هنالك زعم واحد يمكن إثباته تجريبيا في الدين المسيحي: «كلنا أخطأنا وأخفقنا في الارتقاء إلى مستوى عظمة الخالق المجيد». ومن الغريب أن العديد من أصوات ما يسمى باليمين الإنجيلي توافق على رسالة القديس بولس (الرومان 23:3)، بوصفها تنطبق علينا نحن الخطاة كأفراد، لكن لا باعتبارنا كياناً سياسياً يعرف باسم الولايات المتحدة. ولسوء الحظ، فإن العديد من الزعماء الذين يحظون بأعلى درجات الإجلال والتكريم في تاريخنا عملوا على تغذية ومفاقمة هذا التناقض: على سبيل المثال دعا توماس جيفرسون أمريكا «أمة بريئة في عالم شرير»؛ وقال جون ادامز إن بلادنا سوف «تحكم العالم وتعرّفه كمال الإنسان». لقد أدت مثل هذه الآراء إلى «الاستثنائية الأمريكية» التي واجهها توكفيل ـ الاعتقاد الطائش أن الأمريكيين قوم اختارهم الله أداة لإنقاذ العالم.

القراءة الصادقة والأمينة للكتاب المقدس والدراسة الجادة والدؤوبة للاهوتيين العظام كافيتان لتجنيب مسيحيي هذه الأمة الانخداع بمثل هذا الوهم. ففي الواقع الحقيقي، لن يقبل معظم باقي البشر حق الأمريكيين في تعريف العدالة، والديمقراطية، والاعتقاد الصائب، والتقوى والصلاح، لشعوب الأرض كلها. ولن يقبل الحكماء منهم زعم أي أمة، حتى أمريكا، بأنها فاضلة وصالحة وخيرة في كل تأثير تمارسه على الآخرين. يعلق مولر. فاهرنهولتز قائلاً في الفصل الخامس: «أصابت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الأبرياء كأفراد، لكنها لم تصب أمة بريئة في استخدام القوة». في جميع حقب التاريخ، دحضت بكل سهولة مزاعم البراءة السياسية من قبل شعوب عانت دوماً سلطة حكومات امتزج الشر دوماً بأعمالها الصالحة والخيرة، بغض النظر عن حسن نياتها ونبل مقاصدها. والأخبار اليومية توضح هذه الحقيقة الأبدية حين تكون صادقة ونزيهة: الحكومات خطاءة في خدمة العدالة.

يقترب هذا المسيحي الألماني كثيراً من الرسالة المركزية لكتابه حين يتناول هذه الأمور الصعبة انطلاقاً من الجذور اللاهوتية العميقة:

> هنالك حاجة إلى طريقة لوصل الشعور بالعظمة والشعور بالذنب، والتقدم والفشل.. وهذا يبدو ممكناً. لكن ردي كمسيحي سيكون كالآتي: ليس ممكناً فقط، بل من المحتم علينا أن نعيش في نعمة الله ورحمته ومع ذلك نضل ونخطئ. رحمة الله واسعة بما يكفي لقبول خطيئة البشر ومنحهم فرصة لتغيير مسلكهم وتعديل أسلوبهم. هذا هو المعنى الحقيقي للتوبة والهداية.

لكن البشر وحكوماتهم يغيرون أحيانا أساليبهم نحو الأسوأ. وعندما تلقيت دعوة كريمة لكتابة تمهيد لهذا المؤلف، انتابني قلق لم أشعر به عند الكتابة طوال حياتي المهنية في مجال اللاهوت التي امتدت خمسين سنة. إذ وجب علي أن أتساءل: هل تراقب الحكومة الأمريكية أو ترصد هذه الصفحات في خضم حربها غير المسبوقة على الإرهاب؟ هل تخضع الانتقادات الموجهة لأمريكا في هذا الكتاب إلى شكل من أشكال الرقابة الحكومية؟ هل تصبح شجاعة شركة اردمانز للنشر - ووضعها الضريبي - هدفا للتحقيقات الحكومية قبل أن ترى هذه الصفحات النور؟ كم أشعر بالإحراج والخجل حين تخطر على بالي مثل هذه الأسئلة في أمريكا الحرة! من المؤكد أن المجموعة الكبيرة من أفضل الكتب اللاهوتية التي خرجت من غراند رابيدز قد وسمت هذه المطبعة بوصفها أهلاً للثقة التي وضعها التعديل الأول للدستور فينا كمواطنين حين منحنا الحق في حرية الصحافة والعبادة. ولن تراجع أي مؤسسة حكومية هذه المقدمة التمهيدية بعد أن أرسلها بالبريد.. هل هذا أكيد؟

دعوني أختتم بتوضيحين اثنين: الأول يفاقم شعور القلق الذي عبرت عنه آنفاً، والثاني يساعد في تهدئة حدته. وكلاهما ينبع من الروابط الجامعة بين الأمريكان والألمان.

في أيار/ مايو 2004، تجمع حوالي المئة من أعضاء كنيسة منهاتن لمشاهدة الفيلم الوثائقي الذي استكمله مارتن دوبلمير حديثا عن حياة ووفاة ديتريك بونهوفر. ثم تركزت مناقشة النظارة، التي أدارتها هيئة من العلماء والباحثين، على الأسئلة التالية: هل نعيش نحن الأمريكيين لحظة بونهوفر؟ هل نعيش في زمن تتجاوز فيه المشاعر الوطنية كنائسنا ومشاعرنا الدينية، ونكبت فيه حرية الإصغاء إلى الأصوات القادمة من بلدان العالم الأخرى باندفاعنا المتهور للمنافحة عن أنفسنا ضد أعدائنا

الأجانب؟ هل نعيش في عصر يجب علينا فيه مقاومة أعداء الديمقراطية داخل أمتنا، كحال بونهوفر؟ ظلت الحجج المؤيدة والمعارضة تتأرجح مدة ساعة. وقرب الختام، وقف رجل مسن طويل القامة ليقدم التعليق الختامي؛ فأنهى اللقاء وترك الحضور في حالة من الصمت والذهول: «أنا أحد الناجين من معسكر اوشفيتز. لا أظن أننا وصلنا إلى لحظة بونهوفر في أمريكا بعد. أعتقد أننا ما زلنا في عام 1932».

في تشرين الأول/ أكتوبر 2005، تقاسمت هذه القصة مع عدد من زعماء الكنيسة الإنجيلية في المانيا (زملاء مؤلف هذا الكتاب). وأبلغتهم قلقي من هشاشة الديمقراطية والحرية في خضم الأحداث الراهنة في وطني. وقلت لهم إنني أشاطرهم العديد من انتقاداتهم للأدوار الأمريكية في شؤون العالم الراهنة. لكن عند نهاية الحوار، التفتوا إلي وقالوا: «نثق بأن لدى الولايات المتحدة طريقة لتصحيح مسارها. فقد علمتنا بلادكم كيف يمكننا، في النظام الديمقراطي، تصحيح مسارنا وأخطائنا. نحن نعتقد أن بلادكم ما زالت تمتلك هذه القدرة».

أرجو ذلك. وأتمنى أن يمد هذا الكتاب يد العون والمساعدة.

دونالد شريفر

الرئيس الفخري

لكلية اللاهوت في نيويورك.

مقدمة

هذا الكتاب مجرد محاولة يقوم بها أجنبي لفهم التيارات الدينية الكامنة تحت سطح الثقافة العامة والحياة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، أو بكلمات أكثر إيجازا وتعبيرا، هو وجهة نظر أجنبي في دين أمريكا. وفي الحقيقة، كتبته على أمل أن يكون المنظور من الخارج قادرا على عرض مجسم أكثر وضوحا لتلك الأجزاء من الصورة التي لم يلاحظها الأمريكيون بسبب التصاقهم بها. لكنني أعرف أن بعض ملاحظاتي قد تكون مؤلمة للأمريكيين عند قراءتها - حتى حين تميل إلى الاتفاق معهم. فليس من المريح للنفس أبدا أن ينتقد الغرباء الوطن.

لماذا أحاول إذن؟ وما هي مؤهلاتي لذلك؟ قد يكون من المفيد البدء برواية قصة تعرفي بأمريكا.

سنة في ييل

بدأت القصة قبل أربعين سنة، في آب/ أغسطس 1965، حيث وطئت قدماي التراب الأمريكي أول مرة. كنت قد أنهيت لتوي دراسة اللاهوت في الجامعات الألمانية وأبحث عن جامعة للدراسات العليا في ميدان المشكلات الأخلاقية. لم أظن لحظة أن هذه الاهتمامات ستدفعني إلى السفر إلى

أمريكا. وهكذا تقدمت بطلب إلى مجلس الكنائس العالمي في جنيف للحصول على منحة. وفوجئت حين أرسلت إلى كلية اللاهوت في جامعة ييل (في نيوهافن بولاية كنيكتيكت).

لا أعرف حتى هذا اليوم من المسؤول عن ذلك. ففي الطلب الذي قدمته ذكرت اهتمامي بالدراسة في بعض الكليات الدينية التي هي أقل شهرة لأنني افترضت أن ييل للصفوة المختارة، التي لا أنتمي إليها أنا، ابن المزارع الألماني. ومع ذلك ذهبت إلى ييل ـ وأحببتها. من المؤكد أن كلية اللاهوت دفعتني إلى الجد والدأب والاجتهاد، لكن الدراسة كانت مرضية بسبب الفرص الدراسية المدهشة التي تمنحها الجامعة.

وهكذا، عرفت أفضل ما في أمريكا ـ عبر بعض الطرق على الأقل. فقد والفت جامعة ييل بين مناهج البحث والدراسة العميقة وبين الالتزام السياسي والاجتماعي. ومثلت القيم المؤسسة لمطلب أمريكا بأن تكون القوة الرائدة بين الديمقراطيات الغربية. أتذكر المناقشات الحامية التي جرت في «القاعة المشتركة» فيما يتعلق بحركة حقوق الإنسان التي أطلقها مارتن لوثر كينغ، إضافة إلى مشاعر القلق من تنامي التورط العسكري الأمريكي في فيتنام. وعلى شاكلة جامعات الساحل الشمالي الشرقي المنافسة، طالبت جامعة ييل بلعب دور في حياة الأمة ـ وفي حياة أمم العالم أيضا. شعرت بذلك في مراسم التخرج عام 1966، حين حصلت على شهادة «دبلوم في اللاهوت المقدس». فخلال المراسم، منحت شهادات الدكتوراه الفخرية إلى شخصيات رائدة وبارزة في مجالات الثقافة والعلوم والسياسة. وعبر عن هذا المطلب بيان رئيس جامعة ييل بعد بضع سنين: «كل من يهتم بالحضارة عليه أن يهتم بجامعة ييل». وجدت العبارة نوعا

من البلاغة الخطابية آنذاك؛ لكنها كانت تدل على شيء من الفهم الذاتي الواثق بالجامعة وإحساسها برسالتها.

ثمة جانب آخر للسنة التي قضيتها في ييل. فقد عملت مع عدد من الطلاب الأجانب الآخرين في مطبخ كلية اللاهوت - مقابل 1.25 دولار بالساعة، كما أذكر - وعرفت عن قرب الطلاب العاملين هناك. كان المطبخ بإدارة امرأة إيطالية، وجميع العاملين من السود. في نهاية المطاف، دعونا إلى كنائسهم. في حين مكنهم الشعور بالثقة والصداقة من التحدث عن الأمور التي تهمهم فعلا. وهكذا أخذت لمحة عن عالم داخل أمريكا كان مختلفا تمام الاختلاف عن ذلك الذي شاهدته من منظور أساتذة وطلاب جامعة ييل، عالم يعاني فيه الناس ذكريات مروعة وظلما فادحا.

مرارة المهاجرين

الجدول المتخم خلال السنة الأكاديمية في ييل منعني من السفر في أرجاء الولايات المتحدة كما كنت أرغب. لكنني وصلت حتى واشنطن دي. سي جنوبا، وشلالات نياغارا شمالا، وسنت لويس غربا. أعرف أن هذه المناطق لا تمثل أمريكا كلها؛ وحتى لو مثلتها فقد بقي شيء واحد يدهشني: تشابه الأبنية والمطاعم والمأكولات والمشروبات. فمطاعم كنتاكي فرايد تشيكن على سبيل المثال لها السطح الأحمر ذاته في كل مكان. والشيء نفسه ينطبق على مطاعم البيتزا وغيرها من المنشآت التجارية، حتى قبل أن تنتشر مطاعم مكدونالد وتصبح ثابتا راسخا في صناعة وجبات الطعام السريعة.

كنت أشاهد ذلك كله بالطبع من منظور أوروبي. ففي ألمانيا تتغير الأساليب المعمارية وأنواع الأطعمة وعادات الأكل والشرب تغيرا عميقا في الأماكن التي

تفصل بينها بضع مئات من الأميال. ولذلك تساءلت متعجبا لماذا يريد الأمريكيون الأنواع ذاتها من التجارب في شتى أنحاء بلادهم الشاسعة، على الرغم من التنوع الهائل في المشاهد والمناخ. هنالك أيضا قسوة وتهور في أمريكا سحرت بهما وقلقت منهما في آن. ولم ألاحظ إلا لاحقا الفوارق الكبيرة بين فيرمونت وجنوب فرجينيا مثلا، أو بين البلدات في مينيسوتا وكاليفورنيا.

ثمة أمر آخر ترك في نفسي أثرا عميقا. في سنت لويس، أقمت مع صديق حصل على منحة دراسية في كلية ايدن اللاهوتية. وتمثل جزء من واجباته المعينة في رعاية أبرشية صغيرة يتحدث أعضاؤها الألمانية وتبعد 30 ميلا إلى الغرب من نهر المسيسيبي.

في صبيحة الأحد، حين كان يستعد لإقامة القداس، تجولت في المقبرة المحيطة بالكنيسة الصغيرة. فلفتت انتباهي شاهدة قبر كتب عليها بالألمانية اسم امرأة وتاريخ ميلادها، واسم البلدة التي ولدت فيها في ألمانيا، ولهمشافن، القريبة من مسقط رأسي. لكن ما فاجأني هو السطر الأخير المحفور على الشاهدة: «توفيت في أرض أجنبية».

هنا ترقد رفات مهاجرة عاشت في أمريكا سنوات عديدة، ومع ذلك تكشف شاهدة قبرها عن أنها بقيت أرضا أجنبية بالنسبة لها. وعلى ما يبدو، شعرت بأنها غريبة عن أمريكا طوال هذه السنين. وتذكرت جذورها في ولهمشافن، ولم ترسخ جذورا جديدة في السهول الكبرى إلى الغرب من سنت لويس. استشعرت ألما جعل عيني تدمعان. وبدأت أحس ألم انقطاع الجذور الذي أصاب ملايين العائلات الأمريكية المهاجرة. ومن المؤكد أن معظمها كانت سعيدة حين تركت وراءها الظروف القمعية، أو الضغوط السياسية، أو الظلم الاجتماعي، أو الوضع المالي اليائس، أو الاضطهاد الديني. ومع ذلك،

عندما انقطعت جذورها عن أرض الوطن، فقدت بيوتها وأصدقاءها وأحبتها الذين ربما لن تلقاهم مرة أخرى أبدا. وحين كافحت بكل قوتها لتعيش في هذه الأرض الجديدة، ظلت تعاني جرحا خفيا لم تبرأ منه. ووجب عليها «نسيانه». لكن هل يفسر هذا الألم، الذي لم يعترف به في معظم الحالات، تجاهل الأمريكيين الواسع النطاق للماضي؟ هل هذا هو الشبح الذي رافق براغماتية أمريكا وانشغال مواطنيها بالمستقبل؟

التعرّف بالبراغماتية الأمريكية

بعد عشر سنوات (بين عامي 1974 ـ 1979)، عملت في مجلس الكنائس العالمي. وشمل العمل عدة رحلات ممتدة إلى مختلف المناطق في الولايات المتحدة، وتعرّفت بالعديد من اللاهوتيين والأمريكيين الذين يشغلون مناصب قيادية داخل الكنيسة. بدا آنذاك أن الاهتمامات التي شغلت العالم مارست تأثيرا قويا في الكنائس الأمريكية؛ التي كانت تمارس أيضا دورا فاعلا في الكنائس في مختلف أرجاء العالم.

ومع ذلك، فإن الذين التزموا الولاء لحركة توحيد الكنائس في تلك السنين لم يدركوا تماما أن قطاعات عريضة من البروتستانتية الأمريكية كانت بعيدة عن تأثيرنا. وعلى الرغم من اعتقادنا أننا نتصدى للاهتمامات المركزية في حياة الكنائس، إلا أن الذين كانوا يتشبثون بصمت بما يعدونه «أصول» الإيمان المسيحي، اعتبرونا من «أصحاب الميول اليسارية». لذلك فوجئنا حين تبين لنا خلال الحملة الرئاسية لرونالد ريغان، أن «الأغلبية الأخلاقية» تتمتع بقوة سياسية مرعبة. ومنذ ذلك الوقت ـ طوال خمسة وعشرين عاما ـ تمتع اليمين المسيحي بنفوذ هائل، في حين كان تأثير «التيار الغالب» من البروتستانتية يخسر ويتراجع على ما يبدو. ولم يعد

مقر مجلس الكنائس الوطني الشهير (في ريفرسايد درايف 475) - بل مركز الكنائس العالمي - كما كان أبدا.

وجد العديد من المراقبين خارج الولايات المتحدة، بغض النظر هل كانوا فاعلين وناشطين في حركة توحيد الكنائس أم لا، صعوبة في فهم ما الذي يمثله الإنجيليون اليمينيون الأقوياء. لا أعرف جماعة في أوروبا يمكن مقارنتها بالإنجيليين الذين يمارسون عباداتهم على التلفزيون، ويصل نفوذهم المؤثر إلى أعلى المراتب الهرمية في السلطة السياسية. ويستحيل تصور احتدام مجادلات حامية بين أتباع نظرية النشوء الارتقائي والمؤمنين بالخلق الإلهي. فأوروبا معلمنة كلية، أو بكلمات أخرى جاهلة دينيا. لذلك، لا يعرف معظم المراقبين في أوروبا كيف يمكن فهم اللغة الدينية التي تبدو طبيعية تماما على الطرف الآخر من الأطلسي، و«الكلام الإلهي» للزعماء السياسيين في الولايات المتحدة، وليست لديهم طريقة لتقويم وتقدير تأثيره في السياسة العالمية. وهذا أحد العوامل التي تفسر تنامي الجفاء بين الولايات المتحدة وأوروبا.

فيما يتعلق بي، هنالك نسخة جديدة من أمريكا بدأت تظهر، لتأخذ شكل تغير في الدور الذي سمح للدين بلعبه في السياسة. ويعد هذا الكتاب محاولة لفهم المخاطرة المتضمنة وما هو على المحك هنا.

الشعب المختفي الذي يسكن الذاكرة

خلال هذه الرحلات الممتدة عبر الولايات المتحدة، بدأت أعرف أسماء المدن والولايات، والأنهار والجبال، التي أخذت من الشعوب والقبائل المفقودة التي عاشت هناك: كنيكتيكت، ماساتشوستس، شيكاغو، منهاتن،

سسكواهانا، تشيسابيك، مسيسيبي، ميلووكي، اوكلاهوما. لقد لازمت هذه والعديد غيرها من الأسماء ذاكرتي وسكنت روحي لأنها تشير إلى أولئك السكان الأصليين الذين تعرضوا للخيانة والطرد والذبح - على أيدي المهاجرين من أوروبا غالبا، ومنهم العديد من الألمان. لكن معظم الأمريكيين الذين قابلتهم لم ينتبهوا على ما يبدو للصرخة الصامتة التي تحملها هذه الأسماء معها. ولم يعرفوا الجزء الذي سادته الإبادة الجماعية في تاريخهم. تساءلت ما هي كلفة «نسيان» الرسالة البكماء لهذه الأسماء العديدة؟ وكيف تتصل بواقع وقوة الإنكار.

من الواضح أنني تعودت هذه الأسئلة لأنني نشأت، كواحد من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية في المانيا، مع تبريح المناقشات حول «كيف» و«لماذا» تعرض الشعب اليهودي إلى ما يقرب من حافة الإبادة الجماعية في أوروبا من قبل الرايخ الثالث. أدرك بالطبع أن العديد من نظرائي الأمريكيين سوف تروعهم مقارنة محرقة الشعب اليهودي بحرب الإبادة التي شنت على سكان أمريكا الأصليين. وأنا لا اقترح وجود أي مجال للمقارنة - لسبب بسيط هو أن الجرائم الفظيعة التي ارتكبت ليس لها شبيه ولا نظير. ولكن ما أريده هو استقصاء كيف تستطيع الشعوب والأمم أن تتذكر (وتنسى بسهولة) تلك الحقب الوحشية والمتخمة بالذنب من ماضيها. ومثل ذلك أيضا اهتماما مقلقا بدأ يؤثر في تأملاتي وتفكيري بأمريكا، وسوف يلعب دورا في هذا الكتاب.

العيش في حديقة أمريكا الخلفية

بين عامي 1988 ـ 1993، درست في جامعتين في كوستاريكا. ودفعني العيش في هذا البلد الصغير في أمريكا الوسطى إلى تبني وجهة نظر

مختلفة اختلافا بينا فيما يتعلق بالولايات المتحدة. فقد عشت بين من يعدون أنفسهم «أمريكيين» بمعنى انتمائهم إلى قارة أمريكا. وتضمن هذا اعتقادهم أن مواطني الولايات المتحدة لا يملكون الحق في التحدث باسمهم كـ «أمريكيين» كأنما يتمتعون وحدهم بالأهمية على هذه القارة. لكن القضية بالطبع لا تتعلق باللغة الاصطلاحية. فما هو على المحك قضية أكثر عمقا وأشد ألما تمظهرت في العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين البلدان اللاتينية الصغيرة والجار المتفوق في قوته الكاسحة في الشمال. من المؤكد أنهم مفتونون بأساليب عيش الأمريكيين إلى حد أننا يمكننا أن ندعو ميامي عاصمة أمريكا الوسطى والكاريبي الثانية. لكن حتى انسحارهم يفاقم على ما يبدو مشاعر الغضب التي يعبر عنها زملائي وطلابي على القوة العظمى الرابضة في الشمال.

هل الحسد هو الذي سبب هذا الغضب؟ لا أظن ذلك. ولكن أعتقد أنه التعامل مع هؤلاء بوصفهم بشرا من الدرجة الثانية. أو بأسلوب آخر، التجربة اليومية للتفاوت الصارخ بين الحريات الديمقراطية التي تعرض في واشنطن، من ناحية، والإمبريالية الواضحة التي تعبر عنها الحكومة الأمريكية ذاتها في دعم وتأييد الأنظمة القمعية في أمريكا الوسطى وسواها، من ناحية ثانية. كان مبدأ مونرو (1823)، الذي تطور خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، بداية «مصفوفة السيطرة» بالنسبة لسكان أمريكا الوسطى، حيث خضع كل بلد يقع إلى الجنوب من نهر ريو غراند* إلى

* نهر ينبع من جنوب غرب ولاية كولورادو الأمريكية، ثم يتدفق عبر وسط ولاية نيو مكسيكو، ليجري بعدها على طول الحدود بين ولاية تكساس والمكسيك قبل أن يصب في خليج المكسيك. (م)

سيطرة الولايات المتحدة بدرجة ما. ولدى سكان المكسيك ونيكاراغوا وبنما وكوبا قصص خاصة يروونها؛ لكن حتى الحروب الأهلية الطويلة التي عصفت بالسلفادور وغواتيمالا لا يمكن فهم أسبابها بمعزل عن الدعم العسكري والمالي للولايات المتحدة. شعرت بثقل هذه الذكريات المؤلمة أنى ذهبت. لماذا؟ لأن تجارب العجز والإذلال ما زالت تسكن قلوب الناس وتكويها بنارها. أما العبارة الشائعة فهي: «نحن نسكن في الحديقة الخلفية للولايات المتحدة». بكلمات أخرى، يشعرون بأنهم تحت رحمة الأخ الكبير العملاق في الشمال، وهذا أوجد علاقة من الحب/ الكره لمستها في كل مكان من أمريكا الوسطى والجنوبية.

بعد أربعين سنة ـ تأملات في عام 2006

أين أنا الآن، بعد أكثر من أربعين سنة على وصولي إلى جامعة ييل؟ ما زلت مسحورا بأمريكا كحالي آنئذ. أحب قضاء وقتي مع الأمريكيين. والأصدقاء الذين عرفتهم تمتعوا بالذهن المنفتح، والسخاء والكرم، والتهذيب والدماثة والدعابة، والموثوقية. لكن كلما زادت معرفتي بالولايات المتحدة تناقصت ثقتي بما أعرف. في كتاب «رحلات مع تشارلي» (1961)، دعا جون شتاينبك وطنه «الوحش المفزع» لأنه كبير جدا ومتنوع جدا بحيث تعذر عليه فهمه. فإذا صح ذلك بالنسبة له، فكم يصح بالنسبة لي، أنا الأجنبي الغريب!

ومع ذلك، «نحن نعيش على الصور»، كما قال ذات مرة العالم المتخصص بعلم النفس والمؤرخ روبرت جاي ليفتون. والصور التي يشير إليها هي

النماذج (البارادیمات) والأمثلة التي ترشد حياتنا، شيء قريب لما يدعوه الألمان (weltanschauung) أو الطرائق التي ندرك عبرها العالم. وهذا يقتضي ضمنا أن إنسانيتنا تعتمد على استعدادنا للعمل وفقا لهذه الصور، وتقاسمها مع الآخرين، وتحديها بواسطة صور أخرى. من الواضح أن «أمريكا» جزء جوهري وأساسي من الصور التي أعيش وفقا لها. وهذا لا يشملني كفرد، ولا الكنيسة التي أنتسب إليها فقط، بل الشعب الذي أنتمي إليه. وفي الحقيقة فإن ما يحدث في الولايات المتحدة يعني العالم كله: ما تفعله القوة العظمى الوحيدة أو تمتنع عن فعله يؤثر فينا جميعا. ولهذا أعتقد أن للأجانب من أمثالي أسبابا وجيهة تدعونا لعرض آرائنا المتعلقة بالتطورات في الولايات المتحدة. ومع أن آرائي محدودة، إلا أنها قد تسهم في الحوار الضروري حول مستقبلنا المشترك.

لا أستطيع اختتام هذه المقدمة الاستهلالية دون أن أعبر عن عميق شكري لجون شيلتون لورنس. فلست مدينا له بالفضل لعمله الأكاديمي والمعرفي فقط، بل لأنه كرس أيضا ساعات طويلة من وقته لتحسين لغتي الإنكليزية، والتحقق من المراجع، وإجراء تصويبات حاسمة الأهمية. الشكر كل الشكر إلى دونالد شريفر، الذي كان رقيقا وكريما إلى حد كتابة التمهيد لهذا الكتاب. وعمله الفذ في مجال قوة المصالحة في حياة الأمم شجعني وساعدني على أداء عملي. أعبر عن شكري أيضا إلى شركة اردمانز للنشر، وإلى رايندر فان تيل على استخدام مهارته التحريرية لإدخال التحسينات على نص الكتاب.

ومثلما أشرت في البداية، أعرف مدى صعوبة قبول الملاحظات الانتقادية، خصوصا حين يكتبها أجنبي. لكنني آمل أن يكتشف القراء، حين يقرؤون ما بين السطور، الحب والاهتمام اللذين استهديت بهديهما عند الكتابة.

جيكو موللر - فاهرنهولتز

بريم المانيا.

-1-

«فليبارك الله أمريكا»:

التجربة المسيحانية

حين يختتم رئيس الولايات المتحدة خطبته بكلمات «فليبارك الله أمريكا»، يهز العديد من المراقبين في أوروبا المعلمنة رؤوسهم غير مصدقين. بل لا يصدقون حقيقة أن أغلبية المواطنين الأمريكيين لا يعترضون على ما يبدو على هذا النوع من «الكلام الإلهي*». الفوارق بين ثقافاتنا على درجة كبيرة من الأهمية الدلالية. فعلى جانبنا من المحيط الأطلسي، نتبنى مواقف مختلفة فيما يتعلق بدور الدين في السياسة. المثال اللافت يمكن العثور عليه في المناقشات الحامية الوطيس حول الإشارات المرجعية إلى الله في الدستور المقترح للاتحاد الأوروبي. لكن في نهاية المطاف رفضت جميع هذه الإشارات. وحقيقة رفض فرنسا وهولندا لاقتراح دستور أوروبي لا علاقة لها بهذا الجانب.

نظرا لانحياز معظم السياسيين الأوروبيين والمختصين في العلوم السياسية للعلمانية حاليا، فإنهم يعدون الخطاب الديني للزعماء

* المقصود بهذا القول ما سبق قوله من دعاء (فليبارك الله...).

السياسيين في الولايات المتحدة محاولات انتهازية لتحقيق توقعات وآمال جماعات دينية معينة. وحتى في هذه الحالة - وهي كذلك دون شك - يلاحظ المرء حقيقة أن عبارة «فليبارك الله أمريكا» ليست سوى عملة سياسية لمكافأة كل من يستحضر الإلهي والمقدس باستمرار. بكلمات أخرى، يحظى المكون الديني في الولايات المتحدة بنفوذ كاف لصياغة اللغة السياسية، في حين لا يمكن الفوز بأي انتخابات في أوروبا عبر اللعب على المشاعر الدينية للمواطنين. ويبدو واضحا أن مثل هذه الجماعات الدينية في أوروبا صغيرة الحجم بحيث لا تتطلب اهتماما خاصا من قبل السياسيين. وعلى وجه العموم، يعبر هذا الابتعاد عن التدين وإظهار الورع والتقوى عن القلق المنتشر على نطاق واسع من خلط الدين بالسياسة.

تطلب الأمر بعض الوقت لأدرك أن الخطاب الديني للزعماء في الولايات المتحدة جزء لا يتجزأ من ثقافة الأمة السياسية. وساعدني البروفسور يورغن مولتمان (الصديق والمشرف والأستاذ في جامعة توبنغن) على معرفة أن اللغة الدينية للرئيس بوش (مع أنها أكثر وضوحا وصراحة من لغة العديد من أسلافه) جزء من التراث العظيم الذي أثر في تطور الولايات المتحدة منذ بداياتها[1]. هذا هو التراث المسيحاني الذي جعل «أمريكا» تعبيرا مشحونا بالدلالة ومحملا بالمعاني إلى هذا الحد. ففي المعنى الكامل، تعد «أمريكا» بلدا ضخما يحمل رسالة عظيمة، كيانا تاريخيا منح وعدا استثنائيا.

الميراث المسيحاني

قادتني وجهة نظر مولتمان عن «أمريكا» بوصفها مشروعا مسيحانيا إلى معاينة تطورها التاريخي، وهذا أعادني إلى الآباء الحجاج[2]. فحين وصلوا

إلى شاطئ «العالم الجديد»، بعد رحلة طويلة ومرعبة ومحفوفة بالخطر، اقتنعوا في أعماقهم بأن مشروعهم يحظى بهداية وحماية الله. فبين عام 1619 ـ 1640، وصل أكثر من عشرين ألفا من المتطهرين (البيوريتان)، وعدوا أنفسهم شعب إسرائيل الجديد. وأطلقوا على الأرض التي تركوها «بريطانيا فرعون»، أرض العبودية. ما شاهدوه أمامهم كان أرضا جديدة ونقية لم ينخرها الفساد تعد ببداية جديدة. ومثلما اضطر الإسرائيليون القدماء إلى محاربة الفلسطينيين، كذلك رأى «الإسرائيليون» الجدد أنفسهم مفوضين بخوض المعركة مع الشعوب والقبائل الوثنية لامتلاك ما عدوه أرضهم الموعودة.

لا يمكن أن تكون الحال غير ذلك. فأهم كتاب لأوائل المهاجرين ـ والكتاب الوحيد الذي حملوه في الحقيقة ـ كان الكتاب المقدس. إذ زودهم بالصور الذهنية التي أعطت لحياتهم معنى. وأكثر قصصه تأثيرا تلك التي روت كيف تحرر شعب الله المختار من أسر العبودية في مصر. وكيف ترك الإسرائيليون مصر في هجرتهم الجماعية الكبرى (الخروج)؛ وكيف اختلف معهم زعيمهم، موسى، على الوصايا العشر، وكم تمتعوا بالنقاء والطهارة بوصفهم شعب الله؛ وكيف خاض يشوع* معارك عديدة لتحرير الأرض الموعودة من الوثنيين الكفار الذين سكنوها. لقد وفرت هذه الرواية مع الكلمات للأنبياء القدماء ومزامير داود، الإطار المناسب لحياة هؤلاء المهاجرين، وإمكانات مجتمعاتهم المحلية المحتملة، وتكوين أمة في مرحلة لاحقة. «المدينة على التل!». لقد صاغت هذه الصور رؤية أمريكا ـ الأرض الموعودة للشعب المختار.

* (جوشوا): خليفة موسى في زعامة بني إسرائيل. (م)

رسمت الصور مشروعا مثيرا اجتذب ملايين الناس من أوروبا، ومنهم الألمان. فكلما وجد الرجال والنساء ضغوط السادة الإقطاعيين لا تحتمل، وعانوا قمع السلطات المطلقة للملوك والملكات، ولم يعودوا يحتملون الكنائس التي تكبت معتقداتهم ـ توجهوا إلى أمريكا، الملاذ وأرض النجاة. ومثلما أشار تمثال الحرية في ميناء نيويورك فيما بعد لأولئك الذين أتوا عبر المحيط الأطلسي، فقد وعدت أمريكا بأن تكون ملاذا آمنا للحرية ـ على الأقل لأولئك الذين قدموا من أوروبا. أما الوضع للذين قدموا من إفريقية فكان مختلفا اختلافا مرعبا: فـ «الحرية» عنت أن يتمتع السادة بالحق في امتلاك البشر كعبيد.

هنا، في أرض الحرية والأحرار، سيكون كل شيء أفضل حالا. لا ملوك يحكمون؛ بل الناس هم الحكام. لا بابا يقرر إيمان رعاياه؛ بل جماعة متآخية من المؤمنين تستمع بإخلاص إلى آيات الإنجيل، وتتحول إلى كنيسة الله الصادقة الأمينة. الأرض شاسعة رحبة. فإذا لم تنجح في الشرق، يمكنك الانتقال إلى الغرب، حيث الفرص الجديدة تكمن في انتظارك. إعلان الاستقلال وعد بالحق في «المسعى إلى تحقيق السعادة» لكل من يمتلك ما يكفي من الشجاعة.

فقدت الصور التوراتية معناها الدلالي المباشر بمرور الزمن، لكن طبيعتها المسيحانية ظلت متشبثة بالأذهان والعقول. أصبحت أمريكا أرض الاحتمالات اللامحدودة. ولن توقف الحدود تقدم المستوطنين والفاتحين؛ بل عدت نوعا من التخوم التي يمكن تجاوزها وأسرارا غامضة يجب كشفها واستكشافها. وهكذا غدا «التقدم» تعبيرا مشحونا بالمعنى المسيحاني: يحمل في ركابه افتتان المستوطنين الأوائل بمملكة الله وبحثهم

عنها في العالم الجديد. لكن الوعد كان كثير المطالب: يمكنك أن تكون مهندس مستقبلك ومصممه، لكن عليك أن تستعد لفهمه والتشبث به والقتال من أجله. تلك كانت، وظلت، الطريقة التي ترتقي بها إلى مستوى النداء (الرباني) الموجه إليك.

ثمة جرعة كبيرة من الفردانية في صورة التقدم هذه. وإدراكها يساعدنا في فهم السبب وراء تعددية المجتمعات المحلية والطوائف والكنائس، وانتشار الجماعات التمثيلية ومجموعات الضغط. من المؤكد ظهور قدر كبير من التشظي والانقسام والعلمنة على مدى القرون، بحيث أن الركائز التوراتية للأجيال المبكرة غدت غامضة ومبهمة. لكن الاعتقاد القديم بألفية المسيح ما زال حيا وقويا. فرؤية أمريكا لم ترتبط فقط بتراث الخروج الجماعي للإسرائيليين (من مصر)، بل اتصلت اتصالا وثيقا بصورة الإنجيل الرؤيوية عن نهاية الزمان، خصوصا في سفر الرؤيا. وستشمل العودة الثانية للمسيح وبداية حكمه الألفي معركة نهائية حاسمة مع المسيح الدجال، وهذا أعطى أهمية خاصة لإقامة وإنشاء الولايات المتحدة: فقد عدت جزءا من «المملكة الألفية» التي ستظهر قريبا.

مثلما سأبين في الفصل التالي، استفزت فكرة الألفية فيضا وافرا من التوقعات والآمال والتأملات. فاللاهوت السياسي المتضمن في سلسلة روايات «المتروكون» (Left Behind) مثلا التي اعتلت قائمة أكثر الكتب مبيعا، يوضح أن مفاهيم الألفية مرتبطة ارتباطا عضويا بفكرة الدعوة الربانية لأمريكا لإنقاذ العالم برمته. وهي لا توجد لنفسها، لكن لها وظيفة خلاصية/إنقاذية لأمم وشعوب الأرض الأخرى. وحتى حين لم تعد

الأصول التوراتية مفهومة تماما، ظل الشعور بحمل الرسالة حيا وقويا. وهذا ما أدهشني بوصفه مشروعا مسيحانيا، إحساسا محددا برسالة الأمة الأمريكية. ولا يمكن تخيله بمعزل عن فكرة وجود قوة إلهية ترشد وتهدي وتدعم وتؤيد النداء الموجه إلى أمريكا.

عندما يمتلك المرء شعورا بهذه الدينامية يسهل عليه فهم السبب الذي جعل المتطهرين (البيوريتان) في السنوات المبكرة يفضلون المفاهيم الثيوقراطية. فما كان فاسدا في إنكلترا سيصبح واقعا حقيقيا في العالم الجديد. لكن حين تكون الحاكمية لله، تدعى الكنيسة والمجتمع معا لحياة مرتكزة على خشية الله. واعتمادا على الإنجيل، سيرتقي نمط من «الكومنويلث المسيحي المقدس» ـ بكلمات أخرى، نظام سياسي واجتماعي فريد تشكل فيه الكنيسة والدولة مجتمعا يرتبط بعهد ميثاقي مع الله[3].

بهتت هذه الرؤية الثيوقراطية الواضحة بالطبع مع تدفق مزيد من المهاجرين إلى الأرض الجديدة، وتوطد العلاقات الحميمة بين مجتمعات نيوانغلند المحلية ومجتمعات الجنوب (مثل فيرجينيا). لكن ما ظل باقيا هو الإشارة إلى الله ـ أو بلغة عصر التنوير، إلى الكائن الأسمى ـ بوصفه مفهوما هاديا للفهم الذاتي للأمة الأمريكية البازغة. ولربما من المناسب الاستنتاج أن الدافع المسيحاني أصبح يتمتع بجاذبية مستقلة آسرة لجميع الغرباء الذين تقاطروا إلى هذه البلاد الجديدة. ومن ثم، استحضره الزعماء السياسيون لحشد الناس خلفهم وإعطائهم إحساسا بالانتماء. سيفسر ذلك أيضا لماذا أمكن تكييف هذه المسيحانية لتوائم الحاجات المدركة للولايات المتحدة وطموحاتها مع تزايد عدد مواطنيها وتوسع حدودها لتتجاوز كل ما تخيله المهاجرون

في الأيام المبكرة. إضافة إلى السبب الذي جعل الخطاب العام يحتفظ بالحاجة إلى مثل هذا المكون الديني القوي.

من المفيد في هذا السياق معاينة خطب التنصيب التي ألقاها الرؤساء الأمريكيون. فهي تشكل لحظات فريدة يسعى خلالها الرئيس القادم إلى وصل برنامجه بالمشروع المسيحاني للأمة. الرئيس الأول للولايات المتحدة، جورج واشنطن مثلا، أعلن في خطاب القسم لولايته الأولى:

> إن من غير اللائق في هذا العمل الرسمي الأول إهمال الإشارة إلى توسلي وتضرعي للرب العظيم، إله الكون وحاكمه، الذي يترأس على الأمم، ويمكن بعونه إصلاح كل نقيصة في البشر، أن يبارك حريات وسعادة شعب الولايات المتحدة، ويعينه على إقامة حكومة تحقق هذه الأهداف الجوهرية، ويمكن كل أداة تستخدمها إدارتها من تنفيذ الوظائف الموكلة عليها.

> يتابع واشنطن بالنفس ذاته ليصف المهمة التاريخية لهذا الاتحاد الفتي من الولايات:

> لا يوجد شعب يقر ويعترف ويعشق اليد الخفية التي تسير أمور البشر أكثر من شعب الولايات المتحدة. فكل خطوة تقدم بها نحو إقامة أمة مستقلة تبدو متميزة برمز دلالي يشير إلى العناية الإلهية.

ويضيف فيما بعد:

> لأننا يجب أن نقتنع بأن ابتسامات السماء الميمونة لا يمكن أن تنتظرها أمة تتجاهل القواعد الأبدية للنظام والحق التي

قدرتها السماء ذاتها؛ ولأن الحفاظ على نار الحرية المقدسة ومصير نموذج الحكم الجمهوري يعتمد حقا اعتمادا عميقا ونهائيا على التجربة الموكولة إلى أيدي الشعب الأمريكي(4).

يبدو أن هذه العبارات تظهر ما يلي:

1ـ الله الذي يتحدث عنه جورج واشنطن هو رب الكون العظيم الذي يرشد «الأمم»، في حين أن «يده الخفية» تحكم تاريخ الأمة الجديدة.

2ـ العناية الإلهية تهدي «التجربة» الموكولة إلى الشعب الأمريكي. أما الكفاح في سبيل الاستقلال فيعد هدفا للعناية الإلهية ذاتها.

3ـ يتعلق هذا الكفاح «بنار الحرية المقدسة». وحين يرتبط بالنموذج الجمهوري للحكم، يعني أنه «يعتمد اعتمادا عميقا ونهائيا على التجربة الموكولة إلى أيدي الشعب الأمريكي». وبهذه الطريقة، تشكل الحرية والنموذج الجمهوري للحكم مركز «التجربة» التي تلتزمها الولايات المتحدة إلى أبد الآبدين.

من المفهوم أن يفسر جورج واشنطن الصراع غير المتكافئ بين مستعمرات المستوطنين/ المزارعين الأمريكيين الصغيرة والقوة الساحقة لإنكلترا بوصفه عملا تحريريا ربانيا. وحين وصل التجربة الأمريكية بأهداف وقوى السماء، عبر عن رأي ظلت أصداؤه تتردد في رسائل الحرب وخطب القسم للعديد من خلفائه. نقدم فيما يلي بعض الأمثلة من الرؤساء الأمريكيين في القرن العشرين. بيان ودرو ولسون عن أهدافه في الحرب عام 1917 كان بليغا على نحو خاص: «يجب جعل العالم مكانا آمنا للديمقراطية. ويجب تأسيسها على الركائز المختبرة للحرية السياسية. ليست لدينا غايات أنانية

نريد خدمتها. لا نرغب في الفتوحات ولا الهيمنة. ولا نسعى إلى الضمانات لأنفسنا، ولا التعويض المادي عن التضحيات التي سوف نقدمها عن طيب خاطر. نحن لسنا سوى أحد المدافعين عن حقوق البشر»[5].

فرانكلين روزفلت تلحف أيضا بعباءة إنقاذ العالم بكل ارتياح، حين قال في خطاب القسم للولاية الرابعة (1945): «لقد بارك الله القدير أرضنا بطرائق عديدة. إذ وهب شعبنا قلوبا شجاعة وسواعد قوية توجه ضربات شديدة في سبيل الحرية والحقيقة. وأعطى بلادنا إيمانا دينيا أصبح أملا للشعوب جميعا في عالم مكروب. لذلك نحن نصلي له كي نرى سبيلنا بوضوح - نرى السبيل المؤدي إلى حياة أفضل لأنفسنا ولجميع إخواننا البشر - لتحقيق إرادته تعالى بإقامة السلام على الأرض»[6].

جون كنيدي اختتم خطاب القسم بهذه الكلمات: «بضمير حي نعده الثواب الوحيد الأكيد، والتاريخ بوصفه الحكم النهائي على أفعالنا، دعونا نتقدم لقيادة الأرض التي نحب، ونسأل بركته وعونه تعالى، مع معرفتنا بأن عمل الله هنا على الأرض يجب أن يكون عملنا»[7]. تنقل هذه البيانات والتصريحات بقوة صورة القدر المسيحاني بوصفه العمود الفقري لـ«الدين الوطني»؛ أو بتعبير آخر، ينظر إلى الأهداف السياسية للولايات المتحدة من الداخل بوصفها إلهاما من الله، ولذلك فهي تتمتع بعامل من العصمة المسيحانية. وضمن خط النسب السلالي هذا قال جورج بوش (الابن) في خطاب الاتحاد (28 كانون الثاني/ يناير 2003):

أمريكا أمة قوية، شريفة وكريمة في استخدامها لقوتنا. نحن نمارس القوة دون فتح واحتلال، ونضحي في سبيل حرية الغرباء والأجانب.

الأمريكيون شعب حر، يعرف أن الحرية حق كل شخص ومستقبل كل أمة. الحرية التي نثمنها ليست هبة أمريكا إلى العالم، بل هبة الله للبشر[8].

تحتوي هذه الكلمات على ثلاث قناعات راسخة يمكن أن تساعد الأجانب على فهم التوليفات الفريدة والغريبة للمسيحانية الأمريكية:

1ـ الحرية هبة الله إلى البشر.

2ـ أمريكا جسدت هذه «الهبة» إلى درجة الكمال بحيث قد تخطئ الأمم الأخرى وتظن أنها «هبة أمريكا» إلى العالم.

3ـ أمريكا «تضحي» بنفسها من أجل حرية الغرباء والأجانب. ومن ثم فإن جلب الحرية، الهبة الربانية، إلى الغرباء والأجانب في الأمم الأخرى التزام وتضحية من جانب أمريكا.

يضيف عامل التضحية معنى خاصا للمشروع المسيحاني.

فإذا كان ذلك كله صحيحا، تبرز الولايات المتحدة في الموقع الاستثنائي الذي سماه ارنست لي توفيسون «الأمة المنقذة»[9]. يبدو هذا الزعم متغطرسا إلى حد مروع. لكن قبل إدانته بوصفه تبريرا مرتكزا على خداع الذات لاستخدام القوة أو إساءة استخدامها، أرغب في الاعتراف بسرعة بأنه أُثبت عمليا بالالتزام السخي والمكلف الذي لن ينساه أبدا العديد من الناس ـ ومنهم الألمان. إذ لا يقتصر الأمر على وصف تدخل الولايات المتحدة في الحربين العالميتين الأولى والثانية بمثل هذه التعابير فقط؛ بل يجب أن تعزى عملية إعادة تأسيس الحكم الديمقراطي بعد «رايخ الألف عام» الذي تحدث عنه هتلر إلى التضحية المكلفة للشعب الأمريكي غالبا.

فضلا على ذلك كله، أريد من القارئ أن يتذكر أن أمما أخرى أطلقت مثل هذه المزاعم والدعاوى المسيحانية. أقول مجددا كمواطن ألماني، إنني لا أستطيع إلا تذكر المسيحانية السياسية لهتلر. فقد زعم أن «العناية الإلهية» دعته لتخليص العالم من شر الشعب اليهودي الملوث. يورغن مولتمان وصف ذلك بأنه «النسخة الكاريكاتورية الألمانية القصيرة الأجل عن هذه الفكرة»[10].

ما يجعل مسيحانية الولايات المتحدة فريدة ـ ومهددة ـ هو حقيقة أنها عامل فعال في «السيناريو التاريخي» لأمريكا. ويبدو أنها تبرر الشعور الأمريكي بالقوة العالمية والالتزام العالمي. ولذلك يظهر السؤال التالي: كيف يمكن لأمة المحافظة على الصورة المسيحانية الذاتية دون السقوط في شرك الوطنية المتغطرسة الاستكبارية؟ هل يظل مشروع أمريكا المسيحاني منيعا إلى الأبد من سوء الاستخدام؟ على سبيل المثال، هل تعد «الحرب على الإرهاب» تعبيرا كافيا عن رسالة أمريكا العالمية أم صورة كاريكاتورية منذرة بالخطر عنها؟

الرموز المسيحانية

هنالك سبب وجيه يدعو للتأمل في السؤال التالي: هل يمكن للمزاعم المسيحانية أن تتسق مع الحاجة المتنامية لأمم الأرض إلى «العمل معا»، حسب ذلك التعبير المألوف الذي يقترح حل الصراعات بطريقة ودية. عند هذه النقطة من محاولتي فهم المفهوم الذاتي لـ«أمريكا»، أجد من الملح معاينة كيف نُقلت فكرة المسيحانية السياسية لـ«الأمة المنقذة» إلى زهاء ثلاثمئة مليون مواطن. ما الذي جعل من الممكن للرجال والنساء

المنتمين إلى أكثر الخلفيات في العالم تنوعا على صعيد الديانات والتقاليد والثقافات، أن يعدوا أنفسهم أمريكيين؟ ما الذي يشجع ويروج هذا التماهي السريع مع «أمريكا» المسيحانية؟ من الواضح أن ذلك لا يمكن تحقيقه عبر الخطاب العام وحده كما تمثل في خطب أداء القسم أو حالة الاتحاد التي ألقاها الرؤساء. قد نجد أحد الأجوبة في الاتصال الرمزي الذي يبدو أنه يربط الشعب الأمريكي برباط وحدة المشاعر فيما يتعلق مثلا بالعلم الأمريكي وأهم عيدين وطنيين، عيد الشكر وعيد الشهداء.

في عام 1965، خلال إقامتي الأولى في الولايات المتحدة، دهشت وذهلت لرؤية العلم الأمريكي مرفرفا على كل كنيسة، وفي كثير من الأحيان في الجزء الرئيسي من الصحن، أي أقدس* مكان فيها. ألم أتعلم أن الفصل الصارم بين الكنيسة والدولة يعد واحدا من أهم منجزات أمريكا الخاصة ومبادئها التي لا يمكن انتهاكها؟ الدستور لا يجيز إنشاء كنيسة للدولة (مثلما هي الحال في البلدان الاسكندنافية)، ولا ضرائب كنسية (كما في ألمانيا والنمسا وسويسرا). ومع ذلك، هنالك علم فوق كل كنيسة! أخبرني صديق خلال حرب العراق عام 2003 أن النشيد الوطني الأمريكي تردد في كل قداس أقيم في كنيسته. فكيف أمكن اجتماع العلم والصليب بمثل هذا التجانس والتوافق؟

حين وصلت إلى أمريكا عام 1965، لم يكن قد مضى سوى عشرين عاما على نهاية الهياج القومي المحموم للنازيين في ألمانيا. لذلك كان التعبير عن العواطف الوطنية يثير الشكوك في نفسي. إذ يستحيل أن يفكر

* هذا زعمهم وإلا فالكنائس الآن معروف ماذا يحدث فيها من مخالفات مثلها مثل غيرها في الغرب.

أحد برفع علم جمهورية ألمانيا الاتحادية على إحدى كنائسنا. وما زال الأمر غير وارد حتى الآن. لكن في الوقت ذاته، هنالك علاقة مؤسسية وثيقة بين الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية والدولة الوطنية الألمانية. ومن بين العديد من الأمور الأخرى، تعمل الحكومة الوطنية الألمانية كجابي ضرائب للكنيسة وتدفع تكاليف التعليم الديني في المدارس العامة. وصحيح أن الفائزين في المناسبات الرياضية الدولية أصبحوا يلفون أنفسهم بأعلامهم الوطنية كما جرت العادة منذ سنوات، والرياضيين الألمان ليسوا استثناء في هذا السياق، إلا أن من النادر أن يرفع المواطن الألماني علم بلاده أمام بيته.

في صيف عام 1966، عملت مدة ثلاثة أشهر في أبرشية في فيلادلفيا. وكان راعي الأبرشية وزوجته وأطفالهما الخمسة يمضون عطلتهم في بيتهم الصيفي في فيرمونت، ودعوني للانضمام إليهم في عطلة نهاية الأسبوع. استمتعت كثيرا بالزيارة لعدة أسباب. لكنني رأيت شيئا حيرني: ففي الصباح، قبل تناول الفطور، جمع الجد أحفاده الخمسة قرب بركة السباحة. وفي حين تشرف أحدهم برفع العلم، اصطف الآخرون وأيديهم اليمنى على قلوبهم، وأدوا التحية لعلم الولايات المتحدة.

من المؤكد أن الحدث عابر وغير مهم؛ لكنني قلت في نفسي «هكذا تبدأ المسألة». فالارتباط مع رمز «أمريكا الجميلة» ينطلق من حافة بركة السباحة في المنزل، من بيوت أروع الناس، من العائلات المحبة والكريمة التي ترعى أبناءها؛ ويستمر في المدارس والمعسكرات الصيفية؛ ويصبح جزءا «طبيعيا» من الأحداث الرياضية والاحتفالات العامة. وهكذا يغدو العلم جزءا لا يتجزأ من نسيج المشاعر الوطنية بطريقة لا نجدها في

أي مكان آخر، مثلما أكد صمويل هنتنغتون: «على الرغم من عدم وجود إحصائيات مقارنة دقيقة، إلا أنه لا يوجد بلد آخر على ما يبدو يتمتع فيه العلم الوطني بمثل هذا الحضور المنتشر على أوسع نطاق ويحتل الموقع المركزي في الهوية الوطنية»[11]. وكما قال إدوارد سعيد المفكر الكبير الفلسطيني الأصل: «لا أعرف بلدا آخر يجسد فيه العلم الخفاق مثل هذا الرمز المركزي. أنت تراه في كل مكان.. فهو يجسد بطريقة فريدة وغريبة الصورة الذاتية للأمة. ويمثل الثبات البطولي والاعتقاد بأن أمريكا مطوقة من أعداء لا قيمة لهم»[12].

هذا أمر جيد، أليس كذلك؟ أم أنه ليس جيدا كثيرا؟ لربما أبالغ في الشك والارتياب بسبب خلفيتي الألمانية. لكن سؤالي يبقى كما هو: متى يتحول الرمز الإيجابي إلى رمز سلبي؟ بعد هجمات سبتمبر الإرهابية عام 2001، غرقت الولايات المتحدة تقريبا في بحر من الأعلام. أعتقد أن ذلك استعراض يستهدف إلى حد ما إعادة الاطمئنان والالتزام في مواجهة تلك الهجمات الصادمة. لكن، من ناحية أخرى، مثل الاحتشاد حول العلم طريقة لكبت الانتقادات غير المستساغة ووسيلة لإعداد وتهيئة الشعب الأمريكي وجدانيا وعاطفيا للحرب على الإرهابيين.

وفي حين أن العلم هو رمز أمريكا المرئي باستمرار، إلا أن الأعياد (والعطلات) الوطنية طقوس تتكرر كل سنة. فعيد الشكر يعود إلى أول احتفال للحجاج، الذين قدموا الشكر لله على نجاتهم من أخطار البرية (سرعان ما سيتجاهلون حقيقة أن بقاءهم يعود غالبا إلى المساعدة الفاعلة التي قدمتها القبائل الهندية المحلية المحيطة بهم). وأصبح عيد الشكر التعبير الرامز عن أمة تدرك الدعوة الإلهية الموجهة إليها وتلتزم مقاومة

الضغوط المهددة من البراري المتوحشة. ومن المؤكد أن معظم الأمريكيين يحتفلون بعيد الشكر بوصفه مناسبة عائلية. وبذلك فهو لحظة لتقدير قيمة الشبكات الداعمة من الأسر والأصدقاء. لكن الرسالة القديمة ما زالت جزءا منه، على الأقل في العناصر الريفية المميزة لعشاء عيد الشكر.

لعيد الشهداء طبيعة مختلفة، فقد استمد إلهامه، جزئيا، من المراسم التي أقيمت عام 1863 تخليدا لأولئك الذين سقطوا في معركة غيتزبرغ. وخطبة ابراهام لينكولن الشهيرة (خطبة غيتزبرغ) محاولة لإعطاء معنى لمقتل الضحايا في الحرب الأهلية: «نحن هنا مصممون على أن هؤلاء الموتى لم يقضوا عبثا؛ وأن هذه الأمة، رعاها الله، سوف تبعث الحرية من جديد، وأن هذه الحكومة التي تحكم باسم الشعب ومن أجل الشعب لن تزول من الأرض». مرة أخرى، تكشف هذه الكلمات التقليدية المسيحانيةَ السياسية لـ«التجربة الأمريكية». انبعاث الحرية ستحققه تضحية من ماتوا ـ ويموتون ـ في ميدان المعركة. يستحضر هذا التفسير تضحية المسيح في سبيل خلاص العالم. فضلا على ذلك، حين اغتيل ابراهام لينكولن في الجمعة العظيمة من عام 1865، اكتسب موته أيضا معنى التضحية والفداء، الذي جعلته قصائد ومحاضرات والت ويتمان شعبيا ومنتشرا بعد الحرب. وبدا لويتمان والكثيرين غيره أن لينكولن قدم حياته أيضا في سبيل رفاهية وسعادة ـ وخلود ـ الأمة. أما الروابط الجامعة بين تضحية المسيح في سبيل خلاص البشر وموت الجنود الأمريكيين من أجل إنقاذ العالم فواضحة لا لبس فيها. «فالأمة التي هي تحت رعاية الله» تعد نفسها أداة التضحية الربانية من أجل الأمم الأخرى على الأرض: والذين سقطوا في هذا النضال هم شهداء ضحوا في سبيل عالم أفضل سيأتي.

في حين أصبح عيد الشكر رمزا «لقيم العائلة» التي يعتمد عليها كل أمريكي ـ وكل إنسان ـ فإن عيد الشهداء تعبير رامز لدين أمريكا المدني، الذي يستحضر فيه الدور المسيحاني لهذه «الأمة التي هي تحت رعاية الله» مرارا وتكرارا. الرئيس جورج بوش قال ما يلي في خطبة ذكرى القتلى الأمريكيين في مقبرة ارلنغتون عام 2005: «عندما ننظر عبر هذا الميدان نرى حجم البطولة والتضحية.. كلهم وقفوا لحماية أمريكا.. وبسبب تضحية رجالنا ونسائنا في القوات المسلحة، سقط إلى الأبد نظامان إرهابيان، وتقدمت الحرية، وأصبحت أمريكا أكثر أمانا»(13).

من الواضح أن الاحتفالات الرمزية تؤدي وظيفة إعادة توكيد وترسيخ التزام مواطني أي بلد الأهداف التي وضعها لهم زعماؤهم وقادتهم. ومراسم وضع إكليل الزهور على ضريح المجهول في مقبرة ارلنغتون في عيد الشهداء ضرورية لتعميق التواصل الرمزي بين الأمريكيين وتأكيد قبولهم بالحرب في العراق التي فقدت شعبيتها بصورة مطردة.

لكنني لا أرغب في تجاهل حقيقة أن عيد الشهداء أقل شعبية بكثير من عيد الشكر. فضلا على أن من المهم تذكر أن هذين العيدين الوطنيين ليسا الوحيدين في الولايات المتحدة. فهنالك عيد يستحق انتباها خاصا هو إحياء ذكرى مارتن لوثر كينغ، الذي أقره الكونغرس وجعله الرئيس ريغان قانونا عام 1986. فقد أصبح إحياء هذه الذكرى، الذي سبقه كفاح من أجل اعتبارها عيدا وطنيا، تعبيرا رمزيا عن نضال أمريكا المستمر في سبيل الحريات المدنية لكل مواطن. وبذلك، فهو مثال معبر عن التنوع الخلاق داخل المجتمع الأمريكي؛ ويضيف مظاهر جديدة ونقدية للخطاب الرمزي الذي يجمع الأمة معا. في الوقت ذاته، يجب ألا نتجاهل حقيقة أن

عيد ذكرى مارتن لوثر كينغ لم يحظ حتى الآن بأهمية وانتشار العيدين الآخرين المذكورين آنفا. ومع أنه أصبح عطلة اتحادية رسمية، إلا أن بعض الولايات تباطأت وترددت في قبوله.

شعب مختار ونصر مختار

ما الذي يحدث حين تعد أمريكا نفسها أداة مختارة من رب التاريخ؟ وما هي عاقبة منح الذين يموتون من أجل هذه «المهمة/ الرسالة» مكانة الشهداء؟ لا بد لمثل هذه الأمة أن تزعم أنها على جادة الصواب دوما، أمة خيرة وعادلة، ومن ثم بريئة من أي دم يسفك. يستشهد مولتمان بجون ادامز، الذي كتب رسالة إلى توماس جيفرسون قال فيها: «لابد أن تمضي مئات السنين قبل أن يصيبنا الفساد. فجمهوريتنا النقية الفاضلة الاتحادية التي تهتم بسعادة ورفاهية عامة الناس سوف تبقى إلى أبد الآبدين، وتحكم العالم وتعرفه كمال الإنسان»(14). تحدث توماس جيفرسون بدوره عن الجمهورية الفتية بوصفها «أمة بريئة في عالم شرير»(15). في تلك الأيام، بدا صائبا بالتأكيد، خصوصا عند مقارنة مجتمعات المستوطنين الفتية في العالم الجديد مع الدول الإقطاعية في أوروبا وسياستها المخادعة القائمة على القوة. في تلك السنوات المبكرة، كان يبدو من السهل لأولئك الذين أفلتوا من قبضة التعجرف والتيه والفساد في «أوروبا القديمة» أن يعدوا أنفسهم شعبا فتيا ونقيا، شعبا مختارا ومدعوا لتنفيذ إرادة الرب والتمهيد للمرحلة الأخيرة من التاريخ و«كمال الإنسان».

طالما ظلت الولايات المتحدة الوليدة، وفقا لبنود الاتحاد، ضعيفة وعاجزة، فإن هذه المزاعم التي تدعي البراءة والطهر لا تسبب أي ضرر.

لكن ذلك تغير بصورة درامية حين بدأت الولايات المتحدة احتلال وفتح المناطق الواقعة إلى الغرب من المستوطنات الأصلية. فمنذ عام 1817، طالب مبدأ مونرو بضرورة أن تمتنع البلدان الأخرى عن استعمار القارة الأمريكية، الشمالية والجنوبية، التي أعلنت مجالا حيويا لنفوذ الولايات المتحدة. ولأنها لن تتدخل في شؤون الدول الأوروبية، فهي تنتظر من القوى الأوروبية الابتعاد عن القارة الأمريكية. كان مبدأ مونرو تعبيرا عما أدعوه اكتشاف العظمة. فالمتطهرون (البيوريتان) الذين «غامروا في البرية» كشفوا في نهاية المطاف الإمكانات الهائلة والمغرية للعالم الجديد (والأوسع). فهنا تمتد فضاءات مفتوحة للتقدم المسيحاني للشعب المختار.

بحلول عام 1850، أصبح من المعتاد القول إن «قدر أمريكا المحتوم» يفرض حيازة وامتلاك الأرض. وسيصبح «الغرب الضاري» جنات عدن. ها هم قساوسة الكنيسة المنهجية يتجولون على ظهور الخيل لترسيخ الطرائق الربانية بين الخارجين على القانون والوثنيين. في حين فتحت السكك الحديدية البلاد وجعلت من الأسهل على المسافرين إلى الغرب البحث عن الأرض والذهب. وبدا أن شهية الذين كانوا جزءا من هذه الموجة الكاسحة التي اجتاحت القارة الأمريكية، للفتح والتوسع، لا تهدأ ولا تشبع، وأنهم ـ على الصعيد الديني ـ خاضعون لقدر العناية الإلهية وراتعون في بركاتها. ولذلك أصبح من الطبيعي ألا يعدوا من يعترض هذه الحركة الكبرى عدوهم الدنيوي فقط بل عدو الله ومعارض القدر الإلهي أيضا. ولم يكن السكان المحليون، «الهنود»، مجرد شعب وثني يجب هدايته ثم دمجه في الجسد السياسي تحت مظلة الحكم المنظم فقط (وهذا ما حدث غالبا في أمريكا اللاتينية)؛ بل هم حجر عثرة في سبيل الله، ومن ثم كان من المحتم إبعادهم عنه.

أصبح القدر المحتوم مفهوما ذرائعيا يبرر تجاوزات وانتهاكات عمليات فتح الأراضي واحتلالها. وساعد على تبرير الحروب الهندية، إضافة إلى الحرب الإسبانية ـ الأمريكية عام 1898، وأخيرا وليس آخر، شراء الفيليبين واحتلالها ردحا من الزمن[16].

القدر المحتوم ذريعة تبريرية خطرة لأنها تساعد على ترسيخ ازدواجية فهم التاريخ. وتضع «الشعب المختار» في مواجهة الشعوب غير المختارة. وتسمح بتمييز سطحي وسهل بين «الصواب» و«الخطأ»، و«الأخيار» و«الأشرار»، و«الخير» و«الشر». وما أجده محفوفا بالخطر على وجه الخصوص الزعم الضمني بالبراءة. فهذا يجعل من الصعب على المنتصرين رؤية معاناة وآلام العدو، ويسهل عليهم إنكار ذنبهم[17].

أستطيع تسليط الضوء على ما يمكن للزعم المسيحاني أن يفعله في هوية الأمة عبر الإشارة إلى ملاحظات المختص الأمريكي في العلاج النفسي فاميك فولكان[18]. فهو يظهر أن التجارب والصور التاريخية الحاسمة يمكن أن تمارس تأثيرا تكوينيا في الفهم الذاتي للشعوب. فبالنسبة للشعب الصربي مثلا، خدمت هزيمته أمام جيوش الإمبراطورية العثمانية الزاحفة عام 1389 كمفتاح تأويلي يقرر دعوته ورسالته التاريخيتين. ومن المؤكد أن معركة كوسوفو (1389) كانت بالنسبة له تجربة صادمة لأنها رسخت موقعه الخاضع داخل الإمبراطورية العثمانية المسلمة[19]. لكنها أصبحت أكثر من مجرد حادث مأساوي في تاريخ الصرب؛ فقد حولوها إلى الصدمة الواحدة والوحيدة التي يفسرون بواسطتها ذواتهم وأمتهم ـ علتهم الوجودية. يسمي فولكان هذه العملية التأويلية «الصدمة المختارة»[20]. وهو لا ينكر وقوع حدث صادم؛ لكنه يشير إلى أنه حين تعد

عملية «اختيار» مثل هذا الحدث المفتاح التفسيري الوحيد للصورة الذاتية لأمة بأسرها، تصبح النقطة الحصرية لتوجه هوية الأمة. وهذا يقتضي ضمنا استحالة دمج التجارب التاريخية الأخرى بصورة كافية، لتقرر «الصدمة المختارة» السرد التاريخي الرسمي للأمة ومن ثم خياراتها السياسية. في حالة صربيا، زود هذا النزوع زعماءها بالذريعة التبريرية لشن الحرب الأهلية للسيطرة على كوسوفو عام 1989: فقد أشاروا صراحة إلى الذكرى الستمئة لمعركة كوسوفو.

يتابع فولكان ليبين أن هناك أمما أخرى تؤسس هويتها لا على الصدمة المختارة بل على «النصر المختار»: فهي «تختار» تجربة أصلية إيجابية توظف كمفتاح تأويلي مهيمن لفهمها الذاتي ومن ثم لخياراتها السياسية. يقول فولكان إن الأساطير المؤسسة للولايات المتحدة غدت شيئا يشبه «نصرا مختارا»(21). ونظرا لأن الأمة قد تأسست برعاية العناية الإلهية، وتحققت نجاحاتها بفضل الهداية الربانية، فلا يمكنها تصور سيرورتها الآتية إلا بطرائق انتصارية.

ومن ثم فإن التجربة المسيحانية تحمل علامات «النصر المختار». مرة أخرى نقول إن من المتعذر إنكار الانتصارات العظيمة التي حققتها الولايات المتحدة. النقطة هي أن الأمة حين ترى انتصاراتها العظيمة في صورة نصر مقدر من السماء، فإنها تمنع نفسها من إدراك تأثير هذه الانتصارات على الآخرين. وهذا يساعد في تفسير الدافع الذي جعل العديد من المواطنين الأمريكيين (ومنهم الرئيس نفسه) يعجزون في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر عن فهم السبب وراء هذا القدر من الكراهية للولايات المتحدة في العالم. ويساعدنا أيضا في فهم الباعث

وراء قبول مواطنيها بهذه اللامبالاة المهمة الجديدة التي سميت رسميا «الحرب على الإرهاب»[22].

كنيسة الدولة والدين المدني

في آذار/ مارس 2003، نشرت المجلة الكاثوليكية البريطانية «ذي تابليت» مقالة لكليفورد لانغلي يقارن فيها العلاقة بين الرئيس بوش ورئيس الوزراء توني بلير فيما يتعلق بكنائس كل من البلدين. إذ يقول الزعيمان كلاهما إنهما مسيحيان ملتزمان. الرئيس بوش يستخدم صراحة اللغة الدينية ويختتم خطبه بانتظام بالدعاء إلى الله كي يمنح بركاته إلى الولايات المتحدة (مع أن التعديل الأول من الدستور ينص على الفصل الصارم بين الكنيسة والدولة). يجد العديد من المراقبين الأوروبيين هذا التعبير الرئاسي عن التقوى والورع الديني ملغزا ومحيرا. ولم ينسوا حقيقة أن العديد من الكنائس الرئيسة في الولايات المتحدة انتقدت علنا - وباسم الله أيضا - الرئيس بسبب شن الحرب على العراق، في حين أن كنائس أخرى، ومعظمها من طبيعة أكثر محافظة، امتدحت بوش بوصفه عبد الله المطيع ومنفذ إرادته لأنه يشن الحرب على الإرهابيين. وفي الحقيقة، فإن الكنيسة المنهجية (الميثودية) المتحدة، كنيسة الطائفة البروتستانتية التي ينتمي إليها الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني، رفضت سياستهما الحربية في العراق[23]. إذن، أي «رب» يتحدث عنه الرئيس ومختلف الكنائس المسيحية؟ يبدو للمراقب البعيد وكأنما هنالك علاقة حميمة بين الدولة والكنيسة، بل أكثر حميمية مما أجازه وبرره الدستور.

يغاير لانغلي هذه المشاهدة مع الوضع في إنكلترا، حيث الكنيسة الانكليكانية راسخة الجذور، ويجب أن يكون رئيس الوزراء عضوا فيها. في الوقت ذاته، يجب أن يوافق رئيس الوزراء على انتخاب أسقف كانتربري؛ وأن يكون الأسقف نفسه عضوا في مجلس اللوردات. لكن على الرغم من هذه الرابطة الوثيقة بين الدولة والكنيسة، هنالك بالطبع عدد من «الكنائس الحرة» في بريطانيا. الأسقف روان وليامز عرف بانتقاده الحاد لانضمام بلير إلى الولايات المتحدة في الحرب على العراق. ولذلك، استنتج لانغلي أنه لو راقب شخص من كوكب آخر بوش وبلير لتوصل إلى نتيجة مفادها أن بوش أقحم الدين في شؤون الدولة، في حين كان المطلوب من بلير إبقاء الدين والسياسة منفصلين تماما.

ليس شرطا أن تأتي من كوكب آخر لكي تخطئ في تفسير ما تراه. فكثيرا ما تجاهل المراقبون الأجانب حقيقة أن الثقافة السياسية للولايات المتحدة ترتكز على ما دعاه روبرت بيلاه «الدين المدني»[24] أكثر من ارتكازها على الكنائس المسيحية. ومن المؤكد أن الدين المدني في أمريكا يعتمد اعتمادا شديدا على الصور والرموز المسيحية، لكن يمكن أن يشمل بكل سهولة إشارات إلى اليهودية والإسلام والتقاليد التراثية الدينية الأخرى. والمثال المعبر على ذلك «قداس العبادة» الذي أقامته الكاتدرائية الوطنية في واشنطن دي. سي (16 أيلول/ سبتمبر 2001). فقد صمم ليكون الرد الأمريكي الرسمي على هجمات سبتمبر الإرهابية على البرجين التوأمين في نيويورك ومبنى البنتاغون (إضافة إلى الهجوم الفاشل الذي كان يستهدف البيت الأبيض على ما يبدو). شارك في اللقاء ممثلون عن مختلف الديانات؛ وتحدث الرئيس من فوق المنبر؛ وأنشد الحضور «ترتيلة معركة الجمهورية» - ولم يغب أي من مكونات الطقوس الدينية.

لا أريد أن يسيء فهمي أحد. فأنا أعرف تماما أن السلطة التنفيذية للحكومة الأمريكية شعرت أن من الضروري توحيد الأمة عبر مناسبة للتذكر وتوكيد الالتزام. ما أرغب في توضيحه هنا حقيقة أن هذا الطقس الشعائري في الكاتدرائية الوطنية لم يكن صلاة تعبدية ولا علاقة له بشؤون الكنيسة؛ بل كان تعبيرا واضحا عن دين أمريكا المدني. وأعتقد أن من الممكن الاستنتاج أن هذا الدين المدني قد أصبح دين الدولة ـ بكلمات أخرى، غدا دينا وطنيا، يشغل فيه الرئيس منصب الكاهن الأكبر. صحيح أن هذا الأسلوب صارخ في التعبير، لكنه يفسر ظاهرة حيرت الكثير من المراقبين الأوروبيين. ومع أن الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير قد تعرضا لانتقاد مباشر من زعماء الكنائس المسيحية في الولايات المتحدة وبريطانيا، إلا أن الفرق يكمن في أن بوش ليس مضطرا للاهتمام بذلك على الإطلاق. فهو ليس بحاجة إلى تأييد ودعم الكنائس لأن لديه «الدين الوطني» ـ أو الدين المدني، أسًّا يعتمد عليه. واكتسب هذا «الدين» تقاليده وطقوسه وشعائره وعاداته القديمة ورموزه الخاصة به، إضافة إلى «مشاعره المقدسة».

نورد فيما يلي بيانا وجده اللاهوتي السويسري لوكاس فيشر معلقا في إحدى الكنائس الكاثوليكية في مدينة نيويورك:

صلوا من أجل جيشنا ـ صلاة من أجل أمريكا

نحن أمريكا

قلب العالم الباحث

عن الحرية والسلام. نحن

الشرق والغرب، والشمال والجنوب ـ

شعب واحد يضم الكثيرين. نحن ميراث

الشجاعة، والعظمة علينا مقدّرة.

نحن التاريخ والنبوءة، والوطن والحرية،

والملاذ والرؤية.

وهكذا، نحمل نورنا منارة للأمل

ندعو في صلاتنا هذه ربنا وخالقنا:

اجعلنا شعبا يراعي ويرتاح.

دعونا نمد يدا مرحبة

للمشردين والعاجزين والجياع

دعونا ننفذ الخطة الربانية العظيمة

لأرضنا. ليكون الحب هديتنا إلى الأمم[25]

يجسد النص السمات الجاذبة والصفات المروعة لدين أمريكا الوطني. فهو يشير إلى مد اليد المرحبة إلى «المشردين والعاجزين والجياع»، و«الحب» باعتباره هدية أمريكا «إلى الأمم». لا شك في أن الولايات المتحدة تقدم الحب بسخاء إلى الشعوب المحتاجة في شتى أنحاء العالم؛ لكن ذلك يبهم حقيقة أن الولايات المتحدة جلبت الدمار والخراب والحروب أيضا إلى مناطق واسعة من العالم. هذه «الصلاة» لا تكشف عن أي أثر للتواضع. بل يتخمها تعظيم الذات الانتصاري والساذج: «نحن» بوصفنا «قلب العالم».

الاستعلاء الاستكباري والإيمان بصوابية وتفوق الذات في جمل مثل «نحن التاريخ والنبوءة، والوطن والحرية، والملاذ والرؤية»، يصعب على المراقبين الأجانب قبولهما؛ وأنا متيقن أن العديد من الأمريكيين يخجلون من هذه النزعة الانتصارية أيضا.

تحدث ابراهام لينكولن في خطبة غيتزبرغ عن «أمة تحت رعاية الله وحمايته». وعرف جيدا أن من الضروري إبقاء «الرب» واقعا حقيقيا/ سرا غامضا يسمو على أعظم مآثر الأمم. و«صلاة» كمثل التي ذكرناها آنفا تشير بمدلولها إلى أن أمريكا لم تعد «تحت» رعاية الله؛ بل هي على قدم المساواة مع «الله». وهي تزعم معرفة «الخطة الربانية العظيمة» وتدعي «تنفيذها» ـ مع ضمان لينكولن الإضافي بأن حكومة أمريكا التي «تحكم الشعب باسم الشعب ومن أجل الشعب لن تزول من الأرض».

أكتب هذا وقلبي حزين، لأنني مواطن في أمة أرسلت أيضا جنودها إلى الحرب تحت شعار يعبر عن الفخر والاعتزاز: «في سبيل الله والوطن». وكليفورد لانغلي مواطن في أمة، بريطانيا، دعا فيها أسقف لندن، ارثر وينتغتون ـ انغرام، الحرب العالمية الأولى «حربا مقدسة». وكان ذلك عنوان إحدى مواعظه التي أعلن فيها: «هذه حرب مقدسة. نحن إلى جانب المسيحية ضد المسيح الدجال»(26). لقد سأم العديد من الأوروبيين من أفراد جيلي هذا النوع من «القداسة» وهذا النوع من «الأرباب». وحين ننظر إلى المحرقة وغيرها من فظائع الفاشية، إضافة إلى معسكرات العمل الإجباري (الغولاغ) في البلدان الشيوعية، نشعر بالإرهاق من كل ادعاء انتصاري مسيحاني يزعم تطهير عالمنا. لا تكاد توجد أسرة في أوروبا لم تفقد أحد أفرادها في الفظائع الدموية التي ارتكبت في القرن العشرين.

كنت في الخامسة من عمري حين عاد والدي من الخدمة في القوات المسلحة الألمانية التي دامت خمس سنين. أتذكر أول سؤال وجهته إليه: «متى ستندلع حرب أخرى؟». وأتذكر جوابه: «لن تحدث حرب أخرى أبدا!». كان سؤالي ساذجا بالطبع، ولم يكن جوابه صحيحا. لكن الخوف الرابض خلف سؤالي والصدمة الكامنة خلف جوابه، كانا حقيقيين وواقعيين تماما. وكذلك الاعتراف بأن الأيديولوجيات القومية - الانتصارية من جميع الأنواع تنطوي على قدر كبير من الغباء والحمق ولابد أن تنتهي بالكارثة.

وهكذا، بقيت لدي الأسئلة التالية: من وما هو الله في أمريكا؟ ما هو تأثير دين أمريكا الوطني في الأساليب التي تستخدم بها قوتها الساحقة في العالم؟ كيف تتحرر الكنائس المسيحية من دين وطني يبدو أنه يسوغ حتى أفدح الأخطاء السياسية؟ أي نوع من الحوار ضروري داخل/ وبين الطوائف المسيحية - من اليسار إلى اليمين - لاكتشاف ما الذي يعنيه المسيح لها اليوم؟ ثمة حوار حيوي وناشط يجري في الولايات المتحدة[27]. لكن قبل أن أعرض ملاحظاتي ومشاهداتي أود العودة إلى ظاهرة دينية يجدها الأوروبيون محيرة ومربكة: الأدب الرؤيوي في سلسلة روايات «المتروكون».

هوامش

1- انظر على وجه الخصوص:

Jurgen Moltman, The Coming of God: Christian Eschatology (Minneapolis: Fortress Press, 1995), pp. 168 - 78.

2- وجدت كتابين مفيدين على نحو خاص في هذا السياق:

Robert N. Bellah, The Broken Covenant: American Civil Religion in Time of Trial, 2nd ed. (Chicago/London: University of Chicago Press, 1992), esp. chs 1 and 2; Richard T. Hughes, Myths America Lives By (Urbana/Chicago: University of Illinois Press, 2004).

3- انظر:

Avuhu Zakai, Exiles and Kingdom: History and Apocalypse in the Puritan Migration to America (New York: Cambridge University Press, 1992), p. II.

4- «First Inaugural Address of George Washington, April 30, 1789» (Avalon Project of Yale Law School: http://www.yale.edu. lawweb/avalon/president/inaug/washI.htm [accessed Nov. 5, 2005]).

5- انظر:

Woodrow Wilson, «President Woodrow Wilson's War Message, April 2, 1917,» war Massage, 65the Cong., 1st Sess., Senate Doc. No. 5, Serial No. 7264, Washington, D.C., 1917, pp.

3 - 8, Passim.

6- انظر:

Franklin D. Roosevelt, «Fourth Inaugural Address, January 20, 1945» (Avalon Project of Yale Law School:

http://www.yale.edu.lawweb/avalon/president/inaug/froos4.htm [accessed Nov. 20, 2005]).

7- انظر:

«The Inaugural Address of John F. Kennedy, January 20, 1961» (Avalon Project of Yale Law School: http://www.yale.edu.lawweb/avalon/president/inaug/kennedy.htm[accessed Nov. 5, 2005]).

8- George W. Bush, «President Delivers State Of the Union» (White House release: http://www.whitehouse.gov./news/releases/2003/19-20030128/01.html [accessed Oct. 30, 2005]).

9- انظر:

Ernest L. Tuveson, Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role (Chicago/London: University of Chicago Press, 1968).

10- Jurgen Moltmann, The Coming of God, p. 169.

11- انظر:

Samuel Huntington, Who Are We? America's Great Debate (London: Free Press, 2004), p. 128.

-12

Edward Said, «The Other America,» Al Ahram (Egypt), March 20 - 26 , 2003:

http://weekly.ahram.org.eg/2003630//focus.htm (accessed

Oct. 12, 2005).

13- George W. Bush, «President Commemorates Memorial Day at Arlington Cemetery, May 30, 2005» (White House release: www.whitehouse.gov/news/releases/200520050530/05/.html [accessed Oct. 20, 2005]).

14- انظر:

Moltmann, Coming of God, p. 171.

15- Moltmann, Coming of God, p. 171.

16- شرح الرئيس الأمريكي مكينلي السبب الكامن وراء الأمر الذي أصدره بضم الفليبين بالأسلوب التالي: «حين أدركت أن الفليبين سقطت في حضننا لم أدر ما أفعل بها. سعيت إلى مشورة الأطراف كلها.. لكن لم تقدم لي معونة تذكر.. تجولت في البيت الأبيض ليلة بعد ليلة؛ ولا أخجل حين أقول لكم، أيها السادة، إنني ركعت وصليت لله طلبا للنور والهداية في أكثر من ليلة. وفي الهزيع الأخير من إحدى الليالي جاءني النداء - لا أدري من أين، ولكنه أتى فأوحى إلي بما يلي: 1) لا يمكن إعادة الفليبين إلى إسبانيا - فهذا جبن مشين ومعيب؛ 2) لا يمكن إعادتها إلى فرنسا أو ألمانيا - منافستينا التجاريتين في الشرق - فهذا عمل مسيء وخاطئ يضر بمصلحتنا وسمعتنا التجارية؛ 3) لا يمكن أن نتركها لأهلها - فهم غير مؤهلين للحكم الذاتي.. 4) ليس أمامنا من خيار سوى أخذها كلها لتصبح ملكا لنا، وتثقيف وتعليم الفليبينيين، ورفع مستواهم الأخلاقي وتحضيرهم وهدايتهم إلى الدين المسيحي، وعلى بركة الله، مساعدتهم على أفضل وجه، بوصفهم إخواننا الذين مات المسيح من أجلهم أيضا. ذهبت إلى السرير لأنام نوما عميقا، وفي صبيحة اليوم التالي أرسلت في طلب كبير المهندسين في وزارة الحربية (صانع خرائطنا) وأمرته أن يضيف الفليبين إلى خريطة الولايات المتحدة.. وها هي هنا، وستظل كذلك طالما بقيت رئيسا للولايات المتحدة!». انظر:

General James Rusling, «Interview with President William McKinley,» The Christian Advocate, Feb. 22, 1903, P. 17; reprinted in Daniel Schirmer and Stephen Rosskam Shaldom, eds., The Philippines Reader (Boston: South End Press, 1987), pp. 22 - 23.

17- يقول روبرت جيويت وجون لورنس: «حين تدرع الأمريكيون بفكرة الغضب المسير عن بعد، وجدوا أن من المستحيل عمليا تحديد اللوم على الإبادة الجماعية. وعند إجراء مسح شامل للسلسلة الطويلة من المذابح المرتكبة، من حرب الملك فيليب (1675-1676) إلى معركة ونديد ني (1890)، لا نعثر على اعتراف من الأمريكيين بالمسؤولية الفردية عنها. صحيح أن التجاوزات والفظائع (مثل مذبحة ساند كريك) قد افتضحت وأدينت بين الحين والآخر، لكن صناع السياسة المسؤولين عنها لم يقدموا إلى العدالة أبدا. وعلى وجه العموم، لم يكن شعور القديسين بالذنب نتيجة هذه الفظائع يتجاوز شعور دانييل بمصير أعدائه المحتوم في عرين الأسود». انظر:

Captain America and the Crusade Against Evil (Grand Rapids: Eerdmans, 2003), p. 178.

18- عمل فاميك فولكان مع الجماعات التي تعيش أزمات الصراع الحاد ـ مثل دول البلطيق، ويوغسلافيا السابقة، وجنوب إفريقية.

19- انظر:

Vamik Volkan, Blind Trust: Large Groups and Their Leaders in Times of Crisis and Terror (Charlottesville, VA: Pitchstone Publishing, 2004), pp. 50 - 52.

20- Volkan, Blind trust, pp. 37ff.

21- في الطبعة الألمانية من كتاب «ثقة عمياء»، يشير فولكان إلى أن أول عيد شكر أقيم عام 1621 لم يكن مناسبة كبرى كما أصبح فيما بعد. ويذكر أيضا أن من بين الآباء الحجاج كان هنالك أشخاص لديهم دوافع مريبة، وأن الأرض التي استوطنوها قد أعدها وهيأها السكان الأصليون الذين عاشوا فيها. أما

معلوماته فقد استمدها من:

Robert A. Furman, «The Pilgrims: Myth and Reality,» University of Virginia Health Systems:

http://www.healthsystem.virginia.edu/internet/csmhi/furman.cfm (accessed dec. 10, 2005).

22- انظر:

Tim LaHaye and Jerry Jenkins, Glorious Appearing, vol. 12 of Left Behind (Wheaton, IL.: Tyndale, 2004), Quoted by Paul Boyer, "Give Me That End-Time Religion: The Politicization of Prophetic Belief in Contemporary America" (Reflections, p. 26).

23- سعيد أيوب: «عقيدة المسيح الدجال في الأديان» (بيروت: دار الهادي، 1991)، ص195. (ترجمة عن الإنكليزية)، انظر:

Cook, «Muslim Fears,» p. 3.

24- انظر:

Bill Moyers, «There is no Tomorrow,» Minneapolis Star Tribune, Jan. 30, 2005.

Glenn Scherer, «The Godly Must Be Crazy,» Grist (online), Oct. 27, 2004:

http://www.grist.org/news/maindish/200417/10//scherer-christian/index.html (accessed Dec. 10, 2005).

25- انظر جداول «رانك اوردر» البيانية لاستهلاك النفط، واستهلاك الغاز الطبيعي، والسكان، على موقع وكالة المخابرات المركزية (كتاب الحقائق) على الإنترنت:

http://www.cia.gov/cia/publications/factbook (accessed Dec. 5, 2005).

26- Bill Moyers, «There is no tomorrow.»

27- للاطلاع على نموذج مفعم بالحيوية لهذا الجدل، انظر:

"End Times and End Games: Is Scripture Being Left Behind?" Reflections, Yale Divinity School (Spring 2005).

- 2 -

دين نهاية الزمان في أمريكا

ينظر معظم الأوروبيين (ومنهم الفرنسيون!) إلى الأمريكيين بوصفهم أبناء عمومتهم تقريبا: فعلى جانبي الأطلسي هنالك تشديد على «نحن»، وكلنا نأخذ هذا النوع العائلي من العلاقة قضية مسلما بها. هذا يعني أساسا أننا نتقاسم القيم والتقاليد الثقافية نفسها. وعلى الرغم من جميع اختلافاتنا الظاهرة، يعيد السياسيون توكيد هذا الاعتقاد الجوهري مرارا وتكرار. ومن الواضح أن هذا الاعتقاد بالوحدة يوفر ركيزة للعلاقة المتميزة بين بريطانيا والولايات المتحدة. لكن السياسيين الألمان يصرون بإلحاح أيضا على أن الصداقة التقليدية بين بلدينا لها جذور أعمق بكثير من التحالف الوثيق الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية. فالهجرة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، إضافة إلى التلاقح في القرن الماضي، كانت تعني وجود علاقات حميمة بين الشعب الأمريكي وشعوب أوروبا. وعلى الرغم من الانقسامات الداخلية ربما جسدت المسيحية، أو ما يسمى بالتراث اليهودي - المسيحي، أوثق الروابط وأقواها.

من المهم تذكر هذا الميراث المشترك العميق الجذور. لكن ذلك يجب ألا يمنعنا من الاعتراف بأن الانقسامات داخل العالم الغربي وضمن

التراث اليهودي - المسيحي تتنامى وتتعاظم. في الفصل الأول ذكرت حقيقة أن المكونات المسيحانية «لدين أمريكا الوطني» لا يشترك بها معظم الأوروبيين. بل إن الأوروبيين لا يفهمونها. يعكس ذلك نوعا من خيبة الأمل بالأيديولوجيات السياسية شبه الدينية التي دمرت البلدان الأوروبية. ومن ثم يمكن رؤية العلمنة المنتشرة في «أوروبا القديمة» بوصفها استنزافا روحيا أيضا. فقد سئم الناس «المعارك الروحية» الأيديولوجية، وتراودهم الشكوك في الزعماء السياسيين الذين يدعون إلى بحث جديد عن «روح أوروبا».

باعتباري لاهوتيا مسيحيا، تقلقني على نحو خاص الانقسامات المتنامية داخل المجتمعات والطوائف المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة. ومن المؤكد وجود اتصالات وثيقة ومستمرة بين الكنائس البروتستانتية هنا والكنائس الرئيسة في الولايات المتحدة (أفترض أن الأمر ذاته ينطبق على الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية). لكن هذه الرابطة تجمع الكنائس ذات المواقف «الليبرالية». وتستثني الطوائف والمجتمعات المسيحية الإنجيلية والكاريزمية التي تتنامى باطراد. لا يوجد في أوروبا نظير لـ«حزام الانجيل»* في الولايات المتحدة. ولا يعرف اللاهوتيون الأكاديميون وزعماء الكنائس في أوروبا كيف يتواصلون مع الأخوة والأخوات المنتمين إلى اليمين الديني، ولدي انطباع بأن ذلك يصدق أيضا على الكنائس الليبرالية في الولايات المتحدة. ولا يبدي الزعماء المسيحيون المحافظون في الولايات المتحدة أي اهتمام لفهم التجارب المحددة التي أثرت في الكنائس البروتستانتية في أوروبا. وإضافة إلى الفوارق التقليدية في اللاهوت

* منطقة ممتدة عبر الجنوب والغرب الأوسط من الولايات المتحدة تهيمن عليها عموما الأصولية الدينية. (م)

والعبادة، فإن البروتستانتية المعاصرة منقسمة انقساما عميقا على طول الخط المحافظ/ الليبرالي[1].

«المتروكون» مثال معبر في هذا السياق: فسلسلة أفضل الكتب مبيعا في أمريكا لم تحرك ساكنا في حياة الكنائس في أوروبا. والأجزاء الاثنا عشر الأصلية من السلسلة، التي كتبها تيم لاهاي وجيري جنكينز، وارتقت إلى صناعة هائلة (سلسلة للأطفال، فيلمان سينمائيان، برامج موسيقية، ألعاب كمبيوتر، وجميع المنتجات «ذات الحق الحصري» التي صاحبت النجاح الكاسح)، لا يوجد أي منها في أوروبا[2]. ومن المؤكد أن هذا الانقسام يخبرنا الكثير عن الحالة الروحية للأوروبيين. فإذا نظرنا إلى لائحة الكتب التي حققت أعلى المبيعات، نجد أن الأوروبيين أشد اهتماما بما يحدث للفتى هاري بوتر مقارنة بما يحدث للمسيح. وهذه ظاهرة يجب أن تقلق الكنائس المسيحية في القارة الأوروبية.

لكن هذا ليس الخط الذي أريد اتباعه هنا. بل إن سؤالي هو: لماذا تعد منتجات مثل سلسلة «المتروكون» «أهلية محلية» لشريحة واسعة من الناس في الولايات المتحدة؟ وهل هي نامية طبيعية من التقاليد الدينية التي فاق أثرها المركّز في تكوين الولايات المتحدة أثرها في تكوين مجموعة البلدان التي أتى منها معظم مواطنيها؟ ومثلما أفعل في فصول الكتاب كافة، أذكر قرائي بأنني أصف كيف يفهم الطرف الأوروبي من الأطلسي هذه الأمور.

«المتروكون» : ملاحظات حول تاريخ السيناريوهات الرؤيوية

ليس ثمة حاجة لأن أروي بالتفصيل محتوى هذه السلسلة الاثني عشرية. فهي تزعم أنها رواية سردية تبين ما قاله الكتاب المقدس، خصوصا سفر

الرؤيا، عن الأيام الأخيرة للعالم التي تبلغ أوجها في العودة الثانية للمسيح. ووفقا لهذه القراءة للكتاب المقدس، سوف يبدأ الزمن الحاسم بصعود المؤمنين الأبرار الصادقين إلى غيوم السماء (الاختطاف أو الصعود)، لإنقاذهم من محن وبلايا السنوات السبع (الضيقة). خلال هذه السنوات سيظهر المسيح الدجال ويتمكن من توحيد جميع سكان الأرض في دين واحد وتحت حكم واحد. ثم يقود جيوش العالم الجرارة في الحرب على جيش المقاومة الصغير والسري المكون من المسيحيين (إضافة إلى 144 ألف يهودي بالضبط). في نهاية المطاف ستلحق الهزيمة بالدجال، ويعتقل، ويرمى في حفرة من قبل القوى السماوية بقيادة المسيح، الذي سيقيم عهد السلام الممتد ألف عام (قبل أن يسمح للشيطان بمحاولة أخرى ضده).

من الصعب تيقن هل يوافق العدد الضخم من قراء السلسلة على كل تفصيل جاء فيها. وأتصور أن العديد منهم من شريحة المستهلكين الذين يتلقفون بالشغف نفسه قصص الخيال العلمي الأخرى. ولربما نرى هنا نوعا جديدا من «القص الديني». فتركيز الكتب على سيناريوهات القيامة الرؤيوية ونهاية الزمان لا يشترك فيه المسيحيون الإنجيليون كلهم. وفي الحقيقة، تعرضت سلسلة الكتب للانتقاد من الإنجيليين أنفسهم[3]. ومع ذلك، يظل من اللافت أن ينجذب ملايين الأمريكيين إلى هذا النوع من الأدب - حتى وإن كان مجرد «تسلية فانتازية» للعديد منهم.

لاحظت أن هذه السلسلة ليست أول محاولة لكتابة قصة آخر أيام البشر، ولن تكون الأخيرة. على سبيل المثال، بدأت «تيندال هاوس»، دار النشر التي جنت هذا المال كله من روايات «المتروكون»، بنشر سلسلة «العد التنازلي للصعود» (على شاكلة السلسلة الأولى وأفلام حرب النجوم).

أما كتاب ليندسي «كوكب الأرض العظيم السالف» (1970) فكان رائدا أثر في الأعمال اللاحقة فيما يتعلق بمفهومه عن «الصعود». لكن حتى قبل ليندسي ظهرت محاولات عديدة للإجابة عن الأسئلة الملحة المتعلقة بنهاية التاريخ واتصالها بالهدف النهائي للحياة على الأرض.

في الحقيقة، تعود أصول هذه الأسئلة إلى العهد التوراتي وشغلت اللاهوتيين والفنانين منذ ذلك الحين. وليس من المبالغة القول إن سفر الرؤيا مارس تأثيرا أكثر انتشارا وإشكالية في العالم المسيحي من الأسفار الأخرى. يكفي الإشارة إلى صور «مدينة الله» أو «المدينة المقدسة» أو «عناقيد الغضب» لتقدير تأثيره الواسع النطاق في الروحانية المسيحية، فضلا على الفن الديني، على مدى القرون. يورغن مولتمان قدم نظرة شاملة ممتازة للطرائق التي وجد بواسطتها التفكير بـ«الأيام الأخيرة» ـ الجانب الأخروي من الإيمان المسيحي ـ التعبير عن نفسه في العقود المبكرة من المسيحية، والقرون الوسطى، وفي العصور الحديثة أيضا[4]. وهو يبين أن هناك تشديدا كبيرا على «الأخروية المسيحانية» في حقبة ما بعد عصر الإصلاح. ويشير إلى المصادر الإنكليزية والهولندية والإيطالية والألمانية ليظهر أن الجماعات المسيحية تزداد افتتانا بفكرة أن مملكة الله هي حقيقة تتكشف في الزمن الحقيقي. والذين اعتنقوا هذه المعتقدات الإيمانية المثيرة والمحفزة هم غالبا الذين تركوا أوروبا وهاجروا إلى العالم الجديد، لأن هذا العالم المنتظر بدا أنه يملك جميع آيات وعلامات المملكة[5].

لكنهم لم يكونوا كلهم كذلك. فهنالك جماعات كبيرة العدد من الناس الذين بقوا ودرسوا النصوص الرؤيوية عن القيامة في ضوء عصرهم وتجاربهم المحددة. هنالك مثالان يوضحان ذلك. خلال الحروب

النابليونية، التي سببت دمارا كبيرا وفوضى عارمة في بلدان وسط أوروبا، توصلت بعض المجتمعات المحلية الريفية القريبة من بلدة جامعة توبينغن إلى نتيجة مفادها أنها تعيش حتما في نهاية الزمان، وأن نابليون بما حققه من نجاحات ساحقة لا يمكن تعليلها، هو المسيح الدجال بالتأكيد. وكانوا على قناعة تامة بأن المسيح سيظهر مرة أخرى في أرض قيصر روسيا المسيحية لأنه قاتل الكفار الفرنسيين بمثل هذه الشجاعة. وفي نهاية المطاف، اعتقدوا أن المسيح سيعود حتما إلى جبل ارارات لأن سفينة نوح رست عليه.

وحين أخذ زعماء المجتمعات المحلية الريفية الصغيرة جميع هذه الأمور بعين الاعتبار، استنتجوا أن من الآيات الدالة على الطاعة والتقوى انتظار العودة الثانية للمسيح على سفح جبل ارارات في أرمينيا. ولهذا، غادر عدة آلاف من الرجال والنساء والأطفال قراهم في المانيا وتوجهوا في رحلة طويلة إلى الجبل - وهم ينشدون التراتيل المعبرة عن تشوقهم إلى المسيح. لكن بعد بضعة أيام بدأت المشكلات تعترض «الحجيج» ، ومات معظمهم في الطريق. ولم تصل إلى الهدف سوى جماعة صغيرة منهم؛ ولولا أن بعثة بال التبشيرية وفرت لهم بعض مستلزمات البقاء والاستقرار لماتوا جميعا. بعض قرى هؤلاء الحجاج ظلت قائمة حتى بعد الحرب العالمية الثانية، ليقوم ستالين بنفيهم إلى كازاخستان النائية. فضاع أثرهم واختفى هناك[6].

المثال الآخر يجسده اللاهوتي الشهير يوهان البريخت بنغل (1687 - 1752)، الذي كان شخصية واسعة النفوذ خلال عصر اليقظة التقوية الألمانية. فقد قادته دراساته لسفر الرؤيا إلى توقع نهاية العالم في الثامن

عشر من حزيران/ يونيو 1836. و«في اليوم التالي»، حين لم يحدث شيء، أصاب المجتمعات المحلية التقوية هياج كبير واضطراب فظيع. لكن كان لذلك تأثير مهدئ دفع الزعماء المسيحيين إلى إدراك حقيقة أن من الأفضل منطقيا وعقلانيا ترك فكرة ظهور مملكة الله جانبا، فالإيمان الحقيقي بالخالق يمنع المؤمن من حساب التواريخ والمواعيد، وأن نهاية الزمان قد تحدث/ أو لا تحدث ضمن إطار نظام التقويم الخطي. ونظرا لأن الله هو رب الزمن، فهو قادر على إحداث تحول عميق في سيرورته(7).

ما كان يحدث في المانيا هو تغير خفي من الحسابات الألفية إلى الاعتقاد الروحي أو الإيمان الجواني بالألفية (حكم المسيح على الأرض الذي يدوم ألف عام)، تغير رأى ظهور مملكة الله من خلال التحسين المتدرج والإصلاح البطيء لحال البشر وشؤونهم الدنيوية. وعبرت عن هذا التحول كتابات يوهان اموس كومينيوس، آخر أساقفة «كنيسة مورافيا» (1592 ـ 1670) التي تعرض أتباعها للاضطهاد، وأصبحت مكونا من مكونات الفكر الإنسانوي والتنويري. يمكن رؤية آثار اهتمامات كومينيوس في أعمال الكاتب والفيلسوف الشهير غوتهولد افرايم ليسينغ (1729 ـ 1781). فقد كان كلاهما على قناعة بأن ظهور مملكة الله لن يقترب إلا عبر العمل على تحقيق إصلاحات تعليمية وتربوية. وحسب تعبير يورغن مولتمان: «مملكة الله آتية، لكنها لن تكون نتيجة ثورة رؤيوية يحدثها الله؛ بل عبر نمو العقل والمنطق والأخلاق بين البشر»(8). الانشغال بسيناريوهات نهاية الزمان في المانيا غاب بوصفه ظاهرة شعبية منتشرة، وإن بقي محصورا في بعض الأوساط الصغيرة والمحدودة(9).

لم تكن الحال كذلك في البلدان الأخرى. فقد استمر فيها «البحث النبوئي». وظل اللاهوتيون والإنجيليون يبحثون عن طرق لقراءة آيات

وعلامات الزمن. فبرأيهم أخطأ يوهان بينغل في قراءة الحقائق ـ فضلا عن أن المجتمعات المحلية التي يرثى لها قرب توبينغن، قد خلطت الأمور كلها[10]. ومن اللاهوتيين الذين زعموا أنهم وجدوا المفتاح الصحيح لتاريخ الخلاص جون نيلسون داربي، الأرستقراطي الأيرلندي الذي ولد عام 1800. أصبح داربي راعي كنيسة إنكلترا، لكنه انشق عنها وأسس كنيسة بليموث. أما السبب الرئيس الذي جعله يدير ظهره للكنيسة الانكليكانية فهو تساهلها مع أشخاص لم يهتدوا. وسوف تضم «الأخوية» مجتمعا من الرجال والنساء الملتزمين نقاء الدين والعقيدة والحياة. وبالطبع، استفزت هذه الصرامة في الطهر والنقاء العديد من الانشقاقات، لكن «الداربية» استمرت. وأغلبية أتباعها يعيشون الآن في الولايات المتحدة، مع بعض المجتمعات المحلية الصغيرة في المانيا[11].

لكن التأثير الرئيس الذي مارسه داربي في الأجيال الآتية تمثل في فكرته عن الآخرة ـ أي «عقيدته المتعلقة بآخر الأشياء». إذ ارتكزت على الافتراض بأن كل كلمة من كلمات الكتاب المقدس هي وحي من الله، ومن ثم فإن إرادته وغرضه متضمنان حتما في الكتاب. وفيما يتعلق بتاريخ عمل الله الإنقاذي لخلاص البشر، يجب أن تكون الفقرات النبوئية والرؤيوية في الكتاب المقدس «خريطة طريق» ربانية تؤدي إلى مملكته. وقراءة داربي للكتاب المقدس دفعته إلى الاعتقاد بأن تاريخ العالم مر عبر سبع مراحل قدرها الله، وأن نهاية السابعة ـ ومن ثم بداية «الضيقة» ومحن وبلايا نهاية الزمان الرؤيوية ـ قد بدأت[12].

من الواضح أن داربي لم يكن الوحيد الذي اقترح مثل هذه الأفكار. فالقس الإنجيلي الشهير دي. ال. مودي شاركه إلحاحه على بلوغ نهاية

الزمان، مثلما فعل سي. اي. سكوفيلد، الذي خضع كتابه «إنجيل سكوفيلد المرجعي» (1909) لدراسة مستفيضة وحظي بقبول واسع من القراء الكثر. وبالمناسبة، فإن من المثير ملاحظة ظهور ثلاث طوائف في أمريكا، بالتزامن مع انتشار الدرابية في العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر، تحمل رسائل رؤيوية واضحة: المؤمنون بقرب عودة المسيح، والمورمون، وشهود يهوه.

من المشكلات المركزية التي واجهت هذه المحاولات كلها لقراءة علامات الساعة ونهاية الزمان وجعلها تتوافق مع النص المقدس ما يلي: وفقا لقراءة رسالة القديس بولس إلى الرومان (خصوصا الرومان 11: 25 وما بعدها)، سوف يرجع اليهود إلى أرضهم الموعودة قبل عودة المسيح المجيدة. ولذلك، حين أقيمت دولة إسرائيل عام 1948، عد الكثير من المتنبئين بنهاية الزمان تأسيسها دليلا تاريخيا لا يدحض على قرب قيام الساعة.

يعطي العمل مع «الأدلة والبينات التاريخية» هذا النوع من التفكير التأملي التخميني فيما يتعلق بتفسير الكتاب المقدس مظهرا «علميا». لكن هذا الإصرار على البينات والبيانات يكشف فعلا عن مقاربة حديثة حاسمة: التعامل مع النصوص التوراتية المقدسة بالطريقة ذاتها التي يستخدم فيها العلماء الطبيعيون البيانات الفيزيائية أو الكيميائية. ففي المجالين كليهما تحلل المواد للتوصل إلى نتائج علمية واضحة. أجد من المهم تسليط الضوء على هذه المقاربة الحديثة في أعمال مثل «المتروكون» من أجل تحدي مزاعم كتابها بأن حكاياتهم ليست سوى سرد واضح وبسيط لرسالة الكتاب المقدس. فهي مجرد تفسير حرفي/نصي ومتزمت يرتبط بالمادية التاريخية والتفاؤلية العلموية السابقة على اينشتين، أكثر من ارتباطه بالروحانيات المتنوعة في النصوص المقدسة[13].

في الجوهر، نحن نواجه مشكلة تأويلية ملحة. كيف يجب تفسير نصوص الكتاب المقدس؟ المشكلة لا تقتصر على الأمريكيين فقط. بل هي هم عالمي، يشغل جميع الكنائس: كيف نقرأ الكتاب المقدس؟ ماذا يمثل المسيح بالنسبة لنا اليوم؟ من المؤسف أنه لا يوجد سوى قلة من اللاهوتيين الأكاديميين المستعدين لقبول هذا التحدي. أما الخبراء العاملون في المجالات ذات الصلة فلا يرغبون في الانشغال بظاهرة مثل سلسلة «المتروكون». فبرأيهم انتهى هذا الجدل منذ أمد بعيد، بسبب ظهور النقد التاريخي والمناهج ذات الصلة لتفسير النصوص المقدسة[14]. وفي حين قد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم، إلا أنه لم يصل إلى نهايته بالنسبة للملايين من عامة الناس في شتى أرجاء العالم.

لماذا ننشغل بهذه المسألة؟ أليس من الأفضل ترك هذه الموجة من الحديث عن نهاية الزمان وعلامات الساعة تأخذ مجراها وتستنفد زخمها إلى أن تخنقها أحلامها المجهضة؟ ردي على ذلك هو: إنها ظاهرة بالغة الخطر ويجب عدم السماح لها بالخروج عن نطاق السيطرة، للأسباب الثلاثة التالية.

السيناريوهات الرؤيوية تشترك فيها جميع الأديان

نحن نواجه حقيقة واقعية موجودة في جميع الأديان. والمفزع أننا لا نتعامل مع الرؤيوية المسيحية وحدها. فهناك نسخ إسلامية تتبنى الفكرة ذاتها، وهي تستعير أفكارها بكل حرية من المعلقين المسيحيين، وإن بطريقة تفسيرية مناقضة كليا. ومثلما أشار ديفيد كوك، هنالك تراث إسلامي عن علامات الساعة ونهاية الزمان يعود إلى المصادر التوراتية؛ أدى إلى

ظهور سيناريوهات مؤثرة عن نهاية الزمان تنتشر انتشارا واسعا في العالم الإسلامي[15]. فالمسيح الدجال في الإسلام هو الأعور الدجال، الذي سيظهر في نهاية الزمان لغواية المسلمين وإبعادهم بضلاله عن الإيمان الحق. وفي الحقيقة، يتحمل الأعور الدجال أيضا مسؤولية ما يعانيه العصر الحديث من حرمان وسيئات وأعمال منكرة. على سبيل المثال، يسيطر الدجال على صناعة السينما في هوليود! بل إن الإسلام أعطى المسيح - بوصفه هنا منقذ المسلمين - دور إلحاق الهزيمة النكراء مرة أخرى بالدجال وتمهيد الطريق لعودة المهدي المنتظر، الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما. ومن اللافت أن المهدي المنتظر سوف يحكم من القدس، وهذا يقتضي ضمنا أن الكعبة ستنتقل من مكة إلى القدس.

وفقا لأبحاث ودراسات كوك، فإن الكاتب المصري سعيد أيوب كان رائد المنادين المعاصرين بفكر نهاية الزمان الرؤيوي الإسلامي. فكتابه «المسيح الدجال» (1987)[16] ألهم كتابا آخرين قدموا سيناريوهات مشابهة. وعلى الرغم من التنويعات، فإن العامل المشترك بينها هو أن الأعور الدجال يهودي، وأساليبه للسيطرة تآمرية. واستطاع هذا الدجال تدبر أمر الهيمنة على الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي.. ولذلك، فإن محاولات إسرائيل للسيطرة على القدس وجبل المعبد تثير شكوكا عميقة: إنها رغبة الدجال في احتلال مكان المهدي المنتظر. من السهل نسبيا وصف هذا النوع من الأدب الرؤيوي بأنه خليط من الأفكار الإسلامية التقليدية، ونظريات المؤامرة الحديثة، ومشاعر معاداة السامية* القوية.

* هذه ليست نظريات مبنية على المؤامرة وأنها ضد السامية بل هي مبنية على أسس دينية إسلامية صحيحة موثقة من السنة وليست روايات كما هي الحال في الغرب الذي مست أيدي المحرفين الكتب المقدسة وأحدثت فيها ما ليس منها.

ولذلك، ليس من المفاجئ رؤية الكتب والمنشورات الإسلامية المتعلقة بنهاية الزمان تنتشر في مصر وبين الشعب الفلسطيني. ومن المنطقي الافتراض أيضا أن هذه الكتابات أسهمت في الانتفاضات الفلسطينية؛ ويرجح أنها أثرت في العمليات الانتحارية.

يقودني ذلك كله إلى السبب الثاني الذي يجعل السيناريوهات الرؤيوية عن القيامة تستحق اهتمامنا الجدي: قابليتها للاستغلال السياسي-أي: لاهوتها السياسي الذي يجب مواجهته.

اللاهوت السياسي للسيناريوهات الرؤيوية

لدينا سيناريوهات رؤيوية عن القيامة في المسيحية والإسلام تنطلق من الجذور ذاتها لكنها تصل إلى مواقف متناقضة تماما. وهي تضم رسائل سياسية فاقمت الصراع بين إسرائيل والشعب الفلسطيني، وبين إسرائيل والشعوب العربية والإسلامية عموما.

الوضع محفوف بخطر أكبر لأننا بحاجة أيضا إلى أن نأخذ بالاعتبار وجود حركة رؤيوية قوية ولافتة داخل الديانة اليهودية. وصف غيرشوم غورينبرغ بالتفصيل كيف تركزت تطلعات ومطامح هذه الحركة اليهودية على بناء المعبد الثالث على جبل المعبد، الذي عدته شرطا رؤيويا حاسما لظهور المسيح*. يظهر غورينبرغ أيضا كيف تعاونت الجماعات اليهودية مع الطوائف المسيحية الرؤيوية في سبيل الاستعداد لنهاية الزمان. ومن نافل

* هذه الأقوال ما هي إلا إدعاءات وأكاذيب يتخذها الصهاينة مبررات لتنفيذ مخططاتهم بهدم وتدمير أماكن العبادة الإسلامية كالأقصى وغيره في فلسطين المغتصبة ويجعلون الدين ذريعة لتحقيق تلك المخططات والدين منهم براء.

القول إن بناء المعبد الثالث سيتطلب تدمير قبة الصخرة والمسجد الأقصى الشهير ـ وهو سيناريو يثير حفيظة وغضب العالم الإسلامي برمته[18].

الخير مقابل الشر ـ نظرة ثنوية إلى العالم

في البداية حسبت أن من المسلي أن يجد توم لاهاي وجيري جنكينز المسيح الدجال المتخيل في أوروبا ـ في رومانيا على وجه التحديد ـ حيث أطلقا عليه اسم نيكولاي كارباثيا. وبالنسبة لأولئك الذين يعرفون شيئا عن التاريخ القريب، يبدو واضحا أن المسيح الدجال هذا يشبه نيكولاي شاوشيسكو، ديكتاتور رومانيا الذي أوصل الشيوعية إلى حدودها الدموية القصوى. يستدعي «كارباثيا» إلى الذاكرة الصور المروعة في أفلام الرعب مثل دراكيولا وفرانكشتاين. أما الرسالة السياسية فواضحة لا لبس فيها: الشيوعية أرض خصبة للقوى التي تنتج التحالف الرهيب بقيادة المسيح الدجال. فضلا على ذلك، فإن «أوروبا القديمة» برسائلها العلمانية، هي التي توفر السياق المناسب الذي يمكن فيه للمسيح الدجال البدء بمشروعه. ولذلك ليس من المفاجئ أن يعد مؤلفا «المتروكون» الجماعة الأوروبية قاعدة يرسخ عليها الدجال سلطته.

سيجد آخرون من الغريب أن يكون الدجال يهوديا يحكم العالم من بيته في فلوريدا![19] لكن من التهور الهزء بهذه التخيلات الفانتازية. فالرسالة السياسية الضمنية تعبر عن الشك وعدم الثقة. كيف سيتفق الإسرائيليون والفلسطينيون على القضايا التي تقسمهم إذا نظروا إلى جميع الاقتراحات السياسية العملية في ضوء المكائد الرؤيوية المشؤومة؟ مضمون «المتروكون» واضح تماما: انظر إلى القوى الأوروبية بعين الشك والريبة. فلربما تزعم أنها إلى جانب الحق، لكنها، عن قصد أو دون قصد، تؤدي عمل المسيح الدجال.

يتعمق هذا الشك حين «يكشف» مؤلفا «المتروكون» أن نيكولاي كارباثيا كان أمينا عاما للأمم المتحدة قبل أن تفتضح هويته الحقيقية بوصفه حاكم «المجتمع العالمي» والعدو اللدود للمسيح. وهذا لا يحول الجماعة الأوروبية إلى منصة للسياسة الملحدة فقط بل يجعل الأمم المتحدة منبرا للملاحدة أيضا. ومن ثم فإن الأتباع الصادقين للمسيح يجب أن يحذروا من مثل هذه المنظمات على أقل تقدير: فإذا لم تدمر، فمن الأفضل السيطرة عليها بطريقة تصبح فيها عاجزة في الواقع العملي.

حالما نعرف من هم أعداء المسيح، لن يكون من الصعب علينا اكتشاف مكان أتباعه وأنصاره. في العالم السردي لتيم لاهاي وجيري جنكينز، يقع المركز الروحي والاستراتيجين «المسيحيين المؤمنين بعودة المسيح» في «مبنى سترونغ» في شيكاغو. ومعظمهم يأتون من «الولايات الأمريكية المتحدة الشمالية»، وتحت قيادة ريفورد ماثيوز، الطيار السابق الذي اهتدى إلى الدين، يشكل محاربو نهاية الزمان «قوة المحنة». ويتلقون العون والمساندة من بعض اليهود الذين آمنوا في نهاية المطاف بالمسيح.

من الواضح لمؤلفي «المتروكون» أن معظم حواريي المسيح القادم الصادقين هم من الأمريكيين. فهم أبطال المسيحانية، وهم إلى جانب الحق وعلى جادة الصواب، في حين اختار الأوروبيون المساكين والضالين السبيل الخطأ ولا بد أن يتعرضوا للفناء، ولا يمكن فعل الكثير من أجلهم لأن ما يحدث كله جزء من مخطط نهائي صممه رب التاريخ.

أعمل على استقصاء هذه الآراء الرؤيوية المسيحية بشيء من التفصيل لأنها تهمني كمسيحي بطريقة مباشرة أكثر من السيناريوهات الإسلامية.

لكن ذلك لا يقلل من تأثير الرؤيوية / القيامية الإسلامية. فما تشترك فيه الديانتان هو الثنوية الصارمة، أي تقسيم العالم إلى فسطاطين متعارضين للخير والشر. والتوصل إلى علاقات وطيدة ومستدامة، وتقاسم القيم والثروات فيما بينها.

فيما يتعلق بالمراقبين المسيحيين، تذكر هذه الثنوية أو الانشقاق بهرطقة الديانة المانوية القديمة، التي استندت إلى تعاليم ماني الفارسي الذي عاش في القرن الثالث الميلادي (216 ـ 276). ودون الغوص في التفاصيل، يكفي القول إن ماني علم أتباعه ثنوية راديكالية. فبرأيه، تحكم العالم قوتان متناقضتان، إله النور وإله الظلام، والتاريخ مليء بمحاولات إله الظلام فتح العالم واحتلاله. في البشر عناصر من الإلهين كليهما؛ أما الدعوة النهائية للمانوية إلى الناس فهي تنقية نفوسهم وتطهيرها من الذنوب، أو التحرر من قيود وسلاسل الظلمة، عبر العيش حياة متقشفة إلى أقصى حد ممكن. والمختارون وحدهم يمكن أن يأملوا بالوصول إلى النور. زعمت ديانة ماني أنها الوحي الكاشف النهائي ومن ثم فهي توليفة تجمع الأديان السابقة كلها. انتشرت المانوية في مناطق واسعة ـ من مصر حتى الصين ـ وكانت منافسا عنيدا وضاريا للمجتمعات والطوائف المسيحية في أجزاء واسعة من الشرق الأوسط.

أدانت الكنيسة المسيحية (خصوصا القديس أوغسطين الذي اعتنق المانوية سابقا) هذا المفهوم الديني بوصفه هرطقة، لأنه يناقض بصورة رئيسة العقيدة المسيحية القائمة على الخير والطيبة والنفع. فبرأي الكنيسة في العصور المبكرة، الله هو الخالق الوحيد والصانع الوحيد والحاكم الوحيد للتاريخ. وفي حين أن الكنيسة لم تنكر وجود الشيطان، إلا

أنها تيقنت دوما أن «قوة الظلام» هذه تخضع في نهاية المطاف إلى الخطط والقوى الإلهية. ومع ذلك، بقيت المانوية إغراءا مستمرا، لا بوصفها مؤسسة منافسة فقط بل بالمعنى الذي بدا فيه أن رسالتها تؤكد التجربة اليومية للناس في كل مكان، أي أنهم ينخرطون في معركة لا نهاية لها بين الخير والشر. وهي تظل مغرية وجذابة حتى اليوم لأنها تقلص تعقيدات الحياة إلى بديل أبسط قائم على إما / أو.

هذا الاختزال لتعقيدات الحياة هو الذي يجعل هذه السيناريوهات الرؤيوية جذابة ومغوية. فبغض النظر عن تفاصيلها العديدة الغريبة، تعرض نظرة مبسطة ومسطحة للعالم تقترح حلولا سياسية مباشرة يستحيل تحقيقها عمليا. لذلك، يجب عدم تجاهلها بوصفها حميدة لا تسبب أي ضرر. فهي تسهم في «مناخ روحي» يمكن الناس من تبسيط فهمهم للعالم. وتتيح لهم العثور في عداوة «الشيطان» أو «الشر» على بؤرة تركيز مرغوبة لمعاناتهم وإحباطاتهم. ومن ثم تزودهم بهدف يصبون عليه جام غضبهم. وإذا تبنى عدد كاف من الناس هذه الآراء، وعملوا بنشاط وفاعلية على ترويجها في المجالين العام والسياسي، فإن مثل هذا المناخ سيكتسب تأثيرا تكوينيا لا يجرؤ السياسيون على تجاهله.

على الرغم من كل شيء، تعد هذه السيناريوهات مغرية في بساطتها. فما إن تقبل المقدمة المنطقية التي تقول إن العالم وصل إلى مرحلة النهاية، يصبح من المهم فعلا أن تكون مع الفرقة الناجية في المعركة الختامية. وتعرف أن من المتعذر إنقاذ جميع الكائنات الأخرى، ومنها النباتات والحيوانات، من الفناء النهائي. ومثلما قال بات روبرتسون: «لن نبكي كما يبكي سكان العالم حين تحدث بعض المآسي أو تنهار حكومات

وأنظمة العالم.. فهذا ليس أمرا فظيعا على الإطلاق. بل أمر جيد. رمز دلالي على خلاصنا..»[21].

«هذا التقسيم القائم على «نحن إزاء هم» و«الخير مقابل الشر» ليس مروعا حين يطبق على العلاقات الشخصية فقط؛ بل يصبح مهددا بصورة سافرة حين يهيمن على عملية صنع القرار السياسي. لأنه يضحي بالبحث عن الحلول المستدامة لصالح الحكم القاطع الجازم: «من ليس في صفي فهو عدوي».

آخر الزمان زمان الحرب

ما إن يحظى التقسيم القائم على الخير مقابل الشر بالقبول في عالم السياسة، حتى يتقلص الحيز المتاح للحل السلمي للصراعات. بل على العكس، ترى النظرة التقسيمية للعالم المؤسسات التي تزعم العمل في سبيل السلام العالمي بعين الشك والريبة لأنها جزء من الحرب الأيديولوجية التي يشنها المسيح الدجال لتشويش أذهان البشر فيما يتعلق بالطبيعة الحقيقية للمواجهة النهائية. لا يمكن التوصل إلى تسوية بين الخير والشر. وفي الحقيقة، فإن نهاية العالم أمر مطلوب لوضع حد نهائي لقوى الشر. ولذلك فإن كل شيء في تاريخ العالم يتجه نحو مواجهة حاسمة ومصيرية. وتصبح الحرب طريقة ضرورية يتغلب عبرها المؤمنون من جند الله على قوى الظلام. يصف تيم لاهاي وجيري جنكينز بتلذذ إباحي فظائع نسختهما المرعبة عن معركة ارماجيدون: «رجال ونساء، جنود وأبطال، يتفجرون على ما يبدو حيثما يقفون. كأن كلمات الرب جعلت الدم يغلي في عروقهم، ويتفجر خارجا من جلودهم»[22].

البعد السياسي واضح تماما الوضوح. فاعتناق مبدأ العنف بصورة كاملة له مضامين واسعة فيما يتعلق بالطرق التي يتبعها العالم في التصدي للصراعات السياسية. ومن المؤكد أن السلام القائم على العدل لا يعد مكونا مركزيا في سياسة نهاية الزمان، ولا أمل يرتجى في مصالحة الخصوم والمتعارضين وحل الصراعات. بل على العكس، يتركز تشديد سياسة نهاية الزمان على المواجهة الشاملة. لا يمكن لنزع السلاح أن يمثل هدفا. بل إن أولئك الذين يعتنقون مبدأ المجابهة سيحتاجون من أجل استباق جميع التهديدات المحتملة إلى تطوير مزيد من الأسلحة الذكية المدمرة - ومنها الأسلحة النووية. فأي ذريعة أفضل يمكن أن يأمل بها المجمع العسكري - الصناعي؟! *

عبء التهديد والخوف والحزن الذي نحمله نحن الأوروبيون تجسده الأوقات العديدة التي عشنا فيها تاريخ الأعداء المكروهين وتدميرهم. المجازر التي ارتكبت في الحروب الأوروبية فظيعة ومروعة، لكنها غدت من ذكريات الماضي إلى حد ما. فقد تمتعنا بترف نسبي تمثل في تدمير جيوشنا ومدننا قبل عصر أسلحة الدمار الشامل. فما الذي سيحدث حين تتصل العقول الرؤيوية، اللامبالية بنهاية كل شيء، بالأصابع التي تطلق زناد الأسلحة النووية؟

موت الخليقة

اعتناق مبدأ العنف لا يؤدي إلى صور الدمار الشامل للبشر فقط؛ بل يضحي عن طيب خاطر بالعالم كله، بأحيائه النباتية والحيوانية. ففي

* الشبكة التي تضم المؤسسة العسكرية وجميع الصناعات الداعمة لها في الولايات المتحدة. (م)

المعركة النهائية برأي المؤمنين بحرفية ما جاء في سفر الرؤيا، سوف تفنى الخليقة برمتها. مرة أخرى نقول إن المضامين السياسية واسعة النطاق بعيدة المدى. فالاهتمام بالبيئة لا يغدو عبثيا فقط (ما الذي بمقدور البشر أن يفعلوه إزاء إرادة الله؟)؛ بل هو في التحليل الأخير علامة على الكفر والعصيان ومعارضة إرادة الله. فمن المحتم أن تنقرض الأنواع الحيوانية والنباتية. وعلى نحو مشابه، ستحدث زلازل وفيضانات غير مسبوقة في حجمها. وستحدث بعض الكوارث التي تصاحب «الضيقة» وتميز الأيام الأخيرة من حياة البشر.

يشير بيل مويرز، الذي نال جائزة مواطن البيئة العالمية من جامعة هارفارد لعام 2004، إلى هذه الأفكار حين يستشهد بغلين تيرر من مجلة «غريست» (التي تصدر على الإنترنت)، الذي استحضر المواقف الرؤيوية على النحو الآتي:

> لماذا نهتم بالأرض حين يكون الجفاف والقحط والفيضانات والمجاعات والأوبئة الناجمة عن الانهيار البيئي من أشراط وعلامات الساعة كما أنبأ عنها الكتاب المقدس؟ لماذا نهتم بتغير المناخ العالمي حين ستجد أنت وأحباؤك الخلاص في «الصعود»؟

من المفارقة أن هذه السيناريوهات الرؤيوية لا تطرح أي أسئلة عن مسؤولية ومحاسبة النظام العالمي الرأسمالي، الذي تشكل الولايات المتحدة قوته المحركة الرئيسة. ويبدو أن من غير المهم لكتاب هذه السيناريوهات أن سكان أمريكا يمثلون 5% من سكان العالم في حين يستهلكون بطريقة مبذرة ومتلافة

ربع إنتاجه من النفط والغاز الطبيعي، وذلك كمثال واحد على استخدام الموارد المهمة[25]. لماذا؟ حين نأخذ منطق المؤمنين بالسيناريوهات الرؤيوية الجبرية على محمل الجد، نجد أن كل شيء بقضاء الله وقدره. ونظرا لأنه القدير الوهاب، فهو يزودنا بكل ما نحتاج إليه ـ وأكثر. وإذا وهبك حصة كبيرة من ثروات هذا العالم، يجب أن تأخذها كقضية مسلم بها ورمز يدل على البركة الإلهية.

وبالاقتباس من بيل مويرز مرة أخرى:

علمت.. أن أصدقاء الإدارة في شبكة السياسة الدولية، التي تدعمها شركة اكسون موبيل وغيرها، أصدروا تقريرا جديدا يؤكد أن تغيير المناخ «خرافة، ومستويات مياه البحار لا ترتفع» والعلماء الذين يعتقدون باحتمال وقوع كارثة «يسببون التشوش والإرباك»[26].

أكتب هذه الكلمات بعد ثلاثة أيام من اجتياح إعصار كاترينا الساحل الجنوبي للمسيسيبي والاباما ولويزيانا، ودمار العديد من البلدات وغرق مدينة نيواورليانز. وأتساءل ما هي ردة فعل قراء «المتروكون» في منطقة «حزام الإنجيل» القريبة على هذه الكارثة. هل تزعزع خيالهم الرؤيوي عن «الضيقة» في الأيام الأخيرة، أم تعزز قناعاتهم بأن النهاية وشيكة فعلا؟

القدس: عاصمة نهاية الزمان

مثلما لاحظنا آنفا، تحتل مدينة القدس مكانا مركزيا في السيناريوهات الرؤيوية التي وضعها الكتاب المسيحيون والمسلمون واليهود المختصون بنهاية

الزمان. ولهذا تأثير مباشر في خيارات الزعماء السياسيين لأطراف الصراع كافة. ويبدو لي أنه لا يوجد مكان آخر يتمظهر فيه «اللاهوت السياسي» لسيناريوهات آخر الزمان بمثل هذا الوضوح وهذا الأسلوب المهدد. إذ يتوقع المؤمنون اليهود أن يكشف المسيح عن نفسه في أورشليم، وهم على قناعة بأنه سيدخل المدينة القديمة المسورة عبر فتح الباب الشرقي المغلق دائما. أما الكتاب المسلمون الذين يتناولون مسألة أشراط وعلامات الساعة فيؤكدون أن المهدي المنتظر سيحكم العالم من القدس الشريف. وفيما يتعلق بالكتاب المسيحيين من أمثال تيم لاهاي وسواه، يجب أن تكون جيروزاليم في أيدي الشعب اليهودي كاملة قبل أن يتمكن المسيح من العودة. ويجب بناء المعبد الثالث على جبل المعبد، وهذا يقتضي ضمنا إزالة المسجد الأقصى وقبة الصخرة - إما بالتدخل الإلهي المباشر أو بسلاح دنيوي غامض. لا حاجة بنا إلى الإشارة التفصيلية إلى الجماعات المسيحية المحافظة في الولايات المتحدة وهولندا وغيرهما التي تدعم بكل نشاط اليهود الذين يريدون العودة إلى الأرض المقدسة، وتؤيد المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتطالب بالبدء في بناء المعبد الثالث..الخ(27).

قال بات روبرتسون: «حزام الإنجيل هو شبكة أمان لإسرائيل في الولايات المتحدة»، وأعد ذلك نوعا من التهكم الواضح، ربما عن غير قصد. إذ يعترف هو وغيره من الكتاب المتخصصين بموضوع آخر الزمان بأن تجمع اليهود في أرضهم الموعودة ليس سوى شرط مسبق للعودة الثانية للمسيح. ويعتمدون على 144 ألف يهودي يقبلون المسيح بوصفه منقذهم المخلص؛ أما البقية فتنتمي إلى الجماهير المدانة المحكوم عليها بالهلاك. وحين يأتي المسيح الحقيقي، سوف تتحول أرض إسرائيل إلى ميدان للمعركة النهائية، حيث تحتشد وتلتقي جميع جيوش الأرض. هذا هو إذن «الحل

النهائي»: سوف تختفي دولة إسرائيل. وهذا يقتضي ضمنا فناء جميع اليهود الذين لم يقبلوا بالمسيح. فأي «شبكة أمان» هذه؟ أعتقد أن هذا الخيال القائم على الإبادة الجماعية يفضح شهوة عارمة وشنيعة للعنف، وتكمن في بؤرة هذا الإيمان عدمية إلحادية على الصعيد العملي. جيزكيل لانداو، المربي والداعية للسلام الذي يحمل جنسية مزدوجة (إسرائيلية وأمريكية) يعلق على الموضوع بأسلوب مناسب وفي محله:

> نظرا لوجود عائلتي وأصدقائي في / وحول القدس، أرتجف حين أفكر بما سيحدث لأحبائي ولجميع سكان الأرض المقدسة إذا تحقق برنامج نهاية الزمان الذي وضعه المسيحيون المؤمنون بالازدواجية الثنوية. من المحزن أن الخطر يضاعفه تحالف غير مقدس أقاموه مع اليهود الرؤيويين الذين يتركز حلمهم شبه المسيحاني على معبد يهودي ثالث يحل محل قبة الصخرة والمسجد الأقصى. إن حلم نهاية الزمان الذي يهيمن على هؤلاء اليهود والمسيحيين المتزمتين هو في الواقع كابوس للآخرين كلهم، لأنه يستدعي حربا يهودية / مسيحية شاملة مع العالم الإسلامي[(28)].

بوصفي مواطنا المانيا، أتأثر تأثرا بالغا بذلك كله: فأثقل عبء وجب علينا نحن الألمان حمله هو المحرقة، استئصال اليهود الأوروبيين تقريبا على أيدي «جلادي» هتلر*. لذلك، أشعر بالتزام عميق بأمن وأمان دولة

* عزيزي القارئ هذه دعاوي كاذبة استطاع الصهاينة إخضاع العالم بالاقتناع والتصديق بها من كثرة الزن الإعلامي. فدعوى إبادت اليهود من قبل النازية أصبحت الآن حقيقية وتباد شعوب في أوطانها على أيدي اليهود ولا يقال لها هذه نازية علماً بأن النازية طالت آخرين وأكثر من اليهود ذهبوا ضحايا لها ومع هذا لم تُقَمْ النياحة عليها.

إسرائيل. وهذا يتضمن أنني أريد أن تصبح دولة إسرائيل جزءا دائما وباقيا من الشرق الأوسط،، دولة يمكن فيها لليهود من مختلف الخلفيات والمشارب العيش معا دون خوف من تهديدات المذابح والإبادة الجماعية. وهذا يقتضي أيضا أن تعمل حكومات إسرائيل على بناء علاقات عادلة ومستدامة مع جيرانها، خصوصا الفلسطينيين، الذين يملكون حقوقا مبررة في الأراضي ذاتها وفي مدينة القدس.

لذلك فإن أسوأ ما يمكن أن يتصوره المسيحيون لإسرائيل هو مفاقمة علاقاتها الإشكالية مع جيرانها عبر تحويل الأرض المقدسة إلى ساحة معركة رؤيوية. أعتقد أن من مصلحة إسرائيل أيضا أن تدعم البلدان الأوروبية والولايات المتحدة البلدان العربية المجاورة في العمل على إيجاد أوضاع ديمقراطية مستدامة تسودها العدالة والمساواة، وتساعد على إقامة الدولة الفلسطينية ضمن حدود واضحة ومعترف بها. أما مستقبل إسرائيل فلا يمكن ضمانه في حالة من الحرب المستمرة مع الشعوب المجاورة وإذلالها وإهانتها. من المرجح أن تكون تجارب العجز هذه قد أسهمت في التنامي السريع للأفكار الرؤيوية الإسلامية. ومن ثم، نحن بحاجة إلى أن نفعل كل شيء ممكن لإعادة بناء إحساس بالكرامة لدى الشعوب العربية، وتحييد غضبها المدمر للذات، وإيجاد حيز لتوطيد علاقات عادلة ونزيهة معها.

لا حاجة إلى التفكير مرتين

هنالك عنصر آخر يدخل اللعبة حين نفكر بتأثير سيناريوهات آخر الزمان الرؤيوية. فنظرا لأن الله، تعالى ذكره عما يصفون، أمر بأن يجري تاريخ العالم في مسار المجابهة كما تزعم، فإن الطاعة تفرض على المؤمنين

القانتين التفكير بأنفسهم بوصفهم أدوات للخطة الربانية. فالله هو الفاعل والمدبر، وهو المسؤول؛ أما مسؤولية المؤمنين فتكمن في عبوديتهم وخضوعهم لإرادته. وهذا بدوره يريح نفوسهم ويحررها من المسؤولية المباشرة على التعامل مع مختلف مشكلات الحياة الدنيا. وحالما يقبلون الإطار الرباني المزعوم للتاريخ القائم على مبدأ إما/ أو، يمكنهم رؤية تعقيدات الوجود على المستوى الشخصي وتحديات العمل المهني إما كتوكيد للإيمان أو اختبار وامتحان له. وفي الحالتين كلتيهما ليس من الضروري الاهتمام كثيرا بالتحديات الفكرية أو المشكلات الأخلاقية، لأن من واجب العبد الطاعة لا الشك في الطرائق الربانية. ومن الواضح أن التحرر من عبء المسؤولية يوفر للنفس راحة هائلة، خصوصا للذين أرهقتهم تعقيدات الحياة اليومية الحديثة، وأضناهم غموضها وأعياهم التباسها. راحة من البحث عن تسويات معقدة لقضايا معقدة. إذ يمكن تقليص التحديات العلمية والأخلاقية، لأنه تعالى جعلها واضحة كالشمس. وما يطلبه من عباده هو الطاعة، المجردة والصرفة والبسيطة.

يغري هذا المنظور على نحو خاص الذين يحتلون مناصب قيادية؛ فإذا كانت الطاعة أمرا حاسما، فلا داعي لأن يقلقهم الذنب الذي هو جزء لا يتجزأ من مناصبهم العليا. أنا هنا لا أشير إلى الأخطاء: فهي جزء من ورطتنا وطبيعتنا البشرية ويمكن تفسيرها وتصحيحها، رغم أنها قد تفرض في بعض الأحيان كلفة كبيرة. بل أشير إلى الشعور بالذنب كعاقبة حتمية لعملية صنع القرار الواعية. فكل قرار لأحد الخيارات يعني ضمنا قرارات تستثني الأخرى؛ وكل اختيار لأحد الأشخاص يعني رفض الآخرين المؤهلين والأكفاء أيضا. ولذلك فإن من السذاجة الافتراض أن القابعين في السلطة يمكنهم المناورة لتفادي الشعور بالذنب. الذنب ظل السلطة

الملازم لها. فإذا استطاع هؤلاء نقل سلطتهم ـ وتبعاتها وعواقبها ـ إلى رب التاريخ، لن يكونوا مضطرين لمواجهة العبء الموجع للذنب. والارتياح الهائل الذي يوفره الإيمان الرؤيوي القائم على إما / أو يتمثل في أن الفرد، حين يكون عبدا مطيعا وقانتا، لن يكون مخطئا في نهاية المطاف، بغض النظر عما يقوله الآخرون.

الشرك الرؤيوي

حاولت فيما سبق إثارة السؤال المتعلق بالانشغال بسيناريوهات نهاية الزمان: هل هو «محلي وأهلي» مقتصر على الثقافة الدينية الأمريكية أم لا. ومثلما بينت إشاراتي إلى الكتابات الرؤيوية الإسلامية، يتضح أن من الخطأ القول إن ازدهار صناعة «نهاية العالم» شأن أمريكي محض. لكن يمكننا القول إن السيناريوهات الرؤيوية تزداد وتتكاثر بوفرة حيث تسود التقاليد المسيحانية ـ والاعتقاد بألفية المسيح على وجه الخصوص. لا أرغب في المبالغة في توكيد أوجه الشبه الرؤيوية الإسلامية والمسيحية. لكن من الممكن ملاحظة أن السيناريوهات الرؤيوية في النسختين كلتيهما مؤسسة على تقاليد أخروية محددة. فكلما تأطرت التوقعات الأخروية ضمن سيناريوهات نهاية الزمان الإطلاقية، تنتهي في شرك: سيناريوهات نهاية الزمان تصطدم بحائط مسدود لأنها تدعي تجسيد العاقبة النهائية والوحيدة للقراءة الألفية للتاريخ. وبهذا المعنى تعد صورا كاريكاتورية للآمال المسيحانية الأصلية*.

* هذا التعبير غير مناسب الأولى أن يقال وبهذا المعنى تؤكد النظرة الإسلامية ما ورد في الديانة المسيحية الصحيحة التي لم تطلها يد التحريف المزيفة فالدين الإسلامي لا يخالف الديانات السابقة التي أتى بها الأنبياء والرسل من الله سبحانه وتعالى.

في حالة الإسلام، يتعذر إنكار حقيقة أنها تمتلك مكونات أخروية قوية طالما تعد نفسها التمظهر النهائي لإرادة الله، كما كشفها النبي ﷺ، ومن ثم تدعو إلى توفير «النظام الصحيح والحق» للعالمين. يبدو أن هذا المنهج قد تأكد بصورة مجيدة عبر الانتشار السريع للإسلام خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين. لقد ترسخ الإسلام كقوة عالمية «عظمى»، امتد سلطانها من الهند شرقا إلى إسبانيا غربا. ولا يمكن لأحد إنكار حقيقة أن الإمبراطورية الإسلامية كانت أكثر الممالك حداثة وتسامحا في القرون الوسطى. واستفادت منها المجتمعات المسيحية في أوروبا أكثر مما ترغب في الاعتراف به اليوم. لذلك، هنالك العديد من الإيجابيات التي يمكن أن نعزوها إلى الخلافة الإسلامية في عهودها المبكرة، ومن المفهوم أن المسلمين اليوم يشعرون بالفخر والاعتزاز بهذا الجزء من ماضيهم التليد.

فحسب تعبير فاميك فولكان، يمكننا القول إن الإمبراطورية الإسلامية في عهودها المبكرة أصبحت «النصر المختار» للشعب العربي. يجعل هذا النوع من التأويل من المسلمين وضع اللوم حصريا على الغزوات التدميرية «الصليبيين» والقوى الغربية وتحميلها مسؤولية الانحطاط البطيء للإمبراطوريات الإسلامية ـ والعجز الذي يعانونه حاليا. وبالمقارنة مع عظمة الخلافة الإسلامية في العهود المبكرة، يشعرون أن انحطاطهم وعجزهم يمثلان إذلالا مهينا ورهيبا.![29].

ويمكننا الافتراض بكل ثقة أن كل طرف ينزع إلى المبالغة في تقدير قوة العدو. لكن ذلك لن يجعل الوضع أقل خطرا. فوفقا للسمات الموجزة آنفا، يقود اللاهوت الرؤيوي للمؤمنين والمتأثرين بفكرة «المتروكون» الدينَ المسيحي إلى حالة مغلقة المنافذ ومسدودة الأفق. ويحول تفسيره الخاص للكتاب المقدس إلى حقيقة مطلقة ونهائية، ومن ثم لا يترك مساحة لأي

حوار حول التنوع الداخلي الحاشد في الكتاب المقدس وبؤر الاهتمامات المتنوعة في الدين المسيحي. ويضع التاريخ على مسار تصادمي يتجه نحو الفناء النهائي الذي لا يسمح بأي بدائل تظهر على السطح. فضلا على ذلك، يحول المؤمنين إلى أدوات مسيرة للإرادة الإلهية الجبرية القاهرة ومن ثم يحررها من المسؤولية الشخصية. بكلمات أخرى، يعد هذا اللاهوت دينا يفتقد الرحمة والتراحم والتعاطف حتى مع أتباعه، دينا دون مسؤولية شخصية (باستثناء الذنوب والخطايا «الشخصية» الجنسية في معظمها). وعند التفكير به، يبدو دينا متخما باليأس والإنكار. وهذا يفسر صور العنف والإبادة الجماعية والغضب الساحق المدمر في سلسلة «المتروكون».

ألاعيب نهاية الزمان في عالم نهاية الزمان

قيل إن الحادي عشر من سبتمبر كان نقطة تحول في التاريخ. لكن هناك أيضا «متخصصين في نهاية الزمان» يزعمون أن عام 1948 (تأسيس إسرائيل) يمثل نقطة حاسمة في التاريخ. لكن من الدقة القول إن تاريخ العالم أخذ انعطافة غير مسبوقة في الثامن من آب/ أغسطس عام 1945. فمع إسقاط أول قنبلتين ذريتين على المدينتين اليابانيتين، دخل العالم مرحلة أصبح فيها الدمار الشامل للحياة على هذا الكوكب أمرا محتملا في أي وقت. قرار استخدام القنبلتين الذريتين أتى بعد الحرب العالمية الثانية، التي كانت لحظة تاريخية ملآنة بالفظائع والمذابح التي لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل. فقد قتل وشرد الملايين، وسويت مدن بكاملها بالأرض. وإنهاء هذه المذبحة، بأي وسيلة، كان شيئا تشوق العالم إليه. ومعاقبة الأمم التي بدأتها، بأي وسيلة أيضا، ربما بدت للكثيرين نوعا من العدالة المروعة.

ولدت من رحم هذا السيل الدافق من الكره والغضب نهاية زمان حقيقية، ويجب على البشر الآن التكيف معها. ومثلما قال يورغن مولتمان:

> غيرت هيروشيما عام 1945 نوعية التاريخ البشري تغييرا جوهريا: أصبح زمننا زمنا محدد الزمن.. هذا الزمان، حيث يمكن للبشرية أن تنتهي في أي لحظة، هو في الحقيقة وبالمعنى العلماني المحض ودون أي صور رؤيوية، «نهاية الزمان»؛ إذ لا يتوقع أحد أن تلحق بهذه الحقبة النووية حقبة أخرى يتوقف فيها تهديد البشرية المميت لذاتها(30).

بعد ستين سنة، هنالك ترسانات من الأسلحة النووية تكفي لقتل كل شيء حي على الأرض مرات ومرات. في الحياة اليومية نفعل ما بوسعنا لإنكار هذا الواقع. لكن التوتر الذي تحاول معه القوى النووية منع الدول الأخرى من الانضمام إلى «النادي» - إيران آخر الأمثلة عند كتابة هذه السطور - يشير بدلالته إلى أن الحكومات تعرف حجم تهديد هذا السيناريو المدمر. في حين نحاول العيش حياتنا العادية وكأن هذا الخطر المطلق المدمر لا وجود له. ونلجأ إلى أسلوب الإنكار الجماعي من أجل هذه الحياة «الطبيعية والعادية». كيف نعيش مع الإدراك المستمر لهذا التهديد بالقتل والفناء؟ الإنكار طريقة لتجنب الإحساس بالعبثية واللاجدوى. لا يمكن حتى للناشطين المناضلين من أجل السلام ونزع الأسلحة النووية تفادي حالة الشلل الناجمة عن الإنكار، لأن الحقيقة واضحة لا لبس فيها: حتى إذا نجحوا سوف يستمر واقع نهاية الزمان. فقد اخترعت «القنبلة»، ومعرفة إنتاجها أصبحت متاحة ومتوفرة في شتى أرجاء العالم. وحتى لو دمرت جميع الأسلحة والأجهزة النووية اليوم، ستبقى معادلة بنائها من

جديد قائمة وفي متناول اليد. علينا جميعا أن نعيش مع هذه الحقيقة. ولذلك أصبح الوعي بهذه القوة النهائية للتدمير، وتنظيم شؤون أمم العالم بطريقة تتجنب فيها استخدامها، مسؤولية كبرى ملقاة على عاتق الزعماء السياسيين كلهم. وطوال السنوات الستين الماضية ظلت مؤسساتنا السياسية تتذكر هذه المهمة المرعبة، وإن ظهرت حالات اقترب فيها العالم من حافة اندلاع حرب نووية. ومنذ ذلك الحين، ظلت هذه اليقظة بحاجة إلى التعزيز والرعاية والاستدامة لدى جميع الأجيال الآتية.

في عام 1945 كانت الجحيم الذرية هي التي يجب أن يحسب حسابها فقط. لكن خلال العقود اللاحقة ازدادت الكوارث البيئية التي سببها البشر إلى درجة أن أجزاء كبيرة من الأرض غدت مناطق غير مأهولة إلى الأبد[31]. إذ أظهر الإعصاران كاترينا وريتا أن المناطق الساحلية المنخفضة لا يمكن السكن فيها بالطريقة العشوائية القديمة. وليس من الضروري أن يكون المرء متنبئا كي يعرف أن أساليبنا المعتادة في العيش سوف تتعرض لضغوط متزايدة. فإذا أرادت شعوب العالم الاستمرار في البقاء في ظل ظروف مقبولة، فإنها بحاجة إلى القبول بواقع نهاية الزمان الذي نعيشه. واقع أوجده البشر أنفسهم ويجب أن يحسبوا حسابه.

ما هي العلاقة بين حالة نهاية الزمان الواقعية هذه والنمو الهائل لسيناريوهات نهاية الزمان الدينية، خصوصا في الولايات المتحدة؟ الإجابة المعقولة والمنطقية هي أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة، حتى الآن، التي استخدمت القنابل الذرية. فضلا على ذلك، تزايد إنتاج الأسلحة النووية المتقدمة إلى درجة أن عنفها التدميري يفوق الخيال. فما الذي يمكن فعله إزاء هذا الواقع المروع والشعور المشوش بالذنب، واليأس، والقنوط الذي يولده؟ يبدو أن كل شيء خرج عن زمام السيطرة.

نصل هنا إلى مأزق نفسي، يبدو أن سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية تقدم له إجابة «إنقاذية». فنظرا لأنها تخبرنا بأن العالم متخم بالقوى الشريرة، يصبح لوجود الأسلحة النووية معنى منطقيا. ولأن تاريخ العالم يتجه نحو حرب نهائية شاملة، تعد القوى التدميرية للأسلحة النووية أمرا حتميا - بل مرغوبا. وهكذا فإن من المنطقي الافتراض أن الأسلحة النووية هي جزء من «ضيقة» آخر الأيام. هذا «الإيمان» ينقل عبء المسؤولية عن أسلحة الدمار الشامل هذه إلى المستوى الميتافيزيقي الماورائي. ففي النهاية، ليس التهديد النووي سوى جزء من الخطة الإلهية المحكمة.

هذه آلية نفسية تحول اليأس إلى «إيمان». إضافة إلى أنها توفر منفذا للشعور المكبوت بالذنب والعجز: الندم الخفي والقلق المخبأ يتحولان إلى «غضبة حق» تبرر صور الإبادة الجماعية لحروب وفظائع نهاية الزمان. أما العنف الإباحي الذي يتمظهر في الصور التخييلية لـ «الظهور المجيد» (الكتاب الثاني عشر من سلسلة «المتروكون»)، فيجسد مثالا نموذجيا على قدرة مشاعر العجز اليائسة على التحول إلى صور للقدرة المقدسة المطلقة بكل ما يميزها من قتل وفتك: الطريقة الوحيدة «إنقاذ» العالم هي تدميره!

أعتقد أن ذلك كله يمثل تفسيرا محتملا للنجاح الساحق الذي حققته قصص نهاية الزمان الدينية، مثل «المتروكون». ويمكننا أيضا من إدراك حجم اليأس العميق، وليس الإيمان البهيج، الذي يكمن في صميم دين نهاية الزمان. لكن إن صدق ذلك، فهو يثير أسئلة تتعلق بفساد المسيحانية نفسها.

هوامش

1- كان جيم واليس أحد اللاهوتيين البارزين الذي عمل على مغالبة هذا الصمت في كتابه:

God's Politics: Why the Right Gets It Wrong and the Left Doesn't Get It (san Francisco: HarperSanFrancisco,2005).

كلية اللاهوت بجامعة ييل ناقشت بعضا من هذه المشكلات، انظر:

"End of Times and End of Games: Is Scripture Being Left Behind?", Reflections, Spring 2005.

2- الشيء ذاته يصدق على كتاب هال ليندسي «الكوكب الأرضي العظيم السالف» الذي نشر أول مرة عام 1970 وظهرت منه عدة طبعات لاحقة (مع تعديلات لافتة). ومع أنه أصاب نجاحا ساحقا في أمريكا، حيث باع في نهاية المطاف أكثر من عشرين مليون نسخة، إلا أن الطبعة الألمانية لم تظهر إلا بعد كتاب «**Alter Planet Erd Wobin?**» عام 1991 ولم تحقق نجاحا يذكر.

3- للاطلاع على تحليل مفصل لتجربة القراء مع «المتروكون»، انظر:

Amy Johnson Frykholm, Rapture Culture: Left Behind in Evangelical America (New York: Oxford University Press, 2004).

وللاطلاع على مصفوفة من الاعتراضات النقدية من المسيحيين، انظر:

Bruce D. Forbes and Jeanne Halgren Kilde, eds., Rapture, Revelation, and the End Times: Exploding the Left Behind Series (New York: Palgrave Macmillan, 2004).

4- انظر:

Jurgen Moltman, Coming of God, pp. 129 - 255.

5- المثال جسده يوهان راب (1757-1847) الذي انتظر عودة المسيح سنة 1828 في هارموني (بولاية بنسلفانيا). انظر:

EberhardFritz,RadikalerPietismisinWurttemberg(Epfendorf, Germany: Bibliotheca Academica Verlag, 2003), pp. 201 - 56 .

6- انظر:

George Leibbrandt, Die Auswanderung nach Russland, 1816 - 1823 (Stuttgart: Ausland und Heimat Verlag, 1928.

7- Moltman, Coming of God, pp. 145, 199 - 200.

8- Moltman, p. 189.

9- Moltman, pp. 156 - 59, 187 - 188.

10- استقصى ثلاثة من المتخصصين الأمريكيين في علم النفس الاجتماعي، هم فيستينغر وريكين وشاكتر، ظاهرة مشابهة في كتابهم «حين تخفق النبوءة» (1957)، الذي يدرس وضع جماعة في أمريكا تؤمن بنهاية الزمان وواجهت فشلا في تنبؤاتها.

11- أبرز ممثل للداربية في المانيا هو كارل بروخهوس، الذي قابل داربي عام 1854. في الحقيقة، انضم العديد من أتباع داربي إلى الكنائس المعمدانية. وهنالك اليوم زهاء خمسة وثلاثين ألفا من الداربيين في المانيا. للاطلاع على مزيد من التفاصيل، انظر:

O. Eggenberger, «Darbysten», Religion in Geschichte und Gegenwart, 3rd ed., vol. 2 (Tubingen: Mohr, 1986), pp. 40ff.

12- انظر:

Craig C. Hill, In God's Time: The Bible and the Future (Grand Rapids: Eerdmans, 2002), pp. 200 - 201.

13- تقول اديلة كولينز: «مقاربة أنصار التدبير الإلهي لشؤون الكون نوع من الاستيلاء الأصولي المحافظ إلى حد ما على التنوير. إذ تبنى هؤلاء قيم

الفكر العقلاني والمنهجي من عصر التنوير. وحاولوا قراءة الكتاب المقدس باعتباره وحدة واحدة بطريقة جديدة على درجة كبيرة من العقلانية». انظر: Reflections, p. 12.

14- للاطلاع على مثال لافت، انظر:

John Polkinghorne and Michael Welker, eds., The End of the World and the Ends of God: Science and Technology on Eschatology (Harrisburg, PA: Trinity Press International, 2000).

15- انظر:

David Cook, «Muslim Fears of the Year 2000,» The Middle East Quarterly (June 1998): 5162-;

ظهرت نسخة من هذه المقالة على موقع منتدى الشرق الأوسط:

http://www.meforum.org/article/397 (accessed Oct. 20, 2005).

انظر أيضا الدراسة المطولة في كتاب كوك:

Contemporary Muslim Approach Apocalyptic Literature (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2005).

16- القاهرة: دار الفتح للإعلام العربي (1987).

17- الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد اشتهر بهجومه المتكرر على إسرائيل. ويبدو أنه متأثر تأثرا عميقا بالسيناريوهات الرؤيوية في المذهب الشيعي، التي تنتظر عودة آخر الأئمة الشرعيين، أبو القاسم محمد، الذي سيكشف عن نفسه بوصفه المهدي، مسيح آخر الزمان الذي سيؤسس حكم العدل على الأرض بعد أن ملئت جورا. ولذلك يمثل اختفاء إسرائيل عن الخريطة «ضرورة» لنهاية الزمان. انظر:

Rudolf Chimelli, «Der Mann, der aus der Tiife Kam,» Suddeutsche Zeitung (Dec. 19, 2005), p. 3.

18- انظر:

Gershom Gorenberg, The End of Days: Fundamentalism and the Struggle for the Temple Mount (Oxford and New York: Oxford University Press, 2002).

19- هذا هو رأي محمد عيسى داود في كتابه:

Warning: the False Prophet is Invading the World from the Bermuda Triangle (1992), quoted in David Cook, «Muslim Fears,» p. 3 (the title of Da'ud's book is translated by Cook).

20-انظر:

Cook, ContemporaryMuslim Apocalyptic, pp. 130 - 163 - 66.

21- ورد الشاهد في:

Tyler W. Stevenson, «Revelation's Warning to Evangelicals: Left Behind May be Hazardous to Health» (Reflections, pp. 35f.).

22- انظر:

Tim LaHaye and Jerry Jenkins, Glorious Appearing, vol. 12 of Left Behind (Wheaton, IL.: Tyndale, 2004), Quoted by Paul Boyer, «Give Me That End-Time Religion: The Politicization of Prophetic Belief in Contemporary America» (Reflections, p. 26).

23- سعيد أيوب: «عقيدة المسيح الدجال في الأديان» (بيروت: دار الهادي، 1991)، ص195. (ترجمة عن الإنكليزية)، انظر:

Cook, «Muslim Fears,» p. 3.

24-انظر:

Bill Moyers, «There is no Tomorrow,» Minneapolis Star Tribune, Jan. 30, 2005.

Glenn Scherer, "The Godly Must Be Crazy," Grist (online), Oct. 27, 2004:

http://www.grist.org/news/maindish/200417/10//scherer-

christian/index.html (accessed Dec. 10, 2005).

25-انظر جداول «رانك اوردر» البيانية لاستهلاك النفط، واستهلاك الغاز الطبيعي، والسكان، على موقع وكالة المخابرات المركزية (كتاب الحقائق) على الإنترنت:

http://www.cia.gov/cia/publications/factbook(accessed Dec.5, 2005).

26- Bill Moyers, «There is no tomorrow.»

27- للاطلاع على وصف تفصيلي للبحث عن العجلة الحمراء المطلوبة للتضحية في المعبد الثالث، انظر:

Gorenberg, The End of Days, pp. 7 - 29

28- انظر مراجعة جيزكيل لانداو لكتاب باربرا روسينغ:

The Rapture Exposed: The Message of Hope in the Book of Revelation (Boulder, CO: Westview Press, 2004), in Conversation in Religion and Theology (Hartford Seminary) 3, no. 1 (May 2000), 5460-.

29- انظر:

Cook, Contemporary Muslim: Apocalyptic, p. 92.

-30

Moltman, Coming of God, pp. 2056-.

31- انظر:

Climate Change Report 2001: Synthesis Report, Summary for Policy Makers, An Assessment of the Intergovernmental Panel on Climate Change, Approved in detail at IPCC Plenary XVIII (Wembley, United Kingdom, Sept. 24 - 29, 2001).

ـ 3 ـ

الرابح يأخذ الكثير

قبل وقت طويل من قدومي إلى أمريكا، أتت أمريكا إلي. كنت في الخامسة حين رأيت أول الأمريكيين. كانوا من الجنود الذين اندفعوا بسيارتهم إلى مزرعة والدي في ربيع عام 1945. لم يبقوا فيها مدة طويلة. ولم أعرف ما الذي كانوا يبحثون عنه. وقفنا أنا وأخي الأصغر هناك نحدق إليهم وهم يرتدون لباسهم الميداني المؤثر. لقد جاء الأمريكيون إلينا كمحررين، كانوا منتصرين بامتياز. بعض الناس من جيل والدي نظروا إليهم بامتعاض واستياء. لكن الكثيرين رحبوا بهم أجمل ترحيب وشعروا تجاههم بارتياح كبير. فضلا على ذلك، بدأت طرود ورزم منظمة «كير»* تصل إلى بلدنا الجائع في شباط/ فبراير 1946، وحافظت على بقاء الملايين من الناس اليائسين. أوجدت هذه المعونة الحيوية شعورا عميقا بالشكر والعرفان تجاه الولايات المتحدة، التي لم ينس الألمان فضلها قط. أما أهمية الدور الذي لعبته رزم «كير» في إنقاذ حياة الألمان فيوضحها المثال التالي: نشرت امرأة شابة عرضا للزواج في إحدى الصحف دعمته بـ«شقة من غرفتين

* (CARE) منظمة أمريكية خاصة توزع الأموال والسلع والمعونات على المحتاجين في البلدان الأجنبية. (م).

ورزمتين من «كير» في الشهر». فتلقت طلبات من 2437 رجلا أضناهم البرد وأعياهم الجوع![1]

فيما يتعلق بنا، أطفال وشباب حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان كل ما هو أمريكي أفضل وأكثر جاذبية مما لدينا في الماضي. «أسلوب الحياة الأمريكي» جسد نموذجا لحياة مشرقة يمكن أن نعيشها. كنا الخاسرين، وألمانيا أطلال وخرائب مدمرة. لذلك تركزت جميع خيالاتنا عن الحياة اللائقة على قصص الأمريكي العصامي الذي أصبح مضرب المثل: كيف بدأ حياته في غسل الأطباق، وأصبح مالكا ثريا لمصانع ومصارف وسفن.

في المدرسة الثانوية تعرفنا الكتابَ الأمريكيين، قصص هيمنغواي القصيرة، و«انظر إلى الوطن يا ملاك» لتوماس وولف، ومسرحيات يوجين اونيل وتينيسي ويليامز. تلذذ مدرسونا، والعديد منهم خبروا أيديولوجية التحصين الذاتي من أيام هتلر، في اكتشاف أدب وعمارة وفنون محررينا (أما موسيقاهم فاكتشفناها بأنفسنا!). أثر هذا الافتتان دون شك في قراري بالسفر إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستي. في السنوات المبكرة من الستينيات، بدا من الواضح أن عليك الذهاب إلى هناك إن أردت النجاح في الحياة.

أقول ذلك دون سخرية: أسلوب الحياة الأمريكي كان النموذج الوحيد الذي اجتذب الألمان من أبناء جيلي. كان أسطورتنا الهادية إذا جاز التعبير، لأنه والف بين العظمة والسخاء، والقوة والكفاءة - مع الكثير من المرح والمتعة والبهجة. أما تقاليده الديمقراطية ودفاعه عن السلام والحرية فتفوق في جاذبيته تفوقا ساحقا في نظرنا على الواقع الكئيب

للبلدان الاشتراكية المجاورة التي هيمن عليها الاتحاد السوفييتي. وحين جاء الرئيس كنيدي إلى برلين عام 1962، استقبلته حشود جماهيرية ضخمة استقبالا حماسيا. قال الرئيس بالألمانية «أنا برليني» وردا الجمهور مرحبا «نحن جميعا أمريكيون!».

من المؤكد أن هناك الكثير من السذاجة والسطحية في هذه الصورة المتخيلة عن أمريكا. فجاذبيتها تكونت غالبا وتعززت عموما بأفلام هوليود السينمائية، التي جلبت إلينا قصص البطل الأمريكي النمطي، الذي ينتصر دوما على أي عدو يقف في طريقه - والعديد من الأعداء كانوا بالطبع من النازيين الأشرار. كان المنتصر المثالي، الذي لا يكترث لإعجاب الذين أنقذهم، في حين تلفت وسامته الساحرة التي لا تقاوم انتباه أجمل النساء.

قيل في بعض الأحيان إن المانيا أكثر بلد متأمرك في أوروبا. أما تفسيري فهو أن المانيا خرجت من الحرب العالمية الثانية أمة مهزومة كليا، لا ماديا فقط بل روحيا وأخلاقيا ومعنويا أيضا. ونظرا لأنه لم يتبق شيء في تاريخنا يستحق أن نعتمد عليه لإعادة بناء هويتنا، تطلعنا إلى المنتصرين علينا بحثا عن بديل له معنى هادف. تطلب الأمر منا بضعة عقود من السنين لاسترجاع المنجزات العظيمة في تاريخ المانيا، كميراث الشعراء والمؤلفين الموسيقيين واللاهوتيين والفلاسفة والفنانين والعلماء الألمان البارزين -وفي الوقت ذاته تذكر فظائع الرايخ الثالث. كان وما يزال من الصعب علينا أن نحب وطننا بعمق كاف لنتذكر أنه أنتج غوته وغوبلز*،

* جوزيف بول غوبلز (1897 - 1945): مدير الدعاية الألمانية في الحقبة النازية. (م)

** معسكر اعتقال نازي شهير في وسط المانيا. (م)

وفايمار وبوكينوالد**. وفي الحقيقة، فإن هذا الكفاح للاحتفاظ في أذهاننا بالجوانب الشريرة والملامح المشرقة من تاريخنا بصورة متزامنة سوف يستمر - ويجب أن يستمر. إن الوعي الهادئ بالهوية يمكن أن يؤدي إلى الاعتراف بأن جميع البشر والأمم بحاجة إلى العمل في سبيل إنتاج وعي متكامل بالسمات الإيجابية والصفات السلبية: الهوية الوطنية الناضجة هي التي تضع الجوانب «الرابحة» و«الخاسرة» في مقدم الصورة.

متلازمة الرابح - الخاسر

حدث وعشت خارج ألمانيا سنوات عديدة. وربما أكثر من الآخرين الذين بقوا أقرب إلى وطنهم، أجبرت على الإجابة عن أسئلة مقلقة فيما يتعلق بمعنى أن أكون ألمانيا. وهذا ساعدني على التوصل إلى شعور بالهوية كمواطن ألماني، هوية شملت الميراث المعقد الذي يجمع الذنب والمجد، والعار والفخر. كانت هذه العملية مؤلمة، لكنها قادتني إلى العمل على إجراء تقويم نقدي لظاهرة ثقافية اتصلت بطرق عديدة مع ما سمي بأسلوب الحياة الأمريكي أدعوها «متلازمة الرابح - الخاسر». و«الرابح يأخذ كل شيء» أكثر من مجرد عنوان لأغنية أو قاعدة لإجراءات انتخابية(2). في أسلوب الحياة الأمريكي طريقة غامضة ومراوغة لتصنيف البشر وتقسيم المجتمع.

ما أفكر فيه يمكن أن توضحه قصة رواها لي صديق قبل مدة. فقد كان أحد أبنائه عضوا في فريق المدرسة الثانوية لكرة القدم في البلدة التي يعيش فيها مع أسرته، ومع أن الفريق مثل مدرسة صغيرة، إلا أنه وصل إلى بطولة مدارس الولاية. لكنه خسر مباراة البطولة؛ أما الفريق الآخر فقد أصبح

الرقم واحد. وحتى في هذه الحالة، مثلما يعرف أي شخص بالغ راشد، استطاع الفريق رغم جميع الصعوبات أن يحتل مرتبة ثاني أفضل فريق في الولاية. لكن الأمر على ما يبدو لم يعجب المدرب. وحين عاد اللاعبون إلى غرفة تبديل الثياب، صاح غاضبا: «أيها الخاسرون! أيها الفاشلون الملاعين!». وكرر على مسامعهم مرارا الحكم القاسي الفظ.

قضيتي هنا ليست تحليل السلوك الفظ وغير الناضج لمدرب يحط من شأن الإنجاز الذي حققه فريقه. بل إن اهتمامي ينصب على نوع الحكم الأنطولوجي المطلق الذي يمثله هذا السلوك. أرجو ألا يسيء أحد فهمي. أنا معجب بالامتياز. وبرأيي، لا عيب فيمن يحاول بذل قصارى جهده، ويجب على المدارس الثانوية والجامعات تشجيع طلابها على العمل من أجل تحقيق أفضل النتائج الممكنة، في مساعيهم المعرفية/ الأكاديمية أو الرياضية. فتحقيق إنجاز ذي معنى هادف أمر جوهري للوجود الإنساني على هذه الأرض. ويجب ألا يحرم أي طفل من تجربة اكتشاف مواهبه واستخدامها على أفضل وجه. لكن لأنني أرغب بالضبط في رؤية أكبر عدد ممكن من الناس يستخدمون كامل ما لديهم من طاقات أنتقد متلازمة الرابح ـ الخاسر. فهي تحوي في الجوهر خطأ فلسفيا يتمثل في تحويل حدث عارض (خسارة مباراة، الفوز بصفقة..الخ) إلى حالة أنثروبولوجية دائمة. الخطأ هو اعتبار الأشياء التي تحدث عرضا للبشر جزءا من كينونتهم ـ بل مشكّلة لكينونتهم.

لكن الأمر لا يقتصر على مجرد خطأ فلسفي. إن تصنيف الناس إلى رابح أو خاسر يتضمن حكما له تبعات اجتماعية وسياسية بعيدة المدى. وحين نتذكر ذلك، دعونا نلقي نظرة على ما تفعله متلازمة الرابح ـ الخاسر

بـ«الخاسرين». من المعروف أن عدم تقدير ما ينجزه الأطفال يحرمهم من إمكاناتهم. لكن التجربة المألوفة أيضا تشير إلى أن الآباء والمدرسين والأتراب كثيرا ما يصنفون الأطفال في فئة الخاسرين إذا لم يرتقوا إلى مستوى توقعاتهم. هذا الحكم يترافق مع فقدان الحب، والإعجاب، والمتعة. وينتشر في البيوت والمدارس في شتى أنحاء العالم: نحن نرى أطفالا يبذلون قصارى جهدهم، لكن دون تحقيق أي نجاح يذكر، في حين يكون غيرهم أكثر ذكاء أو سرعة أو جمالا. وعندما يلازم الطفل شعور دائم بأن غيره ينال درجات أعلى، وينتمي إلى أسرة أغنى، ويلبس ثيابا أغلى، ويعيش حياة أكثر سعادة، يهيمن عليه إحساس بعدم الأمان. والحكم عليه بأنه «خاسر» يصيبه بالعجز.

يأتي إلى جانب ذلك الشعور بالخزي والعار، وهو واقع مروع في حياة الخاسرين. الشعور بالعار يدمر الشخصية من الداخل: ويجبرها على العيش تحت وطأة تحقير الذات. وهذا لا ينطبق على الأطفال والشباب فقط؛ بل على البالغين في حياتهم الزوجية أو المهنية أيضا. من السذاجة القول إن على الخاسرين «التجرد من خرافات» الطبيعة الخاطئة لمتلازمة الرابح ـ الخاسر وتحرير أنفسهم منها. بل على العكس تماما. فما إن يحكم على أحدهم بأنه «خاسر»، حتى يصبح من الصعب جدا مغالبته بطرق بناءة. لأن ذلك يتطلب نوعا من السيادة على الذات لا يستطيع معظم «الخاسرين» اكتسابها. وفي الحقيقة، تتجسد المأساة في أن النماذج التي يقيمون أنفسهم وفقا لها وضعها من يتمتعون بالقوة والثراء والجمال والنجاح ـ الذين يقررون الصور الذهنية التي يجب أن يكون عليها الإنسان «الحقيقي».

كيف يفترض أن يمضي المرء في مسيرة حياته حين تواجهه باستمرار إشارات تقول له «أنت فاشل!» و«نكرة!» و«خاسر لعين!»؟ إن العيش مع ازدراء النفس وتحقير الذات والإحساس الغامر بالمرارة والحسد ليس هو الأسلوب الصحيح والصحي. وقلة قليلة من هؤلاء سيجدون ما يكفي من القدرة على مواجهة شعورهم بالهزيمة الساحقة الماحقة. ولحسن الحظ هنالك علاج جماعي لمثل هذه الحالات، يمكن هؤلاء من تقاسم تجاربهم المدمرة مع آخرين يجابهون محنا وبلايا مماثلة. وهو يوفر مساحة مشتركة حيث يمكن للطاقات الإيجابية أن تتولد من المشاعر السلبية. لكن قلة قليلة من الناس يستطيعون العثور على هذا المخرج. فمن المرجح أن يعتقدوا أن العلاج الجماعي مخصص للمدمنين فقط، ولذلك يسعى معظم «الخاسرين» إلى العثور على حالات يدون فيها من «الرابحين». ومن طرق إشباع هذه الحاجة الملحة اللجوء إلى العنف: حيث يتسلط «الخاسرون» على الأشخاص القريبين منهم، لأن من الممكن دوما العثور على الضعفاء - مثل النساء والأطفال. ويمكن مشاهدة ما يسمى بالعنف الأفقي الناتج في حالات التعدي بالضرب على الزوجات والأطفال[3].

ثمة طريقة شائعة للخروج من المأزق تتمثل في التعويض عن تحقير الذات عبر الانضمام إلى جمعية سرية أو عصابة إجرامية، ومن ثم المشاركة في الذات المتضخمة للجماعة، حيث توفر الصحبة والرفاقية وهم الانتماء إلى ذات «رابحة» أكبر حجما. أما الهجمات العنيفة التي تشنها مثل هذه الجماعات فتوفر إشباعا فوريا، اعتمادا على وهمها البطولي الخداع. يحتاج هذا الانطباع الموهم بالنجاح والربح إلى إعادة بناء، ومن ثم يفسر الباعث الملح الذي يدفع مثل هذه الجماعات إلى تكرار سلوكها

العنيف. العواقب واضحة والتبعات جلية لكل من يريد أن يرى: شعور الأنا في العصابة يؤكد ذاته بواسطة العنف الذي يستخدم لسحق الجماعات الضعيفة. النمط يتطلب أن يقوم من يضعون أنفسهم في موضع الرابحين بإيجاد خاسرين. وم ن المحتم أن تخلق هذه الآلية دورة من العنف تتجه من الأعلى إلى الأسفل وتبقيها في حالة حركة.

يجب علينا أيضا أن نلقي نظرة سريعة على سؤال وثيق الصلة: ما الذي تفعله متلازمة الرابح-الخاسر للرابحين؟ الأطفال الذين ترعرعوا وهم في القمة سوف يتعلمون الافتراض أن هذه هي الحالة الطبيعية للأشياء. فما إن يواجهوا منافسة حادة، في الجامعة أو مكان العمل مثلا، حتى يقاتلوا بضراوة للبقاء في القمة. فالبقاء ضمن الصفوة الرابحة يعني الاستعداد للتضحية بالنفس وبالآخرين. والتشبث بالقمة يعني ضمنا الوقوف فوق هرم من المنافسين الذين لم يبلغوها. لذلك يشمل توكيد موقف الرابح والتعلق به قدرا كبيرا من العنف الرمزي. وبالمناسبة، حين ندرس قصص «من ولدوا رابحين»، نفاجئ بعدد الحالات التي تقرر فيها الزوجة أو أحد الأبناء إظهار الجانب المظلم من حياة الأبطال. وهذا هو العار أو الإحراج الذي يسببه الخارجون على الأعراف السائدة في عائلات الرابحين والأغنياء والمشهورين.

ضرورة إنكار المسؤولية عن التكاليف والتضحيات جزء من العنف المتضمن في وضعية الرابحين. إذ لا يمكن التفكير بالأسئلة المتعلقة بالظلم أو اللامساواة أو إساءة استعمال السلطة. فالرابحون يأخذون كل شيء، وهم يستحقون ما يأخذونه - وتلك عاقبة أخلاقية مهلكة. الوهم يتمثل في الاعتقاد بأن النجاح من صنعهم وحدهم، كأنهم خلقوا أنفسهم

من العدم. ولذلك لا يتحملون مسؤولية أولئك الذين دفعوهم جانبا، أو الأسلوب الذي توسلوا به، إلا إذا خالف القانون بصورة صارخة. أما أولئك الذين «لم ينجحوا» فليس لديهم من يلومون سوى أنفسهم؛ فالذنب ذنبهم والفشل بسببهم. وجزء من وضعية الرابح يتمثل أيضا في ضمان أن يكون هذا النوع من التفكير مقبولا اجتماعيا. وهذا أمر سهل نسبيا لأن جزءا من قوة الرابحين يكمن في سلطة إيجاد النماذج والصور الذهنية التي ينظر عبرها المجتمع إلى نفسه. ومن هنا، تبدو متلازمة الرابح-الخاسر وكأنها الحالة «الطبيعية» للأشياء.

تفضي هذه التأملات النفسية-الاجتماعية الوجيزة إلى سؤال آخر: ما الذي تفعله متلازمة الرابح-الخاسر بالمجتمع؟ من الواضح أن لها تأثيرا في فهم وإقامة وممارسة العلاقات بين الفرد والخصوم السياسيين أو الجيران أو الجماعات الاثنية. وعلى الرغم من زعم أسها المنطقي بالسعي إلى الامتياز وحسب، ومع أن من المحتم أن يكون بعض الناس أكثر نجاحا من غيرهم، إلا أن متلازمة الرابح-لخاسر تدخل عاملا تقسيميا يفكك عرى الروابط الجوهرية والمتبادلة بين الأفراد التي يعتمد عليها كل مجتمع. فإذا سمحنا للتمايزات بين «الرابحين» و«الخاسرين» باكتساب مكانة شبه أنطولوجية، فإننا نحدث صدعا تقسيميا يمكن أن يدمر الإنسانية التي تربط جميع البشر بغض النظر عن أدائهم ونجاحهم وإخفاقهم.

حين ضرب إعصار كاترينا نيواورليانز، أظهرت التقارير على شاشة التلفزيون بكل وضوح أن فقراءها هم الذين عانوا أكثر من غيرهم. وأفزعت العديد من المشاهدين في الولايات المتحدة وخارجها حقيقة

أن كثيرا من هؤلاء السكان قد تركوا على أسطح المباني أو في ملاجئ مهملة. من بين مجموعة من المعلقين الغاضبين، سوف أستشهد باثنين فقط: بوب هيربرت من نيويورك تايمز، الذي تحدث عن «العجز الخطر واللامبالاة المذهلة تجاه المعاناة الإنسانية من جانب الرئيس وإدارته»(4). أما زميله، الكاتب الصحفي توماس فريدمان، النصير المتحمس لردة فعل الرئيس بوش على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، فقد كتب يقول:

> فضح إعصار كاترينا العديد من الأشياء التي تجاهلها فريق بوش أو شوهها بذريعة محاربة بن لادن: رفضه فرض ضريبة البنزين بعد الحادي عشر من سبتمبر، التي كانت ستنقل اقتصادنا بوقت أسرع إلى إنتاج مزيد من السيارات التي تقتصد في استهلاك الوقود، وتساعد على ادخار المال لأوقات الشدة، ورفضه تطوير شكل من أشكال الرعاية الصحية الوطنية لتشمل أربعين مليون أمريكي محرومين من الضمان(5).

هل تعد ردات الفعل هذه مؤشرا على أن الولايات المتحدة ستمضي في اتجاه ترسيخ ما يعده الأوروبيون جوانب حيوية من دولة الرعاية الاجتماعية؟ هنالك بعض الشكوك حول ذلك. يؤكد جيديديا بيردي، أستاذ القانون في جامعة يورك، أن معظم الأمريكيين ـ 90% تقريبا، ومنهم الأمريكيون الأفارقة ـ يعدون الولايات المتحدة مجتمعا عادلا(6). وقالوا في استطلاعات الرأي إن قواعد وأنظمة الحياة الاجتماعية والاقتصادية عادلة ونزيهة. فالجهد يلقى التكريم، والناس كلهم يحظون

بفرصهم. من اللافت أن زهاء 20% يظنون أنهم ينتمون إلى نسبة 1% من أغنى الأغنياء في المجتمع الأمريكي، إضافة إلى 20% يظنون أنهم سيرتقون قريبا إلى مصاف تلك الشريحة المنعمة والراتعة في الامتيازات. يتابع بيردي قائلا:

> الجانب الخلفي من هذه النزعة التفاؤلية يمثله الظن بأنك إذا أصبحت فقيرا أو مريضا أو وحيدا فلا تلومن إلا نفسك. من عادة الأمريكيين أن يبدوا إعجابهم بالأغنياء والأقوياء، ويشمئزوا من الضعفاء والفقراء - حتى إن كانوا ضمنهم. أما النتيجة فثقافة سياسية تعد فيها السياسات الهادفة لمساعدة المحرومين-مثل الرعاية الاجتماعية والصحية والمساواة العرقية في الاستخدام - تدخلات اقتحامية في النظام الطبيعي.

إذا كان تحليل بيردي لأسلوب الأمريكيين في التفكير صائبا، فهو تعبير واضح عن متلازمة الرابح-الخاسر. وإذا كان هذا هو شعور غالبية المواطنين الأمريكيين إزاء كيفية تنظيم المجتمع الناجح، فلا يمكن توقع إبداء إعجاب كبير بأنظمة دولة الرعاية الاجتماعية الأوروبية. ومن الواضح أن ذلك لا يعني غياب التضامن مع الضعفاء والفقراء كلية. فهذا يصبح مسألة تتعلق بالكرم والسخاء والإحسان، ويستدعي المؤسسات الدينية أو الإنسانية للعمل (وقد فعلت ذلك في الولايات المتحدة بدرجة كبيرة) - لكن ليس الدولة. وبالمقابل، يعد معظم الأوروبيين أن من واجب الدولة الأساسي العمل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، مع التوكيد في الوقت ذاته على أن الأشكال الإضافية من التضامن لا غنى عنها.

للثقافة السياسية التي تبنى على خط التقسيم الفاصل بين الرابحين والخاسرين مقتضيات ومضامين بعيدة المدى للعلاقات الدولية. فالصراعات والنزاعات الدولية لن تترك مساحة كبيرة للمفاوضات: وأي تسوية تجعل الرابح يبدو جبانا. ولذلك لا بد من هيمنة معضلة «إما/ أو» المأزقية على العلاقات. ومن نافل القول إن تعبير «الدول الفاشلة»، حين توضع الدول والأمم كلها في فئة «الخاسرين»، يصبح كاشفا ومفيدا تماما. إذ تحاصر الدول «الفاشلة» في حالات من الخزي الجماعي. وطريقة التعامل معها، من صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي مثلا، كثيرا ما تفاقم وتكثف الشعور بأنها مسلوبة الكرامة. لكن من الواضح أن احترام الذات هو الشرط المسبق النهائي لكي تستعيد الأمة عافيتها وحيويتها وتدخل في علاقة تعاونية هادفة مع الأمم الأخرى. من المستحيل عمليا بناء أي نوع من الثقة المتبادلة من منظور التقسيم إلى رابحين وخاسرين؛ بل على العكس، فذلك يزيد حدة الاستقطاب وحالة الحرب. المثال المعبر في هذا السياق تجسده «الحرب على الإرهاب». فقد استخدمتها إدارة بوش سبيلا وحيدا للتعامل مع الإرهاب الدولي؛ ومن ثم وسمت الجهود التي تبذلها البلدان الأخرى للتوصل إلى استجابات أكثر دقة وشمولا لمواجهة الهجمات الإرهابية بأنها سياسات «الاسترضاء» والتهدئة الجبانة[7].

أسطورة البطل الأمريكي الخارق

تعد متلازمة الرابح ـ الخاسر طريقة نفسية ـ اجتماعية لفهم مكون مهم من مكونات أسلوب الحياة الأمريكي ـ الذي انتشر طبعا في معظم أصقاع العالم. ترتبط هذه المقاربة ارتباطا وثيقا بتحليل الثقافة الشعبية الأمريكية التي قدمها روبرت جيويت وجون لورنس في كتابيهما «أسطورة

البطل الأمريكي الخارق» و«كابتن أمريكا والحملة على الشر: معضلة الوطنية المتحمسة»[8]. وأظهرا، بأسلوب مقنع برأيي، أن الثقافة الشعبية الأمريكية خلال القرن العشرين ظلت في إسار الشخصية الأسطورية للبطل الذي ينقذ المجتمع المحلي المكروب دون معونة من أحد. ووفقا للكاتبين، فإن «صيغة العقدة النمطية» التي «تظهر في آلاف المنتجات الفنية الشعبية ـ الثقافية» هي كالآتي:

> مجتمع محلي يعيش في فردوس متناغم يهدده الشر، المؤسسات الطبيعية تفشل في التعامل مع التهديد؛ فيبرز بطل خارق غيري يرفض الإغراءات وينفذ المهمة الإنقاذية؛ وبمساعدة القدر، يعيد نصره المؤزر المجتمع المحلي إلى وضعه الفردوسي السابق؛ ومن ثم يتراجع البطل الخارق ويغيب في المجهول[9].

يصر الكاتبان على أن هذه الأسطورة الأمريكية الأحادية مختلفة عن الأسطورة التقليدية الأحادية التي وصفها جوزيف كامبل ببراعة في كتابه «البطل ذو الألف وجه»[10]. ففي حين يغامر البطل التقليدي الغرير في عالم متخم بالعجائب والأخطار ويتعلم مغالبة الأعداء المهددين لكي يعود إلى الوطن إنسانا أكثر نضجا وحكمة، فإن البطل الخارق الأمريكي خادم لا يعرف الأنانية يخاطر بحياته في سبيل الآخرين، و«محارب متحمس يدمر الشر»[11]. وفي حين يبدو البطل التقليدي مستمدا من طقوس تعميد المبتدئين والأغرار تمهيدا لدخول الفرد العادي مرحلة النضج، فإن البطل الخارق الأمريكي يعبر عن الصورة التخييلية للخلاص. ووفقا لجيويت ولورنس:

> المنقذون الخارقون في الثقافة الشعبية يحلون محل شخصية المسيح المخلص، الذي أضعفت العقلانية العلمية مصداقيته. لكن قدراتهم الخارقة تعبر عن أمل بالمقدس، بالقوى الإنقاذية المخلصة التي لم يتمكن العلم من محوها من الذاكرة الشعبية. فشخصيات مثل نيو في فيلم «المصفوفة» (Matrix) تبدو مصممة بوضوح لتقدم إلى رواد السينما المعاصرة هذا المسيح الجديد - الذي تخلى عن عجز العظة على الجبل (التي ألقاها يسوع). ليحمل هو ورفيقه ترينيتي حقيبة البحارة الملآنة بالبنادق والمسدسات والمتفجرات المطلوبة لتدمير مركز القيادة للشر السياسي(12).

لسنا بحاجة إلى تعداد مختلف التفسيرات والتوضيحات التي أثبت بها جيويت ولورنس حجتهما. لكنهما يظهران أن الأوهام الخيالية (الفانتازية) تشمل كل شيء: بدءا براعي البقر الوحيد أو العمدة (الشريف) في أفلام رعاة البقر الكلاسيكية (مثل «الظهيرة»)، وانتهاء بالرؤساء الذين أنقذت قواهم البطولية العالم برمته (مثل فيلمي «عيد الاستقلال» و«ايرفورس وان»). لكن البطل الخارق لا يوجد في أفلام السينما فقط؛ بل يهيمن أيضا على مسلسلات التلفزيون وألعاب الفيديو. يركز المؤلفان انتباها خاصا على المسلسل التلفزيوني «ستار تريك» و سلسلة الأفلام السينمائية «حرب النجوم»، لأنهما يكتشفان فيهما انسحارا بالعنف يصل حد الفاشية الشعبية:

> نحن لا نتهم جورج لوكاس بأنه فاشي أوروبي أو نقول إن ملايين الأمريكيين الذين شاهدوا سلسلة «حرب النجوم»

> يشكلون موجة جديدة من أصحاب القمصان البنية أو قوات العاصفة النازية. بل نؤكد وجود تراث أمريكي محلي/أهلي من العنف الإنقاذي يظهر على السطح في هذه الأفلام، تيار عميق الغور يجري بالتوازي مع ينابيع الحملات المثالية الأوروبية.. فضلا على أن فكرة حل جميع مشكلات الحياة في معارك حاسمة واضحة بين الخير والشر هي في حد ذاتها مناقضة للفهم الديمقراطي للحكم.. إن إظهار الصلات الروحية بين «حرب النجوم» والفاشية يشير بدلالته إلى الروح العنيدة المعارضة للديمقراطية في هذا النبع الذي ما يزال يتدفق عبر المخيال الأمريكي(23).

أود تقديم ملاحظتين اثنتين هنا. أولا، من المفهوم أن يهتم جيويت ولورنس بتأثير خيالات البطل الخارق الوهمية في المؤسسات الديمقراطية في وطنهما، وأن يقلقهما احتمال أن تشكل هذه الخيالات الفانتازية الثقافة الشعبية للولايات المتحدة إلى درجة يمكن أن تهدد حيوية ومرونة مؤسساتها الديمقراطية. وبطريقة ما، زاد تحليلهما حدة الانقسام الذي وصفته في متلازمة الرابح-الخاسر. وفي حين يعد البطل رابحا بامتياز، فإن المجتمعات المحلية المعرضة للخطر التي يأتي لإنقاذها، وأولئك الذين ينتظرون المنقذ المخلص لأنهم لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم، هم الخاسرون. بكلمات أخرى، المؤسسات الديمقراطية هي الخاسرة وبحاجة دوما إلى بطل خارق يكسب معاركها نيابة عنها. لست في موقع الحكم على تحليل المؤلفين وهل يصف بصورة صحيحة الوضع السياسي في الولايات المتحدة أم لا.

ملاحظتي الثانية، التي تقلقني كثيرا، تشير إلى أن الفاشية الشعبية التي نتعامل معها ليست شأنا أمريكيا صرفا. فأوهام وخيالات البطل الخارق انتشرت في شتى أصقاع العالم ووجدت مكانا في مخيلة ملايين البشر في أقاصي الأرض. إذ لم تجتاح كوكاكولا ومكدونالد وميكروسوفت وحدها العالم؛ فبسبب الانتشار العالمي للأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية الأمريكية، اجتاح العالم الافتتان المدمر بالبطل الخارق الذي يعد الضعفاء الذين لا يستطيعون مساعدة أنفسهم بأداء المهمات الثقيلة نيابة عنهم. وربما تعمل طريقة الارتقاء بتقسيم الرابح - الخاسر إلى مستوى الذرى شبه الأسطورية على تلويث وإضعاف إيمان الناس بنجاعة مؤسساتهم الديمقراطية، لا في الولايات المتحدة فقط بل في غيرها من بلدان العالم أيضا. وهذه نزعة تتعارض مع الهدف السياسي الرسمي المتمثل في ترسيخ ديمقراطيات قادرة على البقاء في شتى أنحاء العالم.

يتحدث لورنس وجيويت عن «مفارقات» هنا(14). لكن فيما يتعلق بالعديد من المراقبين خارج الولايات المتحدة - خصوصا أولئك المتشككين أصلا بالديمقراطيات على الطراز الغربي - فإن الصورة التخييلية للبطل الخارق/ الرابح تضاعف شكوكهم. وفي الحالات التي يضع فيها الزعماء السياسيون أنفسهم كأبطال خارقين، تصبح الرسالة ازدواجية، على أقل تقدير. ما أفكر فيه توضحه الحادثة الآتية .

ذهلت حين شاهدت غلاف عدد 2002/2/12 من المجلة الألمانية الأسبوعية دير شبيغل، التي تأتيني عادة بالبريد. فمن أجل توضيح حرب بوش «الصليبية» تقريبا على الإرهاب الدولي - وصدام حسين على وجه الخصوص - رسمت المجلة على الغلاف صورة كاريكاتورية جماعية تظهر

الرئيس بوش بهيئة «رامبو» يحمل مدفعا رشاشا بذراعيه ويلف حزام الطلقات حول جسمه المفتول العضلات؛ أما نائب الرئيس ديك تشيني فأخذ هيئة «المبيد»؛ في حين اتخذت مستشارة الأمن القومي (السابقة) كوندوليزا رايس هيئة زينا «الأميرة المحاربة»؛ وقدم وزير الخارجية كولن باول على شكل «الرجل الوطواط»؛ واتخذ وزير الدفاع دونالد رمسفيلد شخصية «كونان البربري». قصد من الغلاف الذي صنع بطريقة لصق عدد من الصور معا أن يشكل مقدمة تمهيدية (وهجائية) للمقالة الرئيسة، وشعرت أنها ستكون تطاولا إذا جاز التعبير - إهانة لمنصب رئيس الولايات المتحدة. لكنني فوجئت حين علمت أن الشخصيات المستهدفة بالانتقاد لم تعد الأمر على هذا النحو قط! فقد قام السفير الأمريكي في ألمانيا، دانييل كوتس، بزيارة إلى مكاتب المجلة، لا للاعتراض، بل ليقول إن الرئيس «شعر بالإطراء»، ثم طلب تكبير ثلاث وثلاثين نسخة من الغلاف إلى حجم الملصقات الدعائية وأرسلها إلى البيت الأبيض لأن كل واحد من موظفي بوش أراد واحدة[15].

يصعب القول إن المثال يجسد أكثر من مجرد حادثة طريفة. لكنه يوضح خيالات وأوهام البطل الخارق التي تلقى القبول بكل مرح وحبور من أعلى مناصب السلطة. لكن الأمر لا يقتصر على «الفاشية الشعبية» التي تهم وتقلق جيويت ولورنس. بل إن قلقهما ينبع أيضا من زراية الأنظمة والقوانين الدستورية المميزة لمآثر البطل الخارق النمطية. ففي سبيل إنقاذ الديمقراطية، تكرر هذه الشخصيات بكل عناد خرق قوانينها وقواعدها؛ وفي الحقيقة، فإن جزءا من سمات البطولة الخارقة

عدم إطاعة هذه القواعد والقوانين، التي ينحصر غرضها كما يمكن أن نستنتج في إبقاء الضعفاء والجبناء تحت السيطرة. فالأبطال الخارقون يحملون قانونهم الخاص معهم. وهذا يعني ضمنا أنهم أبرياء ومطهرون من الذنوب على الدوام، مهما سفكوا من دماء في أعمالهم العنيفة.

مرة أخرى نقول إن هذه البنية الأسطورية تتصل اتصالا وثيقا بتقسيم الرابح ـ الخاسر الذي ناقشناه آنفا. فالرابحون خارج وفوق القوانين والقواعد الناظمة للمجتمع. ومن عوامل مكانتهم المجدة أنهم يطبقون القانون بأيديهم. أدعو ذلك «الوهم البطولي الخداع»: فهو يشير إلى نوع من البراءة التي تمنع أي جدل أخلاقي يعترض حتى على أشد الأعمال التي يرتكبها «أصحاب المراكز الأولى»، ومن يحاول محاكاتهم، دموية وعنفا. نؤكد من جديد أن تلك ليست لعبة أمريكية حصرا؛ فهي تهيمن على معارك الشوارع بين عصابات الشباب في بلدان أمريكا الوسطى والجنوبية و«الحرب المحدودة» التي يخوضها أمراء الحرب وكارتيلات المافيا في شتى أنحاء العالم.

متلازمة الرابح. الخاسر واليمين الديني:

توفيقية جديدة

يشير جويت ولورنس إلى أن النسخة الأمريكية من أسطورة البطل الخارق مؤسسة على السرديات اليهودية ـ المسيحية عن خلاص المجتمع. فالأبطال الخارقون من أمثال نيو في فيلم «المصفوفة»، ليسوا سوى تنويعات على شخصية المسيح، لكن مع «رسالة إنجيلية» مختلفة اختلافا بينا عن رسالة الكتاب المقدس. أما النقطة التي تقلقني أكثر من سواها فهي أننا

نواجه هنا مثالا لافتا ـ ومزعجا ـ عن التوفيقية التلفيقية: أي خلطة من الصور والأفكار المسيحية وغير المسيحية. وأرغب في توكيد حقيقة أنني لست مهتما صراحة بالتوفيقية الدينية، طالما تفهم بوصفها ظاهرة يتعذر تجنبها وفي حاجة مستمرة إلى تقويم مرتكز على النقد الذاتي. فحيثما تجذر الدين المسيحي ـ أو أي دين آخر ـ امتص إلى حد ما العادات الثقافية والتقاليد الدينية السائدة في سياقه الثقافي. لكن العملية التوفيقية تنذر بالخطر حين تنكر حقيقتها الواقعية: بكلمات أخرى، حينما وحيثما تزعم الطوائف الدينية أن رسالتها هي رسالة دين السلف الصالح «النقية»، والتمثيل الأساسي «لصوابيتها القويمة»، عندئذ تقترب التوافقية من حدود الهرطقة.

لاحظت أن الحركات الإنجيلية اليمينية، ومنها تلك التي تحمل رسالة رؤيوية صارمة، متأثرة تأثرا عميقا بأيديولوجيات «الرابحين» الحديثة شبه الدينية، مع أن أعضاء الحركات يصرون بإلحاح على أنها إنجيلية نقية في توجهها. وفي الحقيقة، فإن هذا الزعم بالصوابية القويمة هو الذي يمنعها من رؤية عمق تأثر إيمانها بالتقسيمات الدينية الجديدة للناس إلى رابحين وخاسرين التي اجتاحت العصر الحالي. وأشير هنا إلى ثلاثة مجالات يمكن فيها اكتشاف الخلطة التوفيقية / التلفيقية بسهولة أكبر.

«انضم إلى الفريق الرابح مع المسيح»(16)

هذا النوع من الشعارات شائع ومنتشر بين الإنجيليين في الولايات المتحدة. فأي مسيح يفكر فيه أمثال هؤلاء الوعاظ والمبشرين؟ يتحدث الإنجيل عن حاخام متجول قال عن نفسه: «للثعالب أوجار، ولطيور السماء أوكار، لكن ابن الإنسان ليس له مكان يسند رأسه» (متى 8 : 20). كان

هذا المسيح غريبا، وصديقا للغرباء. وقاده عطفه وتراحمه وإحسانه إلى البحث عن الذين يعيشون في بؤس، بحيث أصبح أملا للفقراء والمنبوذين. وحبه الراديكالي القائم على الرقة واللطف واللاعنف حوله إلى تهديد للزعماء الدينيين في زمنه وثائر محتمل (أو حتى إرهابي!) على قوات الاحتلال الروماني. ولذلك صلبوه. وتنفيذ حكم الإعدام بشخص على الصليب*، وتعريته والهزء به، في وضح النهار في مدينة القدس، يعد أفظع طريقة لسحقه وتدمير أفكاره. وعدّ هذا الإعدام أمارة تثبت أن المسيح فشل فشلا ذريعا. حتى الحواريين اعتقدوا ذلك.

بعد بضعة أيام، كشف المصلوب* عن نفسه أمامهم بوصفه قادرا بتراحمه وإحسانه على مغالبة حتى حدود الموت. فالحب الذي عبر عن خصلته المسيحية لا يمكن سحقه بقوى الموت. وهكذا، كشف «الخاسر» عن نفسه بأنه المسيح. لكنه أكد أن «الانضمام إلى فريقه» يعني السير على خطاه وعدم انتظار شيء آخر، أو شيء أفضل، من مصيره الدنيوي. ما تعنيه الرسالة المسيحانية أوجزتها بأفضل أسلوب العظة على الجبل (متى: 5 ـ 7). أما التزام الحواريين الرسالة المسيحية فموصوف بوضوح في إنجيل بولس، حين كتب عن المسيحيين في كورينث:

> إلى هذه الساعة نجوع ونعطش، ونعرى ونُلكم وليس لنا إقامة، ونتعب عاملين بأيدينا. نُشتم فنبارك؛ نضطهد فنحتمل؛ يفترى علينا فنعظ. صرنا وأصبحنا الآن كأقذار العالم، ووسخ كل شيء.
>
> (كورنثوس، 4: 11 ـ 12)

* ادعاء الصلب للمسيح عليه السلام، يخالف ما ورد في القرآن، إذْ أوضح الحقيقة وأنَّه لم يصلب ولكن شبه لهم.

هل هذا ما يقصده الإنجيليون الأمريكيون حين يشيرون إلى أننا مع المسيح سنكون دوما في الفريق الرابح؟ أستبعد ذلك. لكنهم على الأرجح يشيرون إلى قيامة المسيح، الذي يجلس «على يمين الرب، وسيحكم من هناك على الأحياء والأموات»، وفقا لعقيدة الحواريين. فضلا على ذلك، حين نتذكر سيناريوهات «المتروكون» الرؤيوية، نجد أن المسيح قد فقد جميع صفاته الدنيوية. إذ لم تعد رحمته التي لا حد لها تلهم البشر لاتباعه، بل غضب «البطل الخارق» الذي يبيد أعداءه ويهلكهم في معركة ارماجيدون النهائية. يقدم فيلم ميل غيبسون «آلام المسيح» (2004) مسيحا يعطيه صبره البطولي على التعذيب الذي تعجز عن وصفه الكلمات في «الجلجلة»*، «حقا» إلهيا في أن يصبح المنتقم الجبار - لجميع أولئك الذين بلغ بهم الحمق حد رفض معاناته وتبريحه وتضحيته للتكفير عن خطاياهم. جميع الحشود التي رفضته مقدر عليها أن تكون الخاسرة.

لا نحتاج إلى تصديق السيناريوهات الرؤيوية للخلط بين الوعود المغرية للتفكير المرتكز على «الفريق الرابح» والرواية التوراتية. تيد هاغارد، راعي كنيسة نيو لايف في كولورادو سبرينغز (بولاية كولورادو) ورئيس الجمعية الوطنية للإنجيليين، قدم مثالا معبرا حين قال لصحفي ألماني: «الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم. فلم نسرق [المال] من الأغنياء ونعطيه إلى الفقراء؟ عندئذ ستسود عندنا الظروف السائدة عندكم في ألمانيا!»(17). أشك - على أقل تقدير - في أن تكون تلك رسالة الإنجيل. وأتعاطف مع التنهيدة المعبرة عن السخط في بداية كتاب جيم واليس «سياسة الله» (2005):

> يشعر الكثيرون منا أن ديننا قد سرق، وحان الوقت لاستعادته. خصوصا أن سوء تمثيل هائلا حدث للمسيحية. وبسبب سوء

* تلة قرب القدس صلب عليها المسيح حسب ادعاء الإنجيل. (م)

> الفهم الموحد تقريبا في وسائل الإعلام، يظن كثير من الناس في شتى أنحاء العالم اليوم أن الدين المسيحي يمثل الالتزامات السياسية التي تناقض تقريبا معناه الحقيقي. كيف أصبح دين المسيح معروفا بممالأة الأغنياء وتأييد الحروب ونصرة أمريكا وحدها؟ ما الذي حدث هنا؟ وكيف نعود إلى الإنجيل التاريخي وننقذ الدين الإنجيلي الحقيقي من تشويهاته وتحريفاته المعاصرة؟[18]

ما الذي حدث هنا؟ أعتقد أن إحدى الإجابات عن سؤال واليس تكمن في الخلطة التوفيقية / التلفيقية غير المعترف بها بين الأصولية الإنجيلية - الرؤيوية بالأخص - وثقافة البطل الخارق الشعبية. ومع أن الإنجيليين ورعاة الكنائس، من أمثال تيد هاغارد، يزعمون أنهم ليسوا سوى مفسرين صادقين ومخلصين للكتاب المقدس، إلا أنهم متأثرون تأثرا عميقا في الحقيقة بخيالات وأوهام البطل الخارق المحيطة بهم. ومسيحهم لا علاقة له بمسيح الإنجيل لا من قريب ولا من بعيد؛ بل يشبه البطل الخارق الذي يجب أن يعود ليدمر أولئك الذين أحدثوا الفوضى في العالم. مسيح يحابي الأثرياء ويؤيد الحروب وينصر الأمريكان بالتأكيد، ويمثل باختصار «خبرا سعيدا» يفرح الأغنياء والأقوياء.

الكنائس الوطنية الكبرى المنتشرة اليوم تجمعها علاقة أوثق مع مراكز التسوق منها بالكنائس الصغيرة التي تجمع فيها أوائل المسيحيين (وبالطبع، لا علاقة للكاتدرائيات القوطية الرائعة التصميم في فرنسا بتلك الكنائس/ المنازل المبكرة أيضا). العبادة والتسوق في أمريكا منتجان من منتجات الذهنية الاستهلاكية ذاتها، ورعاة الكنائس الوطنية الكبرى

رجال عصاميون يعملون في صناعة (و«بيزنس») العبادة/ التسلية. هل تعد هذه العبارة جارحة وصارخة؟ هل أعبر عن حسدي كقس متقاعد من الكنيسة اللوثرية، التي يتقلص عدد أعضائها، كحال العديد من الكنائس الرئيسة الأخرى في أمريكا؟ هل أنا خاسر مكروب لا يتحمل حقيقة وجود ناجحين آخرين؟

أعتقد أن الأمر يتجاوز هذا الإطار. فمع أنني مقتنع بأن الكنائس التقليدية يمكن أن تتعلم الكثير من بعض المقاربات الجديدة للكنائس الوطنية الكبرى في أمريكا، إلا أنني مقتنع أيضا بأن مبدأ «الأكبر هو الأفضل» لا يعبر عن جوهر تعاليم وإنجيل يسوع المسيح. إذ يدعي رعاة الكنائس الوطنية في أمريكا أنهم يمتلكون مدخلا مباشرا إلى أسرار الخالق، في حين تتمسك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية وكنائس الإصلاح بقناعة مفادها أن «مذاهب القديسين» تتطلب تشبثا مستمرا بكلمة الله (على الرغم من تفاوت مناهجهم تفاوتا كبيرا لتحقيق ذلك بالطبع). وهي تشترك في الرأي القائل إن المطلوب بنية تشبه المجمع أو المجلس الكنسي للحفاظ على هذا الخطاب والجدل القائمين على نقد الذات. وهي تتفق أيضا، مع الكثير من التحفظ في بعض الأحيان، على أن الاستقصاء الأكاديمي اللاهوتي المستقل أمر لا غنى عنه للحفاظ على استمرارية هذا الجدل. يعتمد ذلك كله على أساس رؤية أن أولئك الذين يزعمون امتلاك الحقيقة يرجح أن يسقطوا في فخ الخداع الانتصاري.

تهديد احتجاب النعمة وفقدان الحظوة

حين انضم المسيحيون الذين ولدوا من جديد إلى «الفريق الرابح»، تجسد اهتمامهم النهائي في البقاء فيه. فهم لا يتحملون احتجاب النعمة ولا

ذهاب الحظوة أبدا. ولذلك يجب أن يكونوا مستعدين لتقديم التضحيات: سوف يخضعون جميع جوانب حياتهم وعملهم للنداء أو «صوت» الله. وتغدو الأمانة أمرا بالغ الأهمية، فإذا فشلوا في فعل ما يريده الله فسوف يخسرون حظوتهم لديه. وإن أصيبوا بالهزيمة فهذا يعني أنهم طردوا من الفريق الرابح. والخاسر في نظر الرب يعني أنه مدان وسيلقى سوء المصير.

لا يخلو هذا الترتيب من المخاطر. إذ يتعرض المسؤولون في المناصب القيادية لإغراء تفسير كل مشكلة صعبة بوصفها امتحانا للأمانة بحيث تنعدم البدائل المتنوعة. لذلك، يصبح تقسيم إما/ أو النموذج المهيمن للحكم على القضايا والأشخاص؛ ويوجد مناخا من عدم الأمان المستمر الذي يحتاج إلى السيطرة المتواصلة لتهدئة حدته. مثل هؤلاء بحاجة إلى استعراض القوة وإظهار العزيمة، حتى في الحالات التي يكون فيها من الحكمة إظهار قدر من ضبط النفس. والأهم أنهم بحاجة إلى التشبث بالقرار والمسار، لأن تغييرهما يستحضر شبح التحول إلى خاسرين في نظر الناس، والأخطر، في نظر الله.

أعترف أن هذا المنظور ساعدني في فهم كيف يمارس الرئيس جورج بوش سلطته، وحرب العراق مثال معبر في هذا السياق. فعلى الرغم من أن الكثيرين من الخبراء داخل وخارج الولايات المتحدة نصحوه بعدم التورط في هذه المغامرة المحفوفة بالخطر، إلا أنه تشبث برأيه ومضى في مغامرته. في المقابلات المطولة التي أجراها بوب ودوارد (من أجل كتابه «خطة الهجوم»)، يصف رفض بوش نصيحة المستشارين، ومنهم أبوه نفسه: «إنه الأب الخطأ الذي ألجأ إليه فيما يتعلق باستمداد القوة. هناك الأب الأعلى الذي ألتمس عونه»، حسبما قال وسجل عبارته بوب

ودوارد[19]. ويبدو من هذه العبارة أن بوش الابن شعر بأن الله يدعوه لشن هذه الحرب؛ ومن ثم سيكون من الخيانة للأمر الرباني لو قرر عدم مهاجمة العراق. وحين قرر الحرب، ذكر أنه لم يشعر بأي تردد: «لم أعان من الشك.. على الإطلاق»[20]. في الوقت ذاته، ربما شعر بأن عليه أن يؤكد ذاته كرجل قوي لا يعرف التردد والتذبذب: بالتزامن مع كونه العبد المطيع والرابح الذي لم يعهد الخسارة. كان متشوقا مثلا إلى إعلان انتصاري من على ظهر حاملة الطائرات «ابراهام لينكولن» يؤكد أن نصرا تاريخيا وعالميا قد تحقق: «في صورة التماثيل التي تسقط [في بغداد] شهدنا وصول حقبة جديدة.. رأينا تحول المد»[21]. النمط ذاته، وإن كان على مستوى أقل أهمية، يمكن ملاحظته في الأسلوب الذي اتبعه هذا الرئيس نفسه لتجاوز مجلس الشيوخ والمضي قدما في تعيين جون بولتون سفيرا في الأمم المتحدة. إذ لم يكتف بإظهار عدم احترامه للشكوك الخطيرة التي عبرت عنها جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ؛ بل خاطر بإضعاف فاعلية مرشحه بين زملائه وتعريض موقع الولايات المتحدة للخطر في الأمم المتحدة. ومن المؤكد أنه عد تعيينه المراوغ والملتوي لبولتون نصرا مؤزرا لمبادئه البطولية السامية.

مرة أخرى نقول إننا نواجه هنا خلطة توفيقية/تلفيقية مراوغة تجمع المسيحية المحافظة مع عقدة الرابح في الثقافة الشعبية. أي الشخصية الأسطورية للبطل الخارق مع الواقعية المسيحية - المشوهة والمحرفة - برأيي. الوهم البطولي للرابح يخرب الواقعية المسيحية التي تعترف بأن أشد المؤمنين تحمسا وتقوى خطاؤون ومعرضون للضعف والاستسلام أمام المغريات. لذلك، يصر القديس بولس (أحد الحواريين)، الذي كان لديه

سبب وجيه ليعد نفسه مبشرا ناجحا، على رسالة الله: «نعمتي تكفيكم، وقوتي كاملة في الضعف» (كورنثوس 12:9). هذه هي واقعية الرحمة التي تقبل تناقضات البشر، في حين تزودهم بوعد التوبة والبداية الجديدة، مع مساحة واسعة لتصحيح الأخطاء، وابتكار مقاربات جديدة، والسعي وراء طرق مستدامة للتعايش مع الآخر، بل حتى مع العدو.

وبالمقابل، يحتاج المسيحيون المؤمنون بالبطل الخارق إلى اليقظة والانتباه باستمرار. إذ لا يمكنهم التصالح مع هشاشة وضعف النفس البشرية واستسلامها للإغراءات؛ فهم يعدونها من غوايات الشر. وهم بحاجة إلى تيقن أنهم على جادة الصواب. ونظرا لأنهم لا يجرؤون على الاعتراف بما في نفوسهم من شكوك وضعف وخطايا وذنوب، سوف يكتشفونها خارج ذواتهم ـ في الآخرين. لذلك، يصبح العالم متخما بالأعداء. لكن الحرب عليهم لا يمكن كسبها من الداخل؛ إذ يجب خوضها على الجبهة الخارجية. أما النتيجة فمزيد من العداء والعداوة، والشك والارتياب، والغضب والحنق: ذهنية تعد بإيجاد الظروف «الآمنة» لكنها تؤبلس العالم الخارجي.

التوجه إلى الحرب

التوليفة التي تجمع متلازمة الرابح ـ الخاسر وسيناريوهات الدين المتطرف القائمة على مبدأ إما/ أو، توجد مناخا حربيا يهدد بتمزيق المجتمع إربا إربا. نرى ذلك في الشرق الأوسط، حيث تفجرت النزاعات في العراق بين السنة والشيعة على شكل هجمات دموية، إلى حد تعرضت فيه وحدة البلد للخطر.

وبطريقة مشابهة، تتفاقم التوترات في المجتمع الأمريكي بين الجماعات المسيحية اليمينية وتلك التي تعدها «ليبرالية» أو «علمانية» - وتزداد حدة وعنفا. أما النتيجة فهي ثقافة حربية تهدد بتقسيم العائلات والأحياء السكنية والكنائس والمنظمات والمؤسسات الاجتماعية. يقول جون غراهام مدير مشروع جيراف: «لم أر في حياتي مثل هذه الدرجة من الاستقطاب، والحدة، وفقدان اللباقة واللطف والتهذيب والاستعداد لسماع وجهة نظر الآخرين. ينطبق ذلك على الكل: من الكونغرس إلى المقاطعة الريفية الصغيرة التي أعيش فيها»[22]. ولا يعد ذلك خبرا سارا لأمة تنفق هذه المبالغ الضخمة من المال على «الأمن الوطني».

على المستوى الدولي، تميل متلازمة الرابح - الخاسر إلى تضييق المساحة التي يمكن فيها العثور على حلول سياسية. فالحرب على الإرهاب، والحرب الاستباقية «الوقائية» على العراق أوجدتا أوضاعا يائسة ومسدودة الأفق. في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، يتضاءل الأمل بأن يتدبر العراق أمر الحفاظ على وحدته وسلامة أراضيه وتتمكن الولايات المتحدة من الانسحاب بطريقة مشرفة. الرئيس بوش ألح مرارا وتكرارا على أن النتيجة المقبولة الوحيدة في العراق هي «النصر الشامل الكامل»، كأنما القلب المترع بالحزن والعداء يمكن تغييره بالقوة العسكرية الأمريكية الغاشمة[23]. أما الإصرار اليائس على مغادرة ميدان المعركة بعد كسبها والظهور بمظهر الرابح المنتصر فيجعل الحلول السياسية مستحيلة.

كان لهذه الحرب على الإرهاب تأثير درامي على الأمن الذي ادعت الدفاع عنه في شتى أرجاء العالم. فقد أصبح المناخ السياسي مليئا بالشك والارتياب والعداء - إلى حد أن الزيارات الرسمية أو مؤتمرات القمة

تتطلب قدرا من الإجراءات الأمنية غير مسبوق في التاريخ. وأسهمت الهجمات الإرهابية في مدريد ولندن واستنبول وعمان في الانشغال بهاجس الإجراءات الأمنية التي قلصت الحريات المدنية وعرضتها لخطر داهم، وهي حريات يحق للمجتمعات الديمقراطية أن تفخر بها وتسعى للدفاع عنها. من ناحية أخرى، تجسد ثورات الشباب في الضواحي المحيطة بباريس وغيرها من المدن الفرنسية في خريف عام 2005، نموذجا للإحباط المتجذر لدى «الخاسرين» في المجتمع الفرنسي. ويبدو أن العنف هو اللغة الوحيدة لإسماع صوتهم ودفع المجتمع إلى فهمهم. وأنا متيقن أننا سنرى مزيدا من مثل هذه الأعمال في بلدان العالم الأخرى.

أصبح تقسيم الناس إلى رابحين وخاسرين القاعدة التي يتبعها «اللاعبون العالميون» في لعبتهم. مرة أخرى أؤكد أنني لا أتحدث عن الولايات المتحدة وحدها، مع أن مكانتها كقوة عظمى وحيدة تجعلها اللاعب المهيمن في «فريق الرابحين» هذا. بلدان النسق الثاني في أوروبا وآسيا تنتمي إليه أيضا. يروي جون غراهام قصة عن نفسه حين كان طالبا في سنة التخرج في أوائل الستينيات، حيث اعتاد التجول في العالم وليس في جيبه سوى بضعة دولارات. فأينما ذهب لقي الترحيب، وكان الناس يدعونه إلى منازلهم ولم يواجه أي مشكلة في العثور على عمل لتمويل رحلته. كان شابا أمريكيا يحب الناس في شتى أرجاء العالم لقاءه والتحدث معه. يقول متسائلا: «ما الذي حدث لنا؟ بعد أربعين سنة، سوف يواجه أي طالب جامعي أمريكي بالشك والريبة والكراهية أينما ذهب. في تلك الخوالي، كنت أشعر بالأمان في الأماكن ذاتها التي يتعرض فيها الأمريكيون اليوم للقتل»[24].

سوف أكرر سؤال جيم واليس مرة أخرى: ما الذي حدث؟ «أسلوب الحياة الأمريكي» الذي جذبني إليه عندما كنت شابا فقد الكثير من جاذبيته. ومن المؤكد أن ظاهرة الأعداد الضخمة من الرجال والنساء الذين يحاولون دخول الولايات المتحدة ما زالت مستمرة إلى يومنا الحالي، في حين يخاطر غيرهم بحياتهم لدخول البلدان الغنية في أوروبا. وبالمقارنة مع البؤس واليأس في أوطانهم، ما زالت البلدان الغنية في أمريكا الشمالية وأوروبا تبدو «أرض الأحرار وموطن الشجعان»، وهذا الوعد الأسطوري ما زال جذابا. لكن في الوقت ذاته، تجد أعداد متزايدة من الناس في أمريكا اللاتينية وإفريقية وآسيا أن هذه الأسطورة تحمل في ركابها وهما خداعا. فهم يتعرضون للرفض والنبذ والإقصاء: فالجدران والحواجز التي تفصلنا، نحن الرابحون، عنهم، جماهير الخاسرين، تزداد ارتفاعا باطراد. وهذا لا يعني سوى أن العالم متجه نحو مزيد من الحروب.

خاتمة مؤقتة

يمكن قول الكثير، ويجب قول الكثير، لنفهم الوضع الذي نحن فيه (وأعني بـ«نحن» أولئك الذين يستفيدون من الثروة والحريات في الولايات المتحدة وأوروبا كلتيهما). لكن ما وصفته قد يكفي لتوضيح التغير الجذري في إدراك ما تمثله «أمريكا». في الفصل الأول، عاينت المسيحانية التقليدية التي انطلقت منها نهضة الولايات المتحدة المذهلة. في الفصل الثاني، حاولت إظهار حجم النجاح الهائل الذي حققته سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية. وأود الإشارة إلى أنها عبارة عن تثوير راديكالي للعناصر الألفية داخل المشروع المسيحاني الأمريكي. أما الشخصية الأسطورية

للبطل الخارق وتقسيم الناس إلى رابحين وخاسرين اللذان ناقشتهما في الفصل الثالث فيمكن رؤيتهما كعلمنة وتسطيح للاستثنائية التي هي جزء من المشروع المسيحاني الأمريكي أيضا. فضلا على ذلك كله، حاولت إظهار أن النزعتين كلتيهما، التثوير والتسطيح، تقويان إحداهما الأخرى. أما النتيجة فهي أن الدين المدني الذي عرفه روبرت بيلاه قد أصبح دينا توفيقيا شعبويا يضم الجماعات الرؤيوية ذات التوجه السياسي اليميني وعناصر من الثنوية البطولية العريضة القائمة على تقسيم الناس إلى رابحين وخاسرين. والسمات المشتركة لهذه الذهنية تجسدها خلطة تجمع النظرة المانوية للعالم، والوطنية الشوفينية، وثقافة الحرب العدوانية.

انطباعي هو أننا نواجه تشويهات عميقة وتحريفات خطيرة للتراث المسيحاني في أمريكا، وهذا يؤدي إلى السؤالين التاليين: ما الذي يوجد في المسيحانية التقليدية ويسهل ويناسب هذه الانحرافات الضلالية؟ وما الذي يجب فعله لإصلاح فكرة المسيحانية الأصلية؟

هوامش

1- انظر:

Godehard Weyerer, “C.A.R.E. fur Deutschland,” Die Zeit (July 24, 1996).

2- أغنية«الرابح يأخذ كل شيء» سجلتها فرقة ابا عام 1979. وفيما يتعلق بالانتخابات، وبالتغاير مع حقوق التصويت في بريطانيا والولايات المتحدة، حيث يأخذ المرشح الرابح جميع أصوات الدائرة في حين تضيع أصوات المعارضين، يتبع المواطنون الألمان نوعين من عمليات التصويت. في الأول تذهب الأصوات مباشرة إلى المرشح، وتذهب في الثاني إلى حزب المرشح. هذا النظام يمكن الأحزاب التي هي أصغر حجما، مثل الخضر أو الليبراليين، من إرسال أعضائها إلى البرلمان الذي ينتخب أعضاؤه بواسطة التصويت للحزب. أفضل هذا النظام على ذلك المستخدم في بريطانيا والولايات المتحدة، الذي يضع عبئا ثقيلا لا يحتمل على عاتق الأحزاب الجديدة ويمنعها من الاشتراك في العملية البرلمانية.

3- ناقشت الطبيعة العنفية لمتلازمة الرابح ـ الخاسر بتفصيل مسهب في مقالتي:

Faszination Gewalt. Aufklarungsversuche (Frankfurt/Main: Lembech Verlag, 2006), pp. 66- 98.

4- انظر:

Bob Herbert, “Bush’s Colossal Failure,” New York Times, Sept. 5, 2005.

5- Thomas L. Friedman, «Osama and Katrina,» New York Times, Sept. 7, 2005.

6- Jedediah Purdy, «Eine Lehrstund fur Wolfe,« Suddeutsche Zeitung 37 (Sept. 8, 2005), p. 3.

(الشاهد مقتبس عن أصل إنكليزي غير منشور، سمح لي بيردي مشكورا باستخدامه).

7- يمكن الاطلاع على مثال واضح على مقاربة إما/أو هذه في كتاب فروم وبيرل: «نهاية للشر: كيف نكسب الحرب على الإرهاب» (New York: Random House, 2003)، حيث يذكر المؤلفان: «نحن لا نعتقد أن الأمريكيين يحاربون هذا الشر [الإرهاب] لتقليص خطره أو التعامل معه. بل نعتقد أنهم يحاربون لينتصروا ـ لينهوا هذا الشر قبل أن يقتل مرة أخرى بحجم الإبادة الجماعية. لا يوجد حل وسط أمام الأمريكيين: إما النصر أو المحرقة» (ص9)، وهذان خياران أجدهما كألماني مروعين.

8- انظر:

John Shelton Lawrence and Robert Jewett, The Myth of the American Superhero (Grand Rapids: Eerdmans, 2002); John Shelton Lawrence and Robert Jewett, Captain America and the Crusade Against Evil: The Dilemma of Zealous Nationalism (Grand Rapids: Eerdmans, 2003).

9- Lawrence and Jewett, Myth, p. 6.

10- Joseph Campbell, The Hero with a Thousand Faces (New York: Meridian, 1956).

11- Lawrence and Jewett, Myth, p. 6.

12- Lawrence and Jewett, Myth, pp. 6f.

13- Lawrence and Jewett, Myth, p. 278.

14- انظر:

Lawrence and Jewett, Myth, p. 7.

15- للاطلاع على مزيد التفاصيل، انظر:

Lawrence and Jewett, Captain America, pp. 40, 43.

16- انظر:

«Faith Takes Center Stage at Superbowl,» Associated Press, February 5, 2005.

http://www.foxnews.com/story/0,2933,146507,00.html

17- Lars Jensen, «Beten bis zum Umfallen», Suddeutsche Zeitung 38 (Sept. 23, 2005): 34 (translated by the author).

18- Wallis, God's Politics (San Francisco: HarperSanFrancisco, 2005), p. 3.

19- Woodward, Plan of Attack (New York: Simon & Schuster, 2004), p. 421.

20- Woodward, Plan, p. 420.

21- Woodward, Plan, p. 412.

22- John Graham, «America Today,» remarks at a meeting of the International council of Initiatives for Change, Vancouver, B.C., Canada (March 12, 2005, unpublished manuscript), p. 4.

23- انظر على سبيل المثال:

«Bush: U.S. Seeks Total Victory Over Terrorism,» Armed Forces Information Service of U.S Department of Defense (online):

http://www.defenselink.mil/news/Aug20052504_20050822/.html (accessed Nov. 20, 2005).

24- محادثة شخصية مع المؤلف.

ـ 4 ـ

«لماذا يكرهوننا؟»

في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، أي بعد شهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر على البنتاغون والبرجين التوأمين في نيويورك، قال الرئيس بوش: «كيف أجيب حين أرى في بعض البلاد الإسلامية كراهية حادة لأمريكا؟ سأقول لكم كيف أجيب: أنا مندهش، ولا أصدق ذلك لأنني أعلم كم نحن أخيار»[1].

سوف يعد الكثير من الأمريكيين بيان الرئيس مغاليا في البساطة والسطحية إلى حد محرج. لكن قد يكون من الأنسب عدم اعتباره مؤشرا على الذكاء بل جهرا بالإيمان الديني. فجملة «أعلم كم نحن أخيار» تعبر عن الإيمان الراسخ بطيبة وصلاح أمريكا الذي ظل دوما جزءا من رسالتها المسيحانية. في الوقت ذاته، تتدخل أيضا الطبيعة شبه الدينية لثنائية الرابح ـ الخاسر. وكما يدرك العديد من الأمريكيين، تتكون «الطيبة والصلاح» من تشكيلة متنوعة من الصفات والسمات. هنالك معادلة ضخامة الحجم والصلاح والطيبة: ولذلك، يجب على الأمة التي رسخت نفسها القوة العظمى الوحيدة على الأرض أن تكون

صالحة وخيرة، لا فيما يتعلق بالقوة الاقتصادية والامتياز العلمي فقط، بل بالمعنى الأخلاقي أيضا[2]. وتدخل في ذلك أيضا أسطورة البطل الأمريكي الخارق: «الأمريكي الطيب الخير» مشهور بكرمه الأصيل، واستعداده للفداء والتضحية بنفسه في سبيل المحتاجين ـ طيبة خيرة لا تشوبها شائبة أو ذنب. ووفقا لهذا الزعم الاستكباري التيّاه، يجب احترام ما أصبح يعرف في الخمسينيات بـ«الأمريكي القبيح»، المتطفل الحقود ـ بل الإعجاب به وتبجيله. ولذلك، من «المدهش» وجود مثل هذه الكراهية في العالم، لا في «بعض البلاد الإسلامية» فقط. لماذا يصعب تصديق هذه الحقيقة؟ ما الذي يجعلها عصية على الفهم إلى هذا الحد؟

أعتقد أن من المهم فهم هذه الكراهية بحيث نستطيع تخفيف حدة عدائيتها الهائلة والعمل من أجل استعادة مزيد من العلاقات الودية. وليس كافيا القول إن هذه الكراهية لا تعبر إلا عن الحسد والمكر من جانب أولئك الفاشلين والخاسرين. ومن المبالغة في التبسيط القول إن ذلك مجرد شعور بالاستياء مناهض للرأسمالية والديمقراطية وأمريكا من جانب «الخاسرين» في هذا العالم. لكنه يبدو رد الفعل الوحيد الذي يفكر فيه ديفيد فروم وريتشارد بيرل ـ وكلاهما من كبار المسؤولين في إدارة جورج بوش الابن ـ حين يقولان ما يلي عن المنتقدين الأوروبيين:

> أنفقت الولايات المتحدة مئات المليارات قبل نصف قرن على أوروبا، ولا بد أن العديد من الأوروبيين قد عبروا عن اعتراضهم واستيائهم. استيائهم من كرم وسخاء أمريكا، ومن حاجتهم إلى الكرم والسخاء.. وليس من قبيل الصدفة على الأرجح أن تكون البلدان الأوروبية التي شهدت أقوى المشاعر المناهضة

لأمريكا هي التي يجب أن تكون أكثرها اعترافا بالفضل والجميل: فرنسا التي حررتها الولايات المتحدة؛ والمانيا التي أعادت الولايات المتحدة إعمارها وحمايتها[3].

لا يكشف هذا التصريح جهلا معيبا ومروعا بالظروف التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في أوروبا والعلاقة بين فرنسا والمانيا من جهة، وعلاقات كل منهما بالولايات المتحدة من جهة ثانية فقط؛ بل يوضح عمق الهوة التي سقط فيها المؤلفان ضحية لاعتقادهما بالقوة الخارقة لأمريكا وطيبتها وصلاحها. وهما يستعرضان نوعا من النرجسية الوطنية حين يتابعان القول ليزعما أن «الولايات المتحدة أصبحت الآن أعظم من جميع القوى العظمى في التاريخ البشري، وأظهر نصرها المؤزر أن الحرية لا تقاوم»[4]. المنطق الناتج يؤكد أن ما فعلته وتفعله الولايات المتحدة يتأصل فيه الخير والصلاح، ولذلك لا بد أن يكون الآخرون مخطئين. بل أكثر من مجرد مخطئين: لا بد أنهم يتصفون بالخسة الأخلاقية. وتردد وإحجام بعض الأوروبيين عن الانضمام إلى مبادرات أمريكا العسكرية يتيحان لفروم وبيرل رؤية نوع من القرابة الأخلاقية بين الأوروبيين والإرهابيين: «الغيرة والاستياء اللذان يحركان الإرهابيين يؤثران أيضا في العديد من حلفائنا السابقين في الحرب الباردة»، حسب تعبيرهما الخجول[5]. ولا شك في أن هذه «البراءة» المسيحانية البطولية ـ مترافقة بخريطة أخلاقية أحادية القطبية ـ تُمد إلى حدها الأقصى المغالي في التغطرس والتسطح.

لكن المسألة أكثر أهمية من أن تترك عند هذا المستوى الأيديولوجي السطحي. ومحاولتنا لفهم انتشار كراهية الولايات المتحدة في شتى أرجاء العالم يجب أن تكون أكثر عمقا. فإذا نظرنا إلى الحجج المقدمة لتفسير

هذه الكراهية والامتعاض، نجد ثلاثة تعابير: الإبادة الجماعية، والرق، والإمبريالية. إن أي مواطن أمريكي يتميز بعمق التفكير سوف يعرف على الفور دلالاتها. الإبادة الجماعية تشير إلى استئصال وإبادة السكان الأصليين في القارة الأمريكية، وهي جريمة مذهلة الحجم والامتداد، لكنها موغلة في القدم لمعظمنا اليوم وما زالت عصية على فهمنا. لكن إذا تكبدنا مشقة الإصغاء إلى الناجين من سكان أمريكا الأصليين ـ مثلما فعلت في مناسبات عديدة ـ نشعر بحزنهم الذي لا قرارة له، بجرحهم النازف النافذ كأنه اخترق روحهم. فما بقي من هذه الشعوب العظيمة قصة واقعية لا تنتهي ولا تنسى.

يشير الرق بالطبع إلى تاريخ امتد قرونا من إخضاع واستعباد الرجال والنساء الأفارقة في الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية. ومع أن الرق ألغي رسميا قبل قرن ونصف القرن، إلا أنه ما يزال باقيا. إعصار كاترينا فضح الظروف الاقتصادية والاجتماعية للعديد من الأمريكيين الأفارقة، لكن البؤس الاجتماعي ليس أول ما يخطر على البال. فقد استشعرت خلفه رعبا روحيا، نوعا من الضياع الذي يدفع العديد من الأمريكيين الأفارقة إلى اليأس. وتجربتهم المستمرة مع الوصمة، المتكررة عبر الأجيال، أعطت العديد منهم ـ خصوصا الرجال ـ شعورا بأنهم الذين «ولدوا خاسرين» في أمريكا، وتلك صورة ذاتية تضعف القدرة وتوجد حالة من اللامبالاة وإحساسا مؤلما بالعبثية واللاجدوى. أما الحراك الاجتماعي الارتقائي الذي شهدته معظم الجماعات الاثنية التي هاجرت إلى الولايات المتحدة فيبدو أنه تجاوز إلى حد بعيد العديد من المجتمعات المحلية الأمريكية ذات الأصول الأفريقية.

ثالثا، الإمبريالية تعبير استخدمه الناس في أمريكا الوسطى والجنوبية، وفي الفيليبين وغيرها من بلدان آسيا، والشرق الأوسط خصوصا، لوصف ما تمثله الولايات المتحدة من دلالة في نظرهم. بدأت المسألة مع «مبدأ» «أمريكا للأمريكيين»، الذي وضعه الرئيس الخامس للولايات المتحدة («مبدأ مونرو»). ولا حاجة بنا لأن نروي بالتفصيل الفتوحات والحروب التوسعية المبكرة التي شنتها الولايات المتحدة لاحتلال الأراضي في نصف الكرة الغربي ومناطق العالم الأخرى. لكن عند نهاية الحرب المكسيكية (1846 ـ 1848)، أجبرت المكسيك على التخلي عن جميع الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر ريو غراند (التي تشكل اليوم ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيفادا ونيومكسيكو ويوتاه إضافة إلى أجزاء من اريزونا وكولورادو). الحرب للسيطرة على الأراضي الجنوبية الغربية أعقبتها تدخلات متفرقة وعمليات احتلال لتكريس الأمر الواقع قام بها مشاة البحرية الأمريكية في نيكاراغوا وبنما. ونتيجة للحرب الإسبانية ـ الأمريكية (1898 ـ 1901)، استولت الولايات المتحدة على بورتوريكو وغوام وجزر الفيليبين (امتد ضم الفيليبين إلى الولايات المتحدة حتى عام 1946، وشهد عمليات قمع وحشية للانتفاضات الفليبينية من أجل الاستقلال في القرن العشرين). وفي شتى أنحاء أمريكا اللاتينية، دعمت الحكومات الأمريكية الأنظمة الديكتاتورية وساعدت على إطاحة الحكومات المنتخبة ديمقراطيا (مثل حكومة زيلايو في نيكاراغوا عام 1909، واربينز في غواتيمالا عام 1954، والليندي في تشيلي عام 1974). أما خليج غوانتانامو في كوبا فقد ظل موقعا لقاعدة عسكرية أمريكية منذ عام 1903 وحتى اليوم.

إذا أضفنا إلى هذا التاريخ إسقاط حكومة مصدق في إيران عام 1954، والدعم اللاحق إلى الحكم الديكتاتوري لشاه إيران رضا بهلوي؛ ودعم الولايات المتحدة لصدام حسين في حربه على إيران (قبل أن يفقد حظوة أمريكا) ـ لا يصعب علينا تصور لماذا يرى سكان الشرق الأوسط الحربين اللتين شنهما بوش الأب ثم بوش الابن على العراق، بوصفهما تجسيدا لآخر الأمثلة على التراث الإمبريالي. لا أقول إن علينا رؤية المسألة من هذا المنظور. لكن النقطة التي أركز عليها هي أن الضحايا يمكن أن يروا المدى الجغرافي المتوسع للغزوات الأمريكية، حتى حين يسميها الزعماء الأمريكيون عمليات «تحرير» ضمن «مسيرة الحرية»، بوصفه استراتيجية كبرى للسيطرة التوسعية على العالم برمته.

يسهل بالطبع على المؤرخين إظهار مدى عجز تعابير مثل «الإبادة الجماعية» و«الرق» و«الإمبريالية» عن وصف تعقيدات الفتوحات التوسعية الأمريكية بأسلوب كاف ومرض، أولا في القارة الأمريكية الشمالية، ثم فيما وراءها. ونحتاج إلى تذكر أن هذه الفتوحات التوسعية ارتبطت بالفتوحات المرافقة التي تنافست فيها القوى الأوروبية في السيطرة على العالم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فضلا على ذلك، من السهل، والضروري، تسليط الضوء على الجدل المؤثر والانشقاق العميق داخل الولايات المتحدة اللذين صاحبا هذه التطورات السياسية والعسكرية. على سبيل المثال، شعر ملك صناعة الفولاذ اندرو كارنيجي بالحزن والقلق بسبب قمع الولايات المتحدة للحرية في الفليبين إلى حد أنه عرض على الرئيس مكينلي عشرين مليون دولارا (ثمن المعاهدة مع إسبانيا)، لكي تعاد البلاد إلى سيطرة حركة الاستقلال الوطنية فيها. لكن

التفكير العلمي «الموضوعي» والمنطق التاريخي لا يفيدان كثيرا حين يتعلق الأمر بفهم مشاعر الضحايا والتأثير الدائم لما يصيبهم من صدمة ومعاناة. فشل عرض كارنيجي السخي، وما أصبح على المحك ليس من هو على «صواب» أو «خطأ»، أو ما هي التعقيدات المتوازنة في مثل هذه الحالات، بل التجارب الفعلية والطريقة الحقيقية التي يتذكرها الناس من خلالها. ولا عزاء لمئات الآلاف من الفليبينيين الذين سقطوا وهم يقاومون الهيمنة الأمريكية، في وجود متعاطفين عاجزين سياسيا داخل الولايات المتحدة ويؤيدون استقلال الفليبين(6).

التذكر الانتقائي: تأويل الإذلال والإنكار

كثيرا ما قيل إن الرابحين لا يكتفون بصنع التاريخ فقط، بل يقررون ما يجب تذكره وما يجب نسيانه من أحداثه. لكن الذكريات لا تخضع للأوامر بمثل هذه الطريقة. إذ تتبع أساليب غامضة ومراوغة للبقاء حية، وإذا لم تعامل بعناية وحرص، يمكن أن تمارس تأثيرا استحواذيا على الحاضر. بادئ ذي بدء، نجد أن جميع الأعمال الفظيعة في ظلمها، مثل الجرائم أو المذابح أو الحروب، ترسخ تاريخا مزدوجا للتذكر. تاريخا من الذنب والعار للجلادين، وآخر من الإذلال والجراح للضحايا. أعتقد أن من الأسهل التعايش مع ذكريات الذنب من ذكريات الإذلال. وفي حين أن الأولى هي سوء استخدام للقوة لا يضعف إمكان الفعل، فإن الثانية هي تجربة من المعاناة تتاخم حدود إصابة الذات بالعجز والشلل.

يكوّن هذا التاريخ المزدوج سلسلة تقيد الطرفين بالماضي وتكبل أحدهما بالآخر، بطرق لا واعية على الأغلب - ومن ثم يسبب الإزعاج والقلق لهما معا.

انطباعي هو أن «الكراهية الحادة» التي تحدث عنها الرئيس بوش في خطبته في تشرين الأول/ أكتوبر 2001، هي تعبير عن/ ونتيجة مؤسفة لهذه «السلسلة من الذكريات». فقد قرر الرئيس أن الطريقة الوحيدة لكسر حلقات هذه «السلسلة» هي الذهاب إلى الحرب «للقضاء على الإرهاب عند جذوره»[7]. لكن ما حققه هو مد هذه السلسلة من الكراهية لتصبح أطول من ذي قبل، وتغدو حلقاتها أثخن وأثقل. هل يمكن كسر هذه السلسلة؟ أنا على قناعة بأن ذلك ممكن ـ لكن ليس بردة الفعل العنيفة بالتأكيد، لأنها ليست سوى تكرار للفعل الشرير الذي زعمت أنها تغالبه. الرد العنيف يفاقم قطبية العداء، في حين أن المصالحة، مع أنها محل ازدراء وسخرية «الرجال القساة» في العالم، طريقة خلاقة لتحرير الطرفين من التأثير الدائم لحالات الظلم الماضية. يمكن للبشر مداواة جراح ذكرياتهم المثبطة. ويمكن للأعداء الألداء أن يتحولوا إلى جيران طيبين وأصدقاء موثوقين. لكن تلك عملية تتطلب نوعا من القوة والقدرة والشجاعة لا يملكه معظم «الرابحين». لسوف أتناول «فن التذكر» هذا بمزيد من الإسهاب في الفصول التالية.

تأويل الإذلال

ما زلت مهتما بفهم الكراهية المسمومة للولايات المتحدة التي يمكن العثور عليها لا في مختلف أرجاء العالم فحسب بل داخل الولايات المتحدة ذاتها أيضا. لسوف نعاين طرفي «السلسلة» كليهما. أولا، على طرف الضحايا، يتضح أن مشاعر الكره والاستياء والريبة هي نتاج مختلف الطرق التي حافظت عبرها تجارب الصدمة المؤلمة والإذلال المهين على وجودها الحي، أو بالأحرى التي تبقي على نفسها حية. لذلك لا يكفي القول إن التذكر هو

بناء أحداث الماضي وكأنه مسألة تتعلق بالقرار الواعي فقط. إذ إن المراوغ والمقلق في القضية أن الدوافع اللاشعورية تؤدي دورها المزعج في صياغة رواية سردية تحافظ على التجارب الموجعة حية ونشيطة. نحن نواجه ظاهرة يمكن أن نسميها «تأويل الإذلال». سأورد هنا ثلاثة جوانب منها فقط:

1) يتعلق قدر كبير من الكراهية التي نجدها في مختلف أرجاء العالم لأمريكا بشعور[9] العديد من الناس الذين لم يعترف أحد بمعاناتهم كما يجب. وهم متأثرون بانطباع مهيج ومثير للغضب يشير إلى أن كرامتهم سحقت وسيادتهم كأمة وبشر ديست بالأقدام. ويعبرون عن استيائهم من غطرسة القوة، والتفوق الساحق الذي يحولهم إلى بشر من الدرجة الثانية في الأهمية. إنها تجربة خصائية إذا جاز التعبير تضعف وتشل الإحساس بالذات. من ميراث أمريكا الملطخ تاريخها الطويل من الإرهاب الداخلي الموجه إلى السود. سلسلة من الجرائم المروعة التي خلفت 3500 قتيل نتيجة عمليات الإعدام الطقسية[10]. ومثلما وصف جوزيف تومان «الرسالة» في كتابه، فإن الملاءات البيضاء والصلبان المحترقة لمنظمة كو كلوكس كلان كانت «رموزا للموت والأذى والدمار الخطير. ورؤيتها في سياق الإعدامات التي ينفذها الغوغاء، والجلد بالسياط، والخصاء، وإطلاق النار، والطعن بالمدى، والضرب، والحرق، تعزز هذه الرمزية»[11] صحيح أن المنظمة هادئة الآن، لكن كيف يمكن لأقارب وأصدقاء الضحايا نسيان مثل هذه التجارب؟ هذا الشعور بالظلم الفادح يصرخ مطالبا بالعدالة، لكن لا توجد عدالة كافية لإنقاذ الذات المعطوبة. ويطالب بالثأر، لكنه يستشعر عبثية المطلب. ولا ريب في أن ذلك كله يثير

مشاعر الغضب العميق المكبوت، الذي لا منفذ له لأن العدو قوي وضخم ومتفوق ويصعب إلحاق الأذى به. لذلك يتناسج الغضب والإحباط. وتفقد الحياة معناها لأن الفشل محوم دوما على الأفق الشخصي؛ وهكذا، يمكن التضحية بالحياة في هجوم انتحاري أو هدرها في تكاسل مدمر للذات.

2) من طرق الخروج من هذا الاضطراب الجواني وضع اللوم كله على «الأجنبي» القوي. فهو المسؤول عن الخطايا والذنوب كلها، حتى تلك المشكلات التي تستطيع «الضحية» معالجتها. وهكذا يصبح «الأجنبي» وراء كل شيء ـ الاستغلال والتلاعب والمناورة والهيمنة المتعمدة. وبذلك يمكن أن يصبح كبش الفداء والمطاردة الشعواء جزءا من اللعبة لاستعادة بعض الإحساس بالموقف. فإذا تعذرت مجابهة العدو نفسه، يمكن التنفيس عن الغضب باتجاه «المتواطئين» معه (عند كتابة هذه الصفحات، كثيرا ما استهدفت الهجمات الانتحارية في العراق رجال الشرطة العراقيين على أساس الاعتقاد بأنهم «متواطئون» مع العدو).

3) يتمثل جزء من تأويل الإذلال والمهانة في بناء صورة مشوهة لـ«العدو». المفكر الراحل إدوارد سعيد يقدم ملاحظة. ويقول إن في معظم البلدان العربية صورة متخيلة ومصطنعة عن أمريكا، صورة كاريكاتورية تقريبا عن حقيقتها. وبالطبع، هنالك شيء من المنطق في ذلك، لأن اختزال صورة الذات للأضعف يترافق بتخيل صورة مشوهة للأقوى لا تترك مساحة كافية للتمايزات أو الاختلافات. كأنما التاريخ قد تجمد. فثقافة الأضعف تستخدم نماذج وصورا ذهنية قديمة العهد مرارا وتكرارا لفهم

التطورات الجديدة. رأيت ذلك في أمريكا اللاتينية أيضا. إذ يمكن اكتشاف نوع من الأبلسة الشمولية الذي يمنع الناس من الاعتراف بالفوارق داخل الولايات المتحدة ويجعلهم عاجزين عن تقدير آراء النقد الذاتي التي يتبناها العديد من الأمريكيين فيما يتعلق بسياسات الحكومة. فإفساح المجال للمقاربات المتنوعة يؤثر في «صورة العدو» ويغيرها.

ثمة خطوة إضافية مطلوبة لإعطاء هذه الأبلسة شكلا دينيا عبر تحويلها إلى شيطنة. وأولئك الذين يسمون أمريكا «الشيطان الأكبر» يوجدون فجوة ميتافيزيقية بين ذواتهم والعدو يستحيل تجسيرها. وفي الحقيقة، لا يفترض بكل ضحية مؤمنة وتقية حتى الرغبة في تجسيرها. إن إدانة الولايات المتحدة بوصفها كيانا يدمج فيه الشر كله يعفي المعتقدين بهذا الرأي من مسؤولية البحث عن طرق لحل المشكلة. وما إن يوسع الصراع إلى مثل هذا الحد الأقصى اللاتاريخي، حتى ينتفي احتمال حله بالوسائل الدنيوية. وتصبح العداوة شاملة ـ «قانونا» للتاريخ.

تأويل الإنكار

ماذا عن عملية التذكر في معسكر المنتصرين؟ انطباعي يشير إلى أن الرواية السردية الرسمية للولايات المتحدة تخضع لهيمنة إحساس بالنجاح بل بالانتصار. ونظرة عريضة وشاملة على تاريخ الولايات المتحدة، منذ بداياتها حتى تحولها إلى القوة العظمى الوحيدة في العالم، لا تكشف إلا عن تقدم لا يمكن وقفه، وباللغة الدينية، لا تظهر إلا بينة دامغة على النعم الإلهية والاستثنائية الفريدة المباركة. ما الذي تفعله هذه الرواية

السردية لجانبها المظلم الوحشي، المتمثل في ميراث الإبادة الجماعية والرق والفتوحات التوسعية الإمبريالية؟ يمكن رؤية ردة الفعل المهيمنة بوصفها إنكارا[13]. كيف يعمل؟ لـ«تأويل الإنكار» عدة وجوه، أحسب أن التالية أهمها.

أول طريقة للإنكار هي إعلان التاريخ غير ذي أهمية. ولربما يكون ذلك رد فعل غريزي لمن لا يرغب بتذكر مشاعر انقطاع الجذور القديمة العهد. ومثلما اقترحت في مقدمة هذا الكتاب، يمكن للآلام الخفية للحياة المضطربة أن تتحول إلى رغبة عامة في عدم النظر إلى الماضي. وحين نجعل التاريخ غير ذي أهمية، تصبح دراسته غير ذات صلة أيضا. لكن تجاهل التاريخ طريقة من طرق تجنب الرسائل التي تقلق راحتنا اللاشرعية. مرة أخرى نقول إن العديد من مواطني الولايات المتحدة لا يميلون كثيرا إلى معاينة تاريخ بلدهم بتعمق (حتى وإن أتاحت لهم مدارسهم الفرصة لذلك)، لأن قصتهم ضمن هذا التاريخ الأوسع قصيرة جدا. ولربما لا تجد الجماعات المهاجرة الكبيرة القادمة من آسيا أو أمريكا اللاتينية سببا وجيها للارتباط الكامل بذلك الجزء من التاريخ الأمريكي الذي يشمل «الإبادة الجماعية» و«الرق» و«الإمبريالية» إذ لا يقتصر الأمر على أن ذلك يبدو من الماضي البعيد؛ بل الأهم أن لديهم تجاربهم الخاصة مع التمييز العنصري لتفاديها. فضلا على ذلك، من المرجح أنهم يأتون إلى أمريكا، برأيهم، بحثا عن فرصة، لا للمشاركة في تحمل مسؤولية ميراث الماضي البعيد.

يصعب إنكار حقيقة أن معظم الأمريكيين لا يملكون الوقت أو الميل لدراسة ما فعلته الفتوحات التوسعية الإمبريالية بالشعوب في قارة

أمريكا الشمالية أو القارات البعيدة. ومثلما هي الحال لدى الأمم الأخرى، يعتمد رأي عامة الناس على موثوقية الزعماء السياسيين ومعولية قطاع التعليم ووسائل الإعلام للحصول على أدلة وبينات تشير إلى ما فعلته بلادهم، وما تفعله، في شتى أنحاء العالم. لكنني أجد شيئا واحدا يصعب فهمه هو أن أعضاء في الكونغرس الأمريكي تباهوا فعلا بأنهم لا يملكون جوازات سفر. أي أنهم لم يسافروا خارج البلاد قط. وهذا يعني ضمنا أنهم لا يأبهون حتى بمعرفة تلك الأجزاء من العالم التي تتأثر تأثرا عميقا بقراراتهم. هذا النوع من الجهل العنيد والمقصود يعد جزءا من الفشل في تحمل المسؤولية الشخصية عن المضامين البعيدة المدى لسياساتهم. فعدم الاهتمام بالمعرفة هو تعبير توكيدي عن الإنكار.

هنالك دافع قوي لإنكار الجوانب المروعة والمشؤومة من تاريخ الولايات المتحدة تمثله المسيحانية المتأصلة في «التجربة الأمريكية». ومثلما ناقشنا في الفصل الأول، فإن الرسالة المقدسة تجعل رسلها «أخيارا» يتأصل فيهم الصلاح (انظر بيان الرئيس بوش الوارد في بداية هذا الفصل)؛ ويتضمن هذا الخيرُ والصلاحُ البراءةَ. ولربما تكون الأفعال التي ترتكب في المسعى لإنجاز هذه المهمة المقدسة «فوضوية»، من المؤكد أن الأخطاء يتعذر تجنبها. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد شيء اسمه ذنب مدمج أو وطني. ومثلما ناقشنا في الفصل السابق، تتضمن أسطورة البطل الأمريكي الخارق موقفا يتجاوز القوانين التي تحكم المجتمعات المحلية العادية. البطل الخارق يتصرف باسم «حقه» المتفوق الجواني ومن ثم لا يمكن وقفه بواسطة الهواجس المشروعة لـ«الخاسرين»، أو توجس أولئك الذين

يصرون على التمايزات والإجراءات القانونية. تضع هذه البنية الأسطورية البطل خارج نطاق المعضلة الإنسانية، معضلة الصواب والخطأ. فهو يظل بريئا، بغض النظر عن العنف الذي ربما «تحتاج» إليه أفعاله. تعد هذه البنية أيضا شكلا من أشكال الإنكار. فهي تعبر عن الاعتقاد الموهوم بأن السلوك «البطولي الخارق» يمكن أن يظل إلى الأبد نقيا وطاهرا من دنس وفساد الفوضى الدنيوية. المسؤولون عن الشؤون القانونية في البيت الأبيض، في بحثهم عن طريق لتفادي أي محاسبة أو مسؤولية جنائية للرئيس بسبب الموافقة على ممارسات التعذيب التي تنتهك القوانين والتشريعات الأمريكية، عبروا عن المسألة كالتالي: «في ضوء صلاحية الرئيس الكاملة وسلطته فيما يتعلق بإدارة الحرب، لا يوجد قانون جنائي ينتهك سلطة الرئيس المطلقة في مثل هذه المجالات»[14]. في هذه البنية، يكون البطل فعلا فوق القانون - البشري أو الإلهي.

الوجه الآخر لهذه البراءة المسيحانية يشير إلى وجوب لوم الأعداء، الضحايا، على دمهم المسفوك. هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في طريق «الحملة» المقدسة من أجل الحرية والتقدم، يمثلون «قوى الظلام»، حتى وإن لم ينتموا إلى «محور الشر». والبنية الأسطورية التي تسبغ البراءة على البطل الخارق تضع مسؤولية التضحيات على عاتق الأعداء والخصوم.

يجد هذا الإطار الأسطوري من الإنكار تسويغه الميتافيزيقي في سيناريوهات نهاية الزمان التي تناولناها في الفصل الثاني. فحالما توضع الشؤون الدنيوية ضمن إطار الحرب النهائية بين المسيح والمسيح الدجال، تنتفي الحاجة إلى محاسبة اللاعبين التاريخيين على سيئاتهم. وتصبح المحاسبة الختامية في أيدي القوى الغيبية الميتافيزيقية. أما «تأويل الإنكار»

فيكتسب ضرورته العاجلة والملحة من التوتر بين وعد البراءة المأمول وواقع الفشل المعيوش. وفي الحقيقة، كلما تعاظم الزعم بالطيبة والصلاح والخير، زاد إلحاح الحاجة إلى «محو» ذكريات الأخطاء والشرور. آلية عمل هذه «الحاجة» وصفها كريغ ميتشل وروبرت ليفتون في كتابهما «هيروشيما في أمريكا: خمسون سنة من الإنكار»[15]. الدراسة استمدت إلهامها من الطريقة التي جرى فيها رسميا كبت ومنع إقامة معهد سميثونيان لمعرض في عام 1995 بمناسبة الذكرى الخمسين لإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. خطة المعهد الأصلية لم تقتصر على عرض الطائرة (اينولا غاي) التي حملت القنبلة الذرية إلى المدينة اليابانية، والوثائق المتصلة بهذه الرحلة المشؤومة فقط. بل أراد المنظمون توضيح تأثيرات القنبلة في بؤرة الدمار؛ بكلمات أخرى، أرادوا تقديم صور مروعة للتدمير والمعاناة الإنسانية لليابانيين.

تدخلت جمعيات المحاربين القدماء والعناصر النافذة في إدارة كلينتون[16] لضمان عدم تنظيم نشاطات المعرض كما خطط لها.

يقول ليفتون وميتشيل:

> منذ بداية العصر الذري، لم تعرض على الأمريكيين التأثيرات الإنسانية للقنبلة. وهذا ما عزز المعارضة النفسية لفهم ومعرفة الرعب في هيروشيما. بعد خمسين سنة تقريبا، عادت الدوافع نفسها لتفعل فعلها في الجدل حول معرض سميثونيان. أزال المنظمون من المعرض - استجابة للضغوط - كل صورة تظهر القتلى أو المصابين بجراح خطرة من المدنيين اليابانيين. هنالك إحجام ما يزال قويا حتى اليوم عن مواجهة

ما فعلته أمريكا، أو تبريره بطريقة مباشرة، بل إن الأمريكيين يتمنون أن تختفي المسألة برمتها[17].

هذا المزيج من الإحجام وتبرئة الذات والتفكير المتعلل بالأماني هو السمة المميزة للإنكار. ويقدم ميتشيل وليفتون الحجة على أن هيروشيما تشكل هاجسا مسيطرا وحاضرا لأنها تذكر الأمريكيين بمعضلتهم العميقة الغور: الأمة الفخورة بخيرها وصلاحها وطيبتها ارتكبت جريمة غير مسبوقة في التاريخ، جريمة استخدمت أسلحة «الدمار الشامل» لذبح مئات الآلاف من المدنيين اليابانيين العزل. يتابع ليفتون وميتشيل:

فعلنا شيئا يبدو أنه يعرض العالم برمته للخطر. مشاعر اتهام الذات هذه تصبح مؤلمة أيضا نتيجة إحساسنا بأننا شعب خير وصالح على نحو خاص، شعب يعيش دوما في الحقيقة ببركة الله. هذه الصورة الذاتية الوطنية، مهما كانت خداعة، تثير آليا أسئلة تتعلق بالخير والشر: «إذا كنا قد ناضلنا لإقامة مملكة النعيم على الأرض، فقد كنا مستعدين لاستعارة أدواتنا من مملكة الجحيم»، كما قال أحد المراقبين. ولذلك، فإن زعمنا بالفضيلة يمكن أن يسهم بشعور الانحطاط الروحي، الذي يتفاقم عند إدراك عجز زعمائنا السياسيين والدينيين عن مساعدتنا على النظر في المسائل الأخلاقية المظلمة[18].

بالنسبة لروبرت ليفتون المتخصص في علم النفس، فإن أكثر تعبيرات الإنكار إثارة للقلق حقيقة أن القوة الفتاكة للقنبلة النووية يمكن تحويلها، وحولت فعلا، إلى موضوع للرغبة ونالت إعجابا شديدا كأداة للخلاص.

في تأويل الإنكار، يصبح التدمير «حلا» نهائيا وإطلاقيا: فهو يعني تبني القنبلة بسبب قدرتها المهلكة الفتاكة، وتبجيلها بسبب قدرتها على إبادة كل شيء عند هذه نقطة يمكن دمج سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية مع صور الدمار النووي؛ ويصبح أشد ما يرعب الناس أكثر ما يرغبون به ويطلبونه.

من أجل نعمة الله ورحمته: التذكر العميق

«لماذا يكرهوننا؟». هذا هو السؤال الذي أحاول الإجابة عنه. الملاحظة الأولى تشير إلى أن كل جريمة كبرى تنتج تاريخا مزدوجا، واحدا لكبت الذنب/العار/الندم، وآخر للإذلال المتشبث بالذاكرة والجراح التي لا تندمل. أدى ذلك إلى فكرة أن «التواريخ» تنتج «تأويلاتها» الخاصة بها، أي عملية تفسير تفرز ما سمي أيضا بـ«روايتها السردية» المحددة. لهذا السبب تحيك الأسر حكايات خاصة عن الجراح التي أصابتها. وترسخ الأمم خرافات وأساطير معقدة عن الأحداث التي وقعت لها قبل قرون. على سبيل المثال، في العملية الطويلة للتفسير التاريخي، كما ذكرت آنفا، خلق الصرب أسطورة التضحية الوطنية بأنفسهم اعتمادا على حدث وقع قبل أكثر من ستة قرون: معركة كوسوفو (1389)، حيث هزم الجيش الصربي أمام الجيوش العثمانية الزاحفة. إذ عدوا أنفسهم المدافعين عن أوروبا المسيحية، التي لم ترد الجميل لهم أبدا. قابلت أشخاصا في ايرلندا تحدثوا إلي عما فعله اوليفر كرومويل «بنا»، كأنما حدث ذلك أمس (غزا كرومويل ايرلندا عام 1649!). هذا تأويل للإذلال والمهانة، والشكل المقارن منه يمكن العثور عليه في البلدان العربية، حيث يفسر المظلومون

الانحطاط المستمر للإمبراطورية الإسلامية التي كانت عظيمة ذات يوم بوصفه شيئا حدث نتيجة القوى «الصليبية» الخارجية وحدها.

من ناحية أخرى، أعتقد أن صناع الأسطورة في أمريكا استطاعوا تطوير تأويل للإنكار، يركز على نهوض أمريكا المتعذر وقفه إلى مصاف القوة العظمى العالمية، في حين يحاول تجاهل العنف الذي ساعدها لاكتساب هذه المكانة. كلا النوعين من التأويل يؤمثل ذكريات انتقائية. ومع أن ذلك قد يبدو أكاديميا، إلا أنه وثيق الصلة بالطرق التي تستخدمها الشعوب والأمم للتفكير والاتصال بعضها ببعض. فحتى حين نميز بين تأويل الإذلال وتأويل الإنكار، نحتاج إلى إدراك أن النوعين يظلان جزءا من السلسلة التي تربط بعض الأمم برباط من العداء والخصومة. وهي تعيد في الحقيقة بناء وتقوية الروابط فيما بينها. وبقدر ما يرغب الجلادون والضحايا في الاستقلال بعضهم عن بعض، فإن هذه «السلسلة» تحاصرهم في عناق مرعب ـ ومهلك في كثير من الأحيان.

إذن، يديم التذكر الانتقائي ويمكّن عملية مستمرة من «التقطيع». إذ يشكل الشك والريبة والعداء وانعدام الثقة البيئة البدائية التي تسمم باستمرار العلاقات بين البلاد المتشبثة بتفسيراتها الخاصة للتاريخ. على سبيل المثال، بقيت العلاقات بين ايرلندا وبريطانيا متوترة طوال عقود من السنين: فمع أن كلا منهما عضو في الاتحاد الأوروبي، إلا أن العداوات والأحكام المسبقة القديمة العهد لم تختف أبدا. المثال الآخر يجسده الوضع في يوغسلافيا السابقة. فمع أن هذا البلد المؤلف من قوميات واثنيات مختلفة بقي دولة موحدة منذ عام 1946 حتى عام 1991 واستطاع كبت مشاعر الكراهية التاريخية؛ إلا أنها تفجرت من

الداخل حين انقسمت يوغسلافيا إلى جمهوريات انفصالية بين عامي 1991 ـ 1992. والآن يتطلب الأمر ضغطا دوليا هائلا لإيجاد مساحة (محفوفة بالخطر) يمكن فيها للصرب والكروات والبوسنيين والألبان العيش جنبا إلى جنب. فتاريخهم القائم على «التقطيع» يمنعهم من العيش بسلام معا.

أشير إلى هذه الأمثلة الأوروبية لكي أبين أن مشاعر الكره والاستياء التي يظهرها العديد من الناس في شتى أنحاء العالم للولايات المتحدة اليوم ليست ظاهرة فريدة على الإطلاق. لكنها منذرة بالخطر، لأن القوة التصادمية الكامنة في مثل عمليات «التقطيع» هذه على قدر كبير من العنف والشدة.

إذن، لماذا هذا القدر من الكراهية؟ برأيي أننا حين نعاين المكونات التأويلية للإذلال والإنكار، نشعر «بمنطق سوء الفهم» الذي يحافظ على عملية «التقطيع» وقواها الجاذبة حية ونشيطة. هذا المنطق يلون كل شيء يسمعه الناس في الشرق الأوسط فيما يتعلق بمكانتهم كشعب. وهكذا، حين يسمعون الرئيس بوش يتحدث عن «الديمقراطية»، يفهمون أنها تعني قمعهم واضطهادهم. وحين يتكلم عن «الحرية» يفهمون أنها تعني معتقل أبو غريب. في منطق سوء الفهم، تكتسب الكلمات والمفاهيم مداليل مختلفة ـ إن لم تكن معاكسة ـ تعبر عن تاريخ الآمال أو المظالم المرتبط بالعلاقة.

يصدق ذلك على الولايات المتحدة أيضا: فتأويل الإنكار يمنعها من رؤية تأثير قوتها في الشعوب الضعيفة أو الأمم العاجزة، ويحول بينها وبين الشعور بحاجاتها وأهدافها المحددة. ويفاقم التناقضات والتشويهات في الأجندة السياسية. لذلك، فإن من المنطقي الافتراض أنها شعرت

بـ«التقطيع» نتيجة هجمات الحادي عشر من سبتمبر: وارتكز هذا الشعور على الوهم المريح بالعيش في حيز منيع لا يمكن اختراقه يقع خارج وفوق باقي البشر. من الواضح أننا لا نتحدث هنا عن الكلمات أو المفاهيم. فـ«منطق سوء الفهم» يؤدي إلى المعلومات المغلوطة والأفعال الخاطئة. ومقالة الرئيس السابق جيمي كارتر في صحيفة لوس أنجلوس تايمز التي حملت عنوان «هذه ليست أمريكا الحقيقية» برهان بليغ على التناقض المتنامي بين الصورة الذاتية التقليدية لأمريكا بوصفها «المدافع الذي لا يلين عن السلام والحرية وحقوق الإنسان»، وبين تجاهل إدارة بوش لمعاهدة جنيف لعام 1949 فيما يتعلق بأسرى الحرب، فضلا على تأييدها العلني للتعذيب في العراق وأفغانستان وغوانتانامو وغيرها[20]. يقدم كارتر المزيد من الأمثلة التي لا نحتاج إلى تكرارها هنا. أما تصريحه المعبر عن الهم والكرب فقد أكدته ملاحظة للفيلسوف الاجتماعي الألماني الشهير يورغن هابرماس: «السلطة المعيارية لأمريكا في حالة من الخراب والفوضى العارمة»[21].

النقطة التي أريد توكيدها هنا هي ضرورة عدم التقليل من شأن عمليات «التقطيع» القديمة العهد. فقوتها التدميرية تفاقم العنف الذي يربط الجلادين والضحايا، و«الرابحين» و«الخاسرين» معا. وآخر تمظهراتها الحرب العالمية على الإرهاب: إذ تدرك أعداد متزايدة من الناس أن هذه «الحرب» لا يمكن كسبها؛ فهي تؤدي إلى طريق مسدود بالمعنى الدقيق للكلمة.

ما الذي يمكن فعله لمغالبة عمليات «التقطيع» والبتر المدمرة للذات؟ أعتقد أن الجواب يكمن في التذكر العميق[22]. ولسوف أوضح ذلك بالقول

إنني أعني بالتذكر «التوصيل»، أو إعادة وصل الأعضاء المقطعة والمبتورة (أي عملية معاكسة لـ«التقطيع»). فالتذكر أكثر من مجرد دراسة الأحداث الماضية؛ فهو يتعلق بوصل أنفسنا بالأحداث والعمليات التي كونت الظروف التي نعيش فيها حاليا. والتذكر العميق يتضمن بالطبع إضافة الجوانب المظلمة من تاريخنا. نحن بحاجة إلى النظر مباشرة في تلك الأشياء التي نرغب في نسيانها، لأنها بالضبط الجوانب التي لا تلائم الصورة التي نريدها عن أنفسنا. الجرائم والمذابح وأنظمة القمع والازدراء - نحتاج إلى تذكر («وصل») هذه الجوانب الفظيعة والمشؤومة من ماضينا مع الجوانب البناءة والمثمرة من حياتنا وتاريخنا الوطني.

لست مهتما بجلد الذات؛ بل أبحث عن استراتيجيات للذاكرة تصلنا بطريقة بناءة مع ميراثنا المشرق والمظلم. إن أخذ التذكر العميق على محمل الجد سوف يمكننا من ضم الآخرين، الأجانب والغرباء، وحتى الأعداء، وإدراك قواهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم. التذكر والوصل مرتبطان معا: الماضي يصبح جزءا لا يتجزأ من ظرفنا الحاضر. هذه العملية ستتيح لنا مغالبة عمليات التقطيع والبتر المعيقة التي توقع الفوضى والاضطراب. وفي حين أن الإنكار يكبل الناس بالماضي، فإن التذكر العميق طريقة، وإن مؤلمة، لتحريرهم من هذا الأسر للتوصل إلى إدراك واع أكثر صدقا وأمانة بالآخر وبالذات.

أعتقد أن من العدل القول إن بلدي انخرط في هذا التذكر العميق. فقد حاولت ألمانيا جاهدة الاعتراف بكل شجاعة بجرائم هتلر والجيش النازي، وفظائع المحرقة[23]. أنا لا أزعم أن الألمان انخرطوا في هذه

العملية بالإجماع، أو أنها اكتملت. في الحقيقة، لا توجد نهاية للتذكر وإعادة وصل المبتور؛ فهي مهمة مستمرة ومتواصلة. هذا هو السياق الذي أنطلق منه لاقتراح أن مثل هذا الفهم للتذكر العميق يمكن أن يطبق على الولايات المتحدة. اقتراحي يردد أصداء سؤال دونالد شريفر: «هل توجد صيغة لموالفة مشاعر العار مع الفخر لتغل وطنية صادقة؟»(24).

ملاحظاتي في الفصول الثلاثة الأولى فيما يتعلق بالمسيحانية الأمريكية، وتشويهاتها وتحريفاتها الرؤيوية، وتسطيحها البطولي الخارق، قادتني إلى استنتاج وجود حاجة إلى طريقة لوصل الشعور بالعظمة مع الذنب، والتقدم والنجاح مع التراجع والفشل. فمن الممكن أن نرتع في نعمة الله ورحمته وبركته، وفي الوقت ذاته نواجه بأمانة الشر الذي ارتكب. المزاعم المسيحانية بالخير والطيبة يجب مصالحتها مع الفظائع المرتكبة. قد يبدو ذلك مستحيلا. لكن جوابي كمسيحي هو أن العيش في نعمة الله ورحمته وارتكاب الذنوب والمعاصي ليس أمرا ممكنا فقط بل محتوما يتعذر اجتنابه في الحقيقة. هذه هي القوة الحقيقية للإيمان المسيحي: رحمة الله واسعة إلى حد القبول بخطايا البشر ومنحهم الفرصة لتغيير أساليبهم. هذا هو معنى التوبة والهداية. هنالك قول مأثور لأحد الحاخامات القدماء يعبر عن ذلك: «قبل أن يخلق الله الخليفة خلق التغيير والهداية». بكلمات أخرى، إمكانية تغيير المدركات وتبديل أنماط السلوك، والتوبة عن أعمال الشر، والسعي وراء الطرق الكفيلة بتخفيف أثرها المدمر - كل ذلك جزء مدمج في خلق الله. أما الجبرية والقدر المحتوم فيتعارضان مع رحمة الله بعباده ونعمته التي يغمرهم بها؛ البداية الجديدة ممكنة. ولا يوجد طريق ضيق مسدود يمنعنا من الانعطاف.

لأولئك الذين يجدون ذلك كله ادعاء مغاليا في التقوى، سوف أقتبس من عالم النفس (العلماني) روبرت جاي ليفتون، الفقرة الآتية:

> البديل الأفضل هو قبول حد معين من الغموض وعدم اليقين، درجة معينة من العناصر المحتومة التي تسبب التشوش والتناقض، فيما يتعلق بالأحداث التاريخية الجسام أو شؤون التجربة الشخصية.. كثيرا ما أنكر احتمال مثل هذا القبول بالغموض لأن القوى العظمى، مثل الأمم، والشعوب، لا تشعر بالارتياح معه.. الغموض في الحقيقة أمر مركزي للوظيفة البشرية، تقر به وتوفره المؤسسات والممارسات الثقافية في كل مكان[25].

لكن اللغة العلمانية التي يستخدمها عالم النفس ليست كافية. فـ«الغموض» ليس كافيا للتعبير عن المعضلة الأخلاقية العميقة التي تواجه البشر والأمم والقوى الكبرى حين تجابه حقيقة أن الشر المتعمد قد وقع. هذا واقع حقيقي كثيرا ما خلط مع «الأخطاء» أو «الأغلاط». لكن في حين أن الأخطاء ترتكب عن غير قصد، فإن الشر نتاج عمل واع ومقصود وخطة مرسومة. ومن المؤكد أن للأخطاء تأثيرات كارثية محتملة، لكن تأثيرها الأخلاقي مختلف عن تأثير الأعمال الشريرة. لهذا الشر المتعمد والمقصود استخدمت تعبير «الذنب» في مناسبات متنوعة. لكن ليس من النادر سماع مواطني الولايات المتحدة يطرحون مثل هذه الأسئلة الساخطة: «كيف أكون مذنبا بجرائم الإبادة الجماعية التي استهدفت شعوب وقبائل سكان أمريكا الأصليين؟ أو الرق؟ ذلك كله حدث قبل عقود أو قرون من مولدي! كيف يمكن أن أحمل مسؤولية الفتوحات التوسعية الإمبريالية للولايات

المتحدة في الأراضي الأجنبية؟ فإذا ارتكبت فظائع كيف لي أن أعرف ـ أو ألام؟ لذلك، من المناسب تقدم تعليق شارح هنا.

في عام 1946، بعد سنة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، حين بدأت تتكشف الأعمال الإجرامية الفظيعة التي ارتكبت في الحقبة النازية، استهل الفيلسوف الألماني كارل يسبرز عمله التدريسي في جامعة هايدلبرغ بمحاضرة تحولت إلى كتاب بعنوان «مسألة الذنب الألماني»(26). انتشر الكتاب على نطاق واسع، واقترح يسبرز فيه أن نميز بين أربعة نماذج مختلفة من الذنب.

الأول هو الذنب الناتج عن ارتكاب جنح جنائية؛ وندعوه الذنب الجنائي. من المقبول عموما أن المكان المناسب للتعامل مع هذا النوع من الذنب هو المحاكم. هنالك صعوبات مستمرة فيما يتعلق بفكرة «الذنب الجنائي» وهل يطبق على الجرائم السياسية، مثل الحروب أو المذابح أو النشاط السري، مثل التعذيب. لذلك، حوكم الزعماء النازيون البارزون أمام محكمة نورمبرغ، حيث اتهموا وأدينوا بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وسواها من الجرائم ذات الصلة، أما نتائج هذه الإجراءات القضائية فبدت طوال عقود من السنين طريقة مرضية لمحاسبة البشر على أعمالهم. ومن ثم، أنشئت محكمة الجنايات الدولية بعد عملية تحضيرية صعبة في لاهاي (آذار/ مارس 2003)، كمنتدى دولي يحاكم أمامه المسؤولون عن ارتكاب جرائم مماثلة. لكن حتى الآن، رفضت الولايات المتحدة الانضمام إلى هذه المحكمة، على الرغم من أن القضاة الأمريكيين كانوا الأبرز في محاكمات نورمبرغ، والخبراء القانونيين الأمريكيين لعبوا دورا رائدا في وضع القانون الدولي. رفض التعاون هذا يعده الكثيرون في المجتمع الدولي

إشارة دلالية على أن الولايات المتحدة تغتصب «الحق» في استثناء نفسها من الإطار المعياري للقانون الدولي.

النمط الثاني من الذنب برأي يسبرز هو الذنب السياسي. وهو يشير إلى أفعال السياسيين التي يحمل المواطنون المسؤولية عنها. في هذه الفئة، يمكن وضع العقوبات المفروضة على شعب كطريقة لمعاقبة قادته وزعمائه. العقوبات الدولية التي فرضت على النظام العنصري في جنوب إفريقية أو على النظام الديكتاتوري لصدام حسين أو فيدل كاسترو، أدت إلى معاناة الشعب بسبب جرائم ارتكبها زعماؤه.

الفئة الثالثة برأي يسبر يمثلها الذنب الأخلاقي. «المحكمة» التي تنطق الحكم في هذه الفئة هي ضمير كل فرد.

أخيرا، يتحدث يسبرز عن الذنب الميتافيزيقي الماورائي. هذا المفهوم يصف المسؤولية المشتركة لكل إنسان عن الشر الذي ارتكب. و«المحكمة» و«الحاكم» الوحيد الذي يمكن أن يتعامل مع هذا الذنب هو الله سبحانه وتعالى.

هل يمكن تطبيق حجة يسبرز على الولايات المتحدة؟ عنوان الترجمة الإنكليزية لكتابه يقترح على ما يبدو أن يسبرز يشير حصرا إلى «الذنب الألماني». وفي الحقيقة، تحدث يسبرز عن «مسألة الذنب». وعلى الرغم من أن السياق المباشر لتأملاته كان الحقبة النازية (1933 - 1945)، إلا أن من الواضح لي أنه كان يتعامل مع الذنب كظرف إنساني عام. وإلا، يجب أن نستنتج أن الذنب شيء لا يمكن تطبيقه إلا على «الخاسرين» لا على «الرابحين». أعتقد أن فكرة يسبرز عن الذنب يمكن تطبيقها على كل الشر البشري، بغض النظر عن السياقات والذرائع المستخدمة لتأطيره.

لا أقترح وجود تشابه بين الولايات المتحدة وألمانيا النازية. إذ يبقى ذنب ألمانيا كما هو - جريمة مروعة لا مثيل لها. في الوقت ذاته، يبقى ذنب الولايات المتحدة كما هو أيضا: مكتوب ضمن تاريخ الولايات المتحدة كجانب شبحي ظليل لارتقائها إلى مرتبة التفوق على القوى العسكرية الكبرى. نحن الألمان بحاجة إلى مواجهة ذنبنا التاريخي في كل فئة من الفئات الأربع التي اقترحها هابرماس. لقد فعلنا ذلك في الحقيقة بدرجات متفاوتة - مضطرين بالطبع بسبب حقيقة أن ألمانيا هي الخاسر الأكبر في الحرب العالمية الثانية. عبء الهزيمة أجبرنا على الانخراط في هذا العمل بطريقة أعمق من الأمم الأخرى التي اضطرت لذلك. لكن أود الإصرار على أن مواجهة الذنب يجب أن تبقى مستقلة عن النصر أو الهزيمة. فهي أمر يتعلق بالأمانة الأخلاقية التي تقع في صميم إنسانيتنا. ولذلك فإن كل مواطن في الولايات المتحدة، مثله مثل جميع المواطنين في البلدان الأخرى، بحاجة إلى مواجهة ذاتية مع الذنب المتعلق بالأفعال الخاطئة والآثام التي ارتكبت.

وفقا لتصنيفات يسبرز، من الواضح أنه لا يمكن تحميل المواطن الأمريكي اليوم الذنب الجنائي على الفظائع التي ارتكبها أسلافه. لكن جميع مواطني الولايات المتحدة مسؤولون سياسيا وأخلاقيا عن التأثيرات البعيدة المدى لشرور الماضي التي سمحوا ببقائها. مسألة الذنب الميتافيزيقي الماورائي من نظام مختلف، وسيرد الناس عليها وفقا لتوجهاتهم الدينية. لكن أريد أن أضيف أن مواقف كتاب سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية تعبر عن الإنكار. فالمؤمن بنهاية الزمن يضع المسؤولية النهائية للشر في العالم على عاتق المسيح الدجال ومن ثم يعفي قلة أنقذت (أو «اصطفيت») من الناس من المحاسبة الدنيوية.

على المستوى الروحاني، تخاطب فكرة الذنب جميع البشر الذين يشتركون في الصفات والسمات الأساسية ذاتها: فهي تذكرنا جميعا بضعفنا الجوهري وسهولة استسلامنا للغواية. هذا التفكير التأملي ليس نظرة تشاؤمية وتلذذا بالضعف المتأصل في البشر بدعوته المغرية إلى العطالة والكسل. بل على العكس، فهو يجسد اتصالا مؤسسا على الأمانة والصدق، وبذلك يفتح السبل أمام مزيد من العلاقات التي يمكن أن يعول عليها.

هل يمكن وقف العمليات المدمرة لـ«التقطيع» والبتر؟ أو بأسلوب أكثر إيجابية، هل نستطيع الانتقال من التأويل التصادمي للإنكار والإذلال إلى التذكر العميق الذي يمكننا من تمييز الحقيقة المتعلقة بنا (وبالأعداء داخلنا) وبأعدائنا (وبأنفسنا داخل الأعداء)؟ أنا مقتنع بأن بمقدورنا القيام بذلك. وهذه القناعة مرتكزة على افتراض أن كل ما نفعله كأفراد أو كأمم يجب أن يبدأ من الاعتراف بأننا كلٌ واحد في الجوهر، أعضاء في العائلة الإنسانية. وهذا سيكون، ويجب أن يكون، عنصرا كابحا لـ«الرسالات والمهمات» و«الحظوظ والثروات» التي ستغري الشعوب والأمم بالسعي وراءها إلى الأبد.

هوامش

1- انظر:

George W. Bush, «President Holds Prime Time News Conference, October 11, 2001» (White House release: http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/10/7-20011011.html [accessed Oct. 17, 2005]).

2- انظر تفسير ليكوف النقدي لـ«نموذج الأب الصارم»، والرابطة بين الصلاح والنجاح ونقلها إلى المستوى السياسي:

George Lakeoff, Don't Think of an Elephant! Know Your Values and Frame the Debate (White River Junction, VT: Chelsea Green Publishing, 2004), pp. 6ff.

3- انظر:

David Frum and Richard Perle, An End to Evil: How to Win the War on Terror (New York: Random House, 2003), p. 246.

4- Frum and Perle, An End to Evil, p. 275.

5- Frum and Perle, An End to Evil, p. 236.

6- ثمة مصادر عديدة تناولت التمرد في الفليبين ودور المناهضين للاستعمار في معارضته، منها مثلا:

Walter LaFeber, The American Age: U.S. Foreign Policy at Home and Abroad, 1750 to Present New York: W. W. Norton, 1989).

7- انظر:

«NationalStrategyforCombatingTerrorism»(WhiteHouse Press release, Feb. 2003: http://www.whitehouse.gov/news/releases/200302//counter_terrorism/introduction.pdf[accessed Sept. 28, 2005]).

8- وصفت هذا العمليات بمزيد من التفصيل في:

Muller-Fahrenholz, The Art of Forgiveness: Theological Reflections on Healing and Reconciliation (Geneva: WCC Publications, 1997).

9-استخدم تعبير «الشعور» لأنه يشير إلى «المستوى الجواني» الذي تتمركز فيه وتتغذى الدوافع القوية مثلا الكره. التذكر أشد ارتباطا بالشعور منه بالتفكير، وبالغريزة اللامتبلرة من الرؤية النقدية.

10- انظر:

Robert L. Zangrando, «Lynching,» in The Reader's CompaniontoAmericanHistory,EricFonerandJohnA.Garraty, eds. (New York: Houghton Mifflin, 1991).

11-JosephS.Tuman,CommunicationTerror(ThousandOaks,CA: Sage Publications, 1998), p. 58.

12- انظر:

Amin Maalouf, The Crusades Through Arab Eyes (New York: Schocken, 1984), p. XX.

13-صعوبة التوصل إلى تقويم نزيه وصادق للشرور المخبأة في ماضي الولايات المتحدة تتضح في كتاب دونالد شريفر. انظر:

HonestPatriots:LovingaCountryEnoughtoRememberIts Misdeeds (New York: Oxford University Press, 2004).

14- انظر:

«Memo for Alberto O. Gonzales, Counsel to the President, Aug. 1, 2002.» Posted by PBS/Frontline:

http://news.findlaw.com/hdocs/docs/doj/bybee80102mem.pdf

15- Robert Jay Lifton and Greg Mitchell, Hiroshima in America: Fifty Years of Denial (New York: G. P. Putman, 1995).

16- Lifton and Mitchell, Hiroshima, pp. 288, 295.

17- Lifton and Mitchell, Hiroshima, p. xv.

18- Lifton and Mitchell, Hiroshima, p. 309.

19- Lifton has called this faith «nuclearism»;

انظر:

Robert J. Lifton and Richard Falk, Indefensible Weapons: The Political and Psychological Case Against Nuclearism (New York: Basic Books, 1982).

انظر أيضا:

Robert Jay Lifton, The Broken Connection: On Death and the Continuity of Life (New York: Basic Books, 1983), pp. 369 - 87; and

Lifton, Superpower Syndrome: America's Apocalyptic Confrontation with the World (New York: Thunder's Mouth Press/Nation Books, 2003).

20- Jimmy Carter, «This Isn't the Real America,» Los Angeles Times Nov. 14, 2005).

انظر كتاب كارتر الأخير:

Our Endangered Values: America's Moral Crisis (New York: Simon & Schuster, 2005).

21- انظر:

Jurgen Habermas, in the Frankfurter Allgemeine Zeitung, Apri. 17, 2003 (quoted by Hans-Eckehard Bahr, Erbarmen mit Amerika: Deutsche Alternativen [Berlin: Aufbau-Verlag, 2003], p. 50).

22- Muller-Fahrenholz, The Art of Forgiveness, part Two: «Deep Remembering in Politics and Public Life,» pp. 42 - 101.

23- على مدى سنين عديدة، كان يقام معرض شامل متجول حمل عنوان «جرائم الجيش النازي» زار خلالها المدن الألمانية والبلدان الأخرى أيضا. ثمة صورة أوسع عرضها دونالد شريفر في كتابه:

Honest Patriots (part 1, entitled «Germany Remembers,» pp. 15 - 61).

24- Shriver, Honest Patriots, p. 61.

25- Lifton, Superpower Syndrome, pp. 196f.

26- Karl Jasper, The Question of German Guilt (New York: Fordham University Press, 1947), published as Die Schuldfrage in Germany 1946.

من الجدير بالذكر أن يسبرز نفسه تعرض لضغوط شديدة من النازيين. فبعد عام 1937، لم يسمح له بإلقاء المحاضرات أو نشر الكتب والمقالات. وسبق تحرير الجيش الأمريكي واحتلال هايدلبرغ تهديدا تلقاه بالترحيل إلى أحد معسكرات الاعتقال.

ـ 5 ـ

الحادي عشر من سبتمبر
فرصة ضائعة

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية على البنتاغون والبرجين التوأمين، تطلب الأمر من الرئيس بوش ستة أيام فقط ليفوض إلى قيادة الجيش الأمريكي مهمة الاستعداد لشن الحرب على شبكة القاعدة ونظام طالبان في أفغانستان. الحقيقة الكاشفة أيضا أن الرئيس أصدر أمرا، تحت تأثير نائبه تشيني ووزير الدفاع رمسفيلد، بوضع سيناريوهات لحرب تشن على العراق(1). قال الكثيرون إن الحادي عشر من سبتمبر كان نقطة تحول في تاريخ الولايات المتحدة، وكانت ستصبح كذلك. لولا أن أسلوب رد إدارة بوش أبّد نمطا مألوفا ومتبعا. فعلى الرغم من أن في «الحرب على الإرهاب» بعض المكونات الجديدة المحزنة ـ «الحق» في شن ضربات عسكرية استباقية، مثلا ـ إلا أنها ليست جديدة كلية. فهي تمثل ما توقعه الإرهابيون بالضبط. فضلا على أنها تعبر، على مستوى متضخم كثيرا، عن الافتراضات المسيحانية لـ«الأمة المنقذة». و«تخليص العالم من الشر» برنامج يحمل المسيحانية الأمريكية إلى حدود قصوى متخيلة.

نقطة انطلاق جديدة:

مواطن الضعف والانكشاف أمام الخطر

هل كان ثمة بديل؟ ربما لم يتوفر. ومع ذلك، كان بالمستطاع اتخاذ مقاربة مختلفة كليا: كان من الممكن أن يمثل الحادي عشر من سبتمبر لحظة واعدة، تلك اللحظة التي يشير إليها المسيحيون بوصفها لحظة تحد وتحول حين يدعى الذين آمنوا بالدين إلى العيش معه بطريقة خلاقة. وكان بمقدور الرئيس بوش، الذي لا يتردد في الاعتراف علنا بأنه مسيحي ملتزم، أن يقود أمته بطريقة تعبر عن قابلية الدين للمصالحة والتسوية وإعادة بناء السياسة العالمية.

تحت التأثير المباشر والفوري للحادي عشر من سبتمبر، كان بمقدور كاتب خطب الرئيس أن يجعله يخاطب الأمة على النحو التالي:

أيها المواطنون

لقد أصبنا وألحقت الهجمات على البرجين التوأمين ومبنى وزارة الدفاع الأذى والضرر بكل فرد فينا. مشاعر الغضب والحنق تملأ صدورنا؛ إذ لم تتعرض بلادنا لمثل هذا الهجوم الخارجي طوال مئتي سنة.

لذلك، فإن كل شيء فينا يصرخ مطالبا بالثأر. لكن هل يجب أن نذعن لهذه الصرخة؟ إنها أسهل طريقة. وأنا واثق أنكم ستقدمون دعمكم وتأييدكم إذا حشدت جنودنا لمطاردة الإرهابيين وأولئك الذين ساعدوهم أينما اختبؤوا.

لكنني أقترح اتخاذ سبيل آخر. ربما تذهلون - أو تغضبون - لسماعه أول وهلة. إلا أنني أطلب منكم التفكير به بترو.

لقد أظهرت لنا الهجمات شيئا بحاجة إلى أن نعرفه: لدينا مواطن ضعف تعرضنا للخطر. أجل نحن بلد مفتوح ومكشوف. نحن أمة مرتبطة بباقي الأمم في شتى أنحاء العالم. لذلك، يمكن للغرباء أن يأتوا إلى بلادنا. يمكنهم أن يختطفوا طائرات ويوجهوها نحو ناطحات السحاب. بالطبع، نستطيع تحسين إجراءاتنا الأمنية. لكن حقيقة ما نعانيه من مواطن ضعف تبقى أمرا واقعا.

إن تجربة هذه الوحشية الهائلة، في لحظة المعاناة والألم، هي أيضا لحظة حقيقة انكشاف مواطن الضعف التي نشترك فيها مع الآخرين. الآن يمكننا أن نتعاطف مع الشعوب الأخرى التي عاشت ويلات الحروب الأهلية طوال سنين وحتى عقود. يمكننا الآن أن نفهم شعور الذين قصفت مدنهم وتحولت إلى أكوام من الرماد (وبعض القنابل المستخدمة نحن صنعناها وزودنا بها المعتدين). نشعر بذلك كله الآن بطريقة مكثفة وخاصة.

ما الذي يستتبع هذا النوع من المعرفة التي كلفتنا هذا القدر من الحزن؟ هل نحاول إغلاق نافذة الضعف والانكشاف أمام الخطر؟ في هذه الحالة ستتحول بلادنا إلى سجن. وسيعني ذلك خيانة ميراث نحتاج إلى احترامه مهما كان الثمن: العيش كشعب حر على أرض حرة. ونحن ننوي أن نبقيها كذلك.

وهكذا، سنقول للعالم: سوف نحاول أن نتعلم من هذا الدرس المرير. لا توجد مكانة خاصة للولايات المتحدة. نحن، مثل غيرنا من الشعوب الأخرى، ضيوف على هذا الكوكب، بشر فانون، يتصل بعضنا ببعض، ويعتمد بعضنا على بعض.

لذلك، يجب ألا نعد «أسلوب حياتنا الأمريكي» ميزة يجب الدفاع عنها بأي ثمن أمام بقية العالم، بل علينا المحافظة عليه بطريقة يمكن أن يصبح فيها أسلوب حياة للشعوب الأخرى أيضا، إذا رغبت فيه.

الطريقة التي نرى فيها أنفسنا كأمة يجب أن تتساوق مع الطرق التي تعمل عبرها الطبيعة ذاتها. طريقة تحترم تنوع الثقافات والأديان، وتحمي حقوق الشعوب كلها.

لقد أذهلنا الكره الذي كشف عن نفسه في هذه الهجمات. لكننا بحاجة إلى معاينة الأسباب التي مكنته من النمو والتفاقم. نحن بحاجة إلى العثور على إمكانيات إصلاح الظروف التي أسهمت في تخطيط وتنفيذ هذه الجرائم البشعة.

هذا يقتضي ضمنا الاعتراف «وتلك أصعب مهمة أطلبها منكم اليوم - بأن مواطن ضعفنا التي عرضتنا للخطر هي أيضا تعبير عن فشلنا في لقاء الشعوب في أصقاع العالم الأخرى بوصفنا وسطاء نزيهين نلبي احتياجاتها. علينا قبول مسؤوليتنا عن الظلم الذي يسبب هذا القدر من المعاناة والتبريح. الشر لا يكمن هناك فقط؛ بل موجود معنا وفينا أيضا.

تشبثنا زمنا طويلا بإحساسنا بالبراءة الوطنية. وها هو الآن دفين تحت أنقاض البرجين التوأمين في نيويورك.

لماذا أقترح هذا التحول في أسلوب الرد؟

لا لأننا أصبحنا جبناء فجأة، بل لأننا اكتسبنا رؤية عرفنا بها أن أمننا مرتبط بأمن جميع الشعوب. وأن سلامنا موصول بسلامها. الحرية التي نقدرها ونحترمها لا يمكن أن تبقى دون حريتها.

سوف يقول العديد منكم والغضب يملأ الصدور إننا فقدنا شجاعتنا وأذعنا للإرهابيين.

هذا ليس صحيحا.

أمريكا تبقى أقوى أمة في العالم. لكننا أقوياء بما يكفي للاعتراف بمواطن ضعفنا. نحن صادقون بما يكفي لقبول هذا التحول غير المسبوق. ومن ثم لا نسمح للإرهابيين بإملاء الرد الذي سنتخذه.

> هل هذا يعني أننا سندعهم يفلتون من العقاب؟ لا أبدا! فهم قتلة ويجب أن يحاكموا أمام محكمة دولية. نحن ندعو شعوب العالم كافة، التي شاركتنا معاناتنا، إلى مساعدتنا في كشف ومعاقبة القتلة ومساعديهم. ونظرا لأن لدينا سببا وجيها للاشتباه بأنهم مسلمون، ندعو الفقهاء المسلمين لمساعدتنا. نحتاج إلى فتوى يصدرها العلماء والزعماء المسلمون توضح أن هذه الجرائم متناقضة مع روح الإسلام. ويمكن للخبراء المسلمين مساعدتنا في إنشاء محكمة دولية نعرض أمامها دعاوينا ونقدم أدلتنا وبيناتنا.

الإرهاب واحد من الأوبئة الكبرى التي تجتاح عصرنا. نحن لا نزعم قدرتنا على استئصاله، خصوصا عبر شن الحرب عليه. لأن الشر - والإرهاب شر مستطير - لن يختفي من وجه الأرض وفقا لرغباتنا وأمانينا. سوف يبقى معنا كتهديد وإغراء لأنه موجود فينا جميعا.

هذا يوم مرير محزن. دعونا نحوله إلى يوم الحقيقة والأمانة والصدق.

ما أطلبه منكم اليوم هو مهمة ثقيلة الحمل، وهي أثقل بالتأكيد على العائلات التي فقد أحباؤها حياتهم. لكنني مقتنع بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحرير أنفسنا وغيرنا من إسار الحلقة المفرغة للعنف والعنف المضاد.

فليبارك الله أمريكا!

تبدو خطبة كهذه بعيدة الاحتمال طبعا. وما نعرفه عن طبيعة الرئيس بوش، والأهم ما نعرفه عن الفهم الذاتي لمعظم الأمريكيين، ومعظم البشر في كل مكان، يشير إلى أن مثل هذا النص يحرك قدرا هائلا من الإحباط ويحضن العنف.

لكن، حتى حين تبدو هذه «المسودة» غير واقعية، بل عبثية، الآن، فإنها لم تكن بعيدة الاحتمال كليا في أعقاب الهجمات مباشرة. كان هناك قدر كبير من مساءلة الذات. بعض المواطنين الأمريكيين أرادوا فهم من أين أتى هذا الكره؛ ولم يرغبوا في الرد العنيف. أشار العديد من الخبراء والعارفين إلى تنامي البؤس في البلدان الأفريقية والعربية بوصفه أحد أسباب الغضب والإحباط اللذين سهلا ودعما الإرهاب. وقدموا الحجة على أن تحسين الأوضاع اليائسة للعديد من البشر في البلدان التي تعمها الفوضى وتخضع لحكومات قمعية يمثل خطوة غيرية تعبر عن الاهتمام بالآخرين، ولا تتوافق مع أنبل التقاليد التراثية للشعب الأمريكي فقط، بل مع مصالح الأمة السياسية والاقتصادية أيضا. ومثلما قال أحدهم لي (وفضل عدم ذكر اسمه) بعد الحادي عشر من سبتمبر: «المفارقة في القصة أن التعاطف مع الضعفاء والجياع والمسحوقين الذي نعرفه من

الكنائس والكنس والمساجد سيصبح مفهوما بارزا في السياسة العملية والواقعية الأمريكية».

لكن الحقيقة المحزنة أن الإدارة في واشنطن لم تمنح نفسها الوقت الكافي للتفكير بالبدائل؛ ولم تسمح للشعب الأمريكي بالتفكير بالتأثيرات البعيدة المدى لسياسات الرد العنيف. فبعد مضي أقل من أسبوع على الحادي عشر من سبتمبر كانت «الحرب على الإرهاب» في طور التخطيط النهائي وعلى وشك التنفيذ. ولم تمض سنة حتى كانت إدارة بوش تروج لغزوها المحتوم للعراق أمام الشعب الأمريكي بوصفه ضرورة لا بد منها بسبب صلات صدام حسين المزعومة مع القاعدة وامتلاكه المزعوم (أيضا) لأسلحة دمار شامل. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الصفحات (تشرين الثاني / نوفمبر 2005)، يبدو توسيع هذه «الحرب» لتشمل إيران خيارا بعيد الاحتمال لكن ليس مستحيلا، وسقطت السياسة الدولية تحت سطوة الإرهاب ومحاربة الإرهاب، في حين انتشر التفاوت الاقتصادي والاجتماعي، وأهمل تعاظم تأثير التغير المناخي.

قد يبدو من السذاجة الإشارة إلى أن مواطن الضعف تمثل عاملا مفتاحيا في سياسة الدول[2]. ولسوف أتناول هذا المفهوم في الفصول اللاحقة. لكنني أرغب هنا في توكيد حقيقة أن مواطن الضعف لا تعد شيئا مقيتا؛ فهي قدر محتوم وجزء أساسي من الحياة ذاتها. الموتى وحدهم يتمتعون بالحصانة التامة والمناعة الكاملة (على الأقل أمام هجمات الأحياء). فنحن البشر، مع جميع الكائنات الحية الأخرى، نعيش اعتمادا على قدرتنا على الشعور والإدراك والمشاركة. ومواطن ضعفنا تجعلنا معرضين للدوافع المفيدة والضارة. وهي تمكننا من اختبار ذرى وأعماق

الحب، إضافة إلى بواعث الغضب والكره والشك. أشد ما نحتاج إليه هو أكثر ما نخاف منه. وحين نعترف بأن مواطن الضعف تصلنا مع باقي البشر أجمعين ـ بل مع المخلوقات الحية كلها ـ يمكن أن تصبح مفهوما هاديا يرشد محاولاتنا لإيجاد أنظمة للأمان. مواطن الضعف فينا هي النقطة المرجعية الجوهرية لفهمنا للمساواة والعدالة بين البشر: فمطلبنا الأساسي هو أن يكون لكل إنسان الحق في تلقي الرعاية الصحية، والعيش في ظروف آمنة، والحصول على التعليم والوظائف التي توفر مستويات معيشية لائقة، وتكوين أسرة، والعيش والموت بكرامة. إن قبول مواطن الضعف بوصفها عاملا أساسيا للشرط الإنساني يكون الركيزة المؤسسة لحقوق الإنسان وسلامة المخلوقات كافة.

الذين يريدون أن يتمتعوا بالمناعة التامة والحصانة الكاملة يجب أن يجعلوا أنفسهم غير قابلين للاختراق. وبحثهم عن المناعة الحصينة التي لا تقهر يؤدي إلى إحاطة أنفسهم بدرع ميتة من العواطف المخدرة والعطالة الفكرية. وفي حين يكبتون شعورهم بانعدام الأمان ويكبحون حاجاتهم، فإنهم يجبرون على تركيز قواهم كلها على إبعاد الأعداء الحقيقيين والمتخيلين. وهذا يؤدي إلى تبني مفاهيم مغلوطة عن الأجنبي، الآخر، وإلى إحساس مشوه بالهوية. أما العاقبة فهي تضييق قنوات الاتصال والتبادل وانحطاطها إلى مستوى المدركات الثنوية للمشكلات والأساليب التصادمية للتعامل معها.

ما علاقة هذه الاعتبارات والأفكار كلها بالحادي عشر من سبتمبر؟ لسوف أسلط الضوء على جانبين اثنين: أولا، فشل أمريكا الرسمية، إضافة إلى أوروبا، في فهم الرسالة الرمزية للهجمات الإرهابية؛ ثانيا، منع هذا

الفشل للولايات المتحدة وحلفائها من إدراك الفرصة التاريخية السانحة لاستبدال سياسة ردة الفعل العنيف المهيمنة بسياسات المصالحة والتسوية. بدلا من ذلك، عمقت الحرب على الإرهاب القطيعة (و«التقطيع») بين الدول الغربية والعالم العربي. وهيجت العداوات بين إسرائيل وجيرانها العرب. وخدمت كذريعة تبريرية لقمع الحكومة الروسية للشيشان. فضلا على ذلك، قسم هذا «التقطيع» المواطنين الأمريكيين بطرق غير مسبوقة، ووسع الهوة الفاصلة بين البلدان الأوروبية والولايات المتحدة. ويبدو العالم، بعد أربع سنين من الحادي عشر من سبتمبر، أقل أمانا وأمنا من حاله قبله.

الرسالة الرمزية للهجمات

صدمنا جميعا، في كل مكان من العالم، بالحالة التي وصل إليها الإرهاب الدولي من حسن التنظيم. ومن الواضح أن الهجمات على برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك وعلى مبنى البنتاغون، والمحاولة المجهضة للهجوم على البيت الأبيض (من المرجح أن الطائرة التي قامت بالرحلة رقم 93 وأسقطت قرب شانكزفيل بولاية بنسلفانيا كانت تستهدف البيت الأبيض) قد نسقت بذكاء مرعب. ولم تكن النتائج صادمة بسبب نجاعتها الفتاكة فقط بل بسبب رسالتها الرمزية.

أحسب أن البرجين التوأمين لا يجسدان معنى رمزيا خاصا لمعظم الأمريكيين؛ ولا يتمتعان بأهمية دلالية خاصة في نظر معظم الأوروبيين. فهما مجرد موقع جاذب للسياح في نيويورك؛ ومركز من العديد من المراكز الإدارية للاقتصاد المعولم باطراد بالنسبة للمصرفيين والمديرين. لكن فيما يتعلق بملايين الناس في ما يسمى بالعالم الثالث، يجسد البرجان

رمزا لـ«نظام عالمي» اقتصادي جلب عليهم الخراب والبؤس والحرمان، وأدى إلى ارتفاع معدلات وفيات أطفالهم، ونزوح ملايين اللاجئين عن أوطانهم، وانتشار الاستغلال والإذلال والمهانة.

فيما يتصل بالبنتاغون، لا يعده الكثيرون في الولايات المتحدة وأوروبا سوى مبنى ضخم خماسي الأضلاع يشبه شبكة العنكبوت، وتجسيد للقوة العسكرية. لكنه يعد للملايين في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي وآسيا والمحيط الهادي قلعة حصينة للقوة العظمى الكلية الحضور التي لا تقهر. ويمثل في نظرهم مركز القيادة للحروب الصغيرة والكبيرة، والعمليات السرية والعلنية، التي استعرضت عبرها الولايات المتحدة عضلاتها المفتولة بطرق لا يمكنهم نسيانها: في كوبا أو غواتيمالا أو نيكاراغوا، في بنما أو كولومبيا أو تشيلي - كم سببت هذه التدخلات و«حملات زعزعة الاستقرار» من دمار وخراب وإذلال وكره؟ الصور ذاتها تظهر في إفريقية. والقدرة المطلقة للبنتاغون اكتسبت أخيرا حضورا كابوسيا في البلدان العربية. ما سبب هذا القدر الهائل من الغضب والكره ليس الغليل الذي لا يرتوي للنفط، ولا الحربان المدمرتان على العراق، ولا الدعم اللامشروط لإسرائيل. بل إن تجربة الإذلال والمهانة والإضعاف والإخصاء هي التي تصرخ طلبا للثأر.

فشل معظم السياسيين في أوروبا في إدراك وتمييز هذا الجانب المعتم من تاريخ المواجهات بين القوى الغربية والبلدان العربية/الإسلامية. فهو يعود في جذوره إلى الحروب الصليبية، وإلى ما دعوته آنفا «تأويل الإذلال». تكثف واشتد واحتد خلال حقبة الاستعمار الإنكليزي والفرنسي؛ ثم تعمق أخيرا بسبب دعم الولايات المتحدة المفتوح مثلا للحكومات الفاسدة. تاريخ

الإذلال والمهانة هذا أضعف الإحساس بالشرف والكرامة لدى العديد من المسلمين رجالا ونساء.

والآن، انظروا، ها قد تهاوى البرجان! والبنتاغون، القلعة الحصينة التي لا تخترق، أصيب في مقتل. من المؤكد أن الناس في شتى أرجاء العالم حزنوا على الأبرياء الذين قضوا في الكارثة، وتعاطفوا معهم ومع عائلاتهم لأنهم يعرفون معنى أن تكون مكشوفا وضعيفا ومعرضا للتفجيرات والمذابح. لكن في الوقت ذاته، شعر الكثيرون منهم برضى خفي وسرور مكتوم. فقد عانى الأمريكيون الجبابرة، المتعالون المستكبرون، ولو مرة واحدة ما عانوه مرارا وتكرارا. ما أحسوا به يمكن تلخيصه بعبارة قاسية: الهجمات أصابت الأفراد الأبرياء، لكنها أصابت أيضا أمة ليست بريئة من استخدام قوتها وجبروتها.

من منظور هؤلاء الذين تعرضوا للإذلال والمهانة من الغرب - خصوصا الولايات المتحدة - لم تكن الهجمات على البنتاغون والبرجين التوأمين إعلان حرب ولا بداية «حقبة جديدة»؛ فهي ليست أكثر من استمرار للحرب اليومية المتواصلة التي كانوا ضحاياها منذ وقت طويل. وبرأيهم، فإن «الحرب المحدودة» التي زعزعت استقرار حياتهم عادت إلى المكان الذي انطلقت منه. فقد أرسلت الولايات المتحدة، مرارا وتكرارا، جنودها من مشاة البحرية ليخوضوا حروبها. والآن، لأول مرة، عاد هذا العنف الإجرامي ليضرب مراكز القوة الأمريكية، ويشاهده العالم كله على شاشة التلفزيون.

مثل هذا الإدراك لجريمة الحادي عشر من سبتمبر يصدم الأوروبيين، ويروع الأمريكيين. إذ يبدو هذا الرضى المكتوم نوعا من التشفي المقيت

الذي يجب تحريمه إزاء ثلاثة آلاف ضحية قتلوا في الهجمات. ومع ذلك، ثمة سبب مؤلم لمثل هذا الاستياء والغضب، وعلى الزعماء السياسيين في أقوى أمم الأرض التمتع بالحكمة الكافية لأخذه بعين الاعتبار. فكثيرا ما قيل إن هناك صرخة تطلب العون في كل انتحار. فأي نوع من الصرخة ظهر في هجمات الحادي عشر من سبتمبر الانتحارية؟ هذا سؤال مغث ومشؤوم إلى حد يوجب عدم ذكره. لكن ربما كان من الحكمة الإصغاء لتلك الصرخة المكتومة.

لم يرغب معظم السياسيين في أوروبا برؤية هذه الدلالة الرامزة؛ بل ركزوا أبصارهم على بعد رمزي مختلف للهجمات الإرهابية. وحين تحدث المستشار الألماني شرويدر، باسم غالبية الألمان، عن «إعلان الحرب على العالم المتحضر برمته»، لم يعبر عن سوى الاشمئزاز والرعب. وصرح زعماء البلدان الأخرى باعتراضهم واحتجاجهم بأساليب مشابهة. لكن ما هو بالضبط «إعلان الحرب» هذا، وما الذي قصده المستشار الألماني حين أشار إلى «العالم المتحضر»؟

من المؤكد أنه كان يعني الرعب الذي شعر به المواطنون المتحضرون حين واجهوا أشخاصا مستعدين للموت في سبيل قتل الآخرين. وهذا يناقض فهمنا لحرمة الحياة. فهنالك اتفاق أكيد بين جميع الشعوب المتحضرة على وجوب عدم التضحية بالنفس البريئة كوسيلة لتحقيق أي غاية، خصوصا حين يكون الدافع التطرف المتزمت المتجرد من الإنسانية. ثمة جانب آخر يستفز مشاعر الاشمئزاز والرعب تجسده حقيقة أن الطائرات تحولت، مع طاقمها وركابها، إلى قنابل ضخمة. فحضارتنا ترتكز على الحركة الآمنة والموثوقة، حيث تمثل الطائرات رموزا للموثوقية والسيطرة المتألقة. وأولئك

الذين يسافرون بالطائرات بحاجة إلى الثقة بأنهم يصلون إلى مقصدهم المرغوب، لا إلى موتهم المحتوم.

لكن فظاعة الهجمات يجب ألا تحجب عن عيون زعمائنا السياسيين الحقيقية المحزنة بأن عالمنا «المتحضر» ليس متحضرا ـ بل وحشي وهمجي ـ للأغلبية الساحقة من شعوبه. وأظهرت ردود الفعل على الحادي عشر من سبتمبر في الغرب نوعا من عمى البصيرة المنهجي. فنحن في أوروبا وأمريكا نرغب عن الاعتراف بأننا نتحمل المسؤولية الرئيسة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية غير المستقرة التي خلفت شرائح واسعة من البشر في حالة من البؤس الشديد، وتركت مناطق واسعة من الأرض تعاني تدهورا بيئيا منذرا بالخطر. والولايات المتحدة -والبلدان الأوروبية بدرجة أقل ـ مسؤولة عن حقيقة أن بمقدور الحكام الديكتاتوريين وأمراء الحرب وزعماء العصابات، ومنهم بعض العرب، امتلاك جميع الأسلحة التي يستطيعون دفع ثمنها. ودون هذه الأسلحة لن يستطيعوا قيادة الحروب الأهلية الإجرامية التي يقاتل فيها حتى الأطفال.

من زود الطالبان بالسلاح؟ من قدم الدعم والمساندة لصدام حسين أصلا؟ من هي الدولة التي ترفض التوقيع على معاهدة حظر الألغام الأرضية؟

إذن، نحن نواجه هذا السؤال: كيف تتصل هذه المواقف بالمدنية وسيادة القانون اللذين كثر الحديث عنهما في العالم الحر؟ لم تترك هجمات سبتمبر وقتا لأسئلة كهذه تتعلق بنقد الذات. هنالك حزن حقيقي يعم العالم؛ واستعداد كبير لتقديم العون والمساعدة. لكن الحزن العميق داخل الولايات المتحدة سرعان ما امتصه الغضب المنطلق من الإيمان بالتفوق

الأخلاقي للذات. الأعلام الأمريكية رفرفت حيثما التفتنا. وسؤال «لماذا يكرهوننا؟» طرح في طول البلاد وعرضها؛ لكنه كثيرا ما ترافق باستفسار ينذر بالشؤم: «كيف نعاقب كل من يظهر الكراهية لنا؟». الأجوبة الدقيقة التي احتاجت إلى تصريح منطوق اجتاحها الرعد المدوي الألفي لـ«ترنيمة معركة الجمهورية»، التي تكرر غناؤها مرارا في مناسبات ذكرى الحادي عشر من سبتمبر. وغدا إنشاد «فليبارك الله أمريكا» في ملاعب البيسبول في شتى أنحاء البلاد (وهي ممارسة ابتدأت في نيويورك بعد الحادي عشر من سبتمبر تخليدا لرجال الشرطة والإطفاء الذين قضوا في الأحداث) ثابتا دائما يسبق جميع مباريات البيسبول؛ وحقيقة ترديدها مع النشيد الوطني تعد تعبيرا آخر عن الدين المدني الأمريكي.

الاستعجال المتهور الذي حشد به الرئيس بوش الأمة لـ«الحرب على الإرهاب» يظهر انبعاث إحساس أمريكا المسيحاني بالرسالة. لم يتح لأحد الوقت الكافي للتفكير في تجربة انكشاف مواطن الضعف وهل تغل رسالة إيجابية أم لا. فقد صرخ قلب أمريكا المكلوم مطالبا بالثأر - ونال ثأره.

هذه الاستجابة للهجمات الإرهابية تفسر التآكل السريع للتأييد العالمي لاندفاع الولايات المتحدة إلى الحرب. إذ لم تمض سنة واحدة على الحادي عشر من سبتمبر حتى عمت المظاهرات الحاشدة العالم منددة بخطط إدارة بوش للذهاب إلى الحرب على العراق. وكان هذا الشك المنتشر بأمريكا واحدا من الأشياء «الجديدة» المحزنة التي أفرزها الحادي عشر من سبتمبر.

بؤرة الدمار في نيويورك

الصور المنشورة عن بؤرة الدمار في نيويورك لا تعد ولا تحصى. فقد ظلت الأطلال الكئيبة للهيكل الإسمنتي المتداعي للبرجين التوأمين على حالها طوال شهور. وسافر الرجال والنساء من كل مكان إلى نيويورك، ومنهم العديد من السياسيين، للتعبير عن حزنهم وتعاطفهم مع الذين قضوا في هذا الموقع. وفي العديد من العائلات والكنائس ـ ومنها كنيستي ـ صلى الناس من أجل العائلات المفجوعة وجمعوا التبرعات لها. وظلت صحيفة نيويورك تايمز طوال أسابيع تكتب عن كل ضحية وتحاول إعادة بناء قصتها وظروف موتها.

والآن، بعد زهاء خمس سنين، ما زال الجرح مفتوحا بين ناطحات السحاب المحيطة بما دعي بـ«بؤرة الدمار». لكن خطط بناء برج جديد تجري على قدم وساق، وسوف يكون أكثر ارتفاعا وقدرة على لفت الأنظار من البرجين التوأمين. والتصميم الذي وضعه المهندس المعماري ليبسكند سوف يترك مساحة مفتوحة لبؤرة الدمار، مساحة تخلد ذكرى الذين أُردوا هناك في الحادي عشر من سبتمبر 2001.

ما الذي سيتذكره الناس؟ ما هي وظيفة وغرض ذاك النصب التذكاري؟ هل يكون للندب والتفجع أو مسرحا لتأجيج الغضب؟ هل يوفر الحيز المطلوب لتذكر موت ثلاثة آلاف إنسان إضافة إلى البشر الآخرين الذين ماتوا ميتة مروعة في الأماكن الأخرى التي يعمها الحزن والألم؟ فضلا على ذلك كله، هل يقام نصب تذكاري في بوبال في الهند حيث قضى ستة عشر ألف إنسان نتيجة انفجار غاز سام في مصنع تملكه شركة

يونيون كاربايد الأمريكية؟ أو هل يقام نصب لتذكر الدمار الذي أحدثته الصواريخ التي أطلقها الرئيس كلينتون على مصنع الشفاء للأدوية في السودان (في آب/ أغسطس 1998)؟[3].

بكلمات أخرى، هل تؤدي طريقة تذكر الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة إلى تعزيز التراحم والتعاطف مع العديد من أشكال المعاناة التي توجع البشر في شتى أرجاء العالم؟ هل تكون شاملة بما يكفي لتضم آلام الضحايا في الأماكن الأخرى؟ أم تكون حقا حصريا مخصصا لضحايا أمريكا فقط؟ مثلما تبدو الحالة حاليا، فإن الخيار الأخير هو المرجح. وكأنما الهجوم على البرجين التوأمين يعد جريمة فريدة واستثنائية لا يمكن مقارنتها بالجرائم الأخرى. هذا النوع من التذكر الانتقائي الحصري سوف يحول نصب تخليد الحادي عشر من سبتمبر إلى ضريح لجرح أمريكا، مصمم لإذكاء نيران الغضب والدعوة إلى الانتقام . وإذا سار الأمر في هذا الاتجاه، سوف تشجع بؤرة الدمار في منهاتن ذكرى انتقائية مختارة وتعمق تأويل الإنكار الذي اتبع مشروع أمريكا المسيحاني كظله المشؤوم.

دعونا نأخذ نظرة عن قرب. انطلقت فكرة «بؤرة الدمار» بوصفها تعبيرا عسكريا تقنيا يشير إلى النقطة التي توقع فيها القنبلة أفدح الدمار وأكثر الضحايا. واكتسب التعبير معنى خاصا في تحديد موقع شعاع الدمار للقنابل الذرية، ولذلك شاع استعماله حين أسقطت القنبلتان الذريتان على هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين في آب/ أغسطس 1945. هذا هو السياق الثقافي الأصلي لـ«بؤرة الدمار». ولذلك فإن مقارنة الطرق المتباينة التي يجري عبرها تذكر بؤر الدمار تكشف الكثير.

في الفصل الرابع ذكرت قصة محاولة معهد سميثسونيان لإقامة معرض بمناسبة الذكرى الخمسين لقصف هيروشيما وناغازاكي. واجه المعرض معارضة عنيدة، خصوصا من مجموعات المحاربين القدماء. والحجة المقدمة أشارت إلى أنه يؤيد اليابان ويلحق العار بالجنود الأمريكيين. كتب الصحافي جورج ويل يقول إن المنظمين «معادون لأمريكا». وأصدر مجلسا الكونغرس كلاهما قرارين يدينان المعرض[4]. وبعد العديد من المنازعات والمجادلات الخلافية، قرر المعهد التخلي عن المشروع برمته. أما المعروضات الباقية فكانت طائرة «اينولا غاي»، ولوحة معدنية، وشريط تسجيل لحديث طاقم الطائرة. ولم يأت أحد قط على ذكر المدينتين المستهدفتين والقتلى الذين سقطوا فيهما. وفي الحقيقة، كان المطلوب عدم إظهار أي علامات دالة على معاناة اليابانيين في المعرض.

هنالك صلة جامعة بين إجهاض خطة معهد سميثسونيان عام 1995 وإقامة النصب التذكاري في «بؤرة الدمار» في نيويورك. فكلاهما يجسد مثالا على التذكر الانتقائي الذي تمليه الوطنية الشوفينية المتزمتة والاعتقاد بالبراءة البطولية الخارقة.

بؤرة الدمار في درسدن

قد يشعر العديد من الأمريكيين بأن ذلك هو رد الفعل الوحيد المناسب لأي هجوم دموي شنيع مثل هجوم الحادي عشر من سبتمبر. لكن وفقا لتجربتي كألماني، أرغب في تقديم الحجة على إمكانية اللجوء إلى ردود أفعال مختلفة اختلافا بينا عبر رواية قصة كنيسة سيدتنا العذراء في درسدن. ففي الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر 2005،

أعيد تكريس هذه الكنيسة المزخرفة الشهيرة (كثيرا ما عدت أجمل كنيسة بروتستانتية في ألمانيا) للعبادة بوصفها «مكانا للتذكر» و«مركزا للمصالحة». الكنيسة تذكرة معبرة بقوة عن «بؤرة دمار» أخرى، ظهرت في 13 شباط / فبراير 1945 حين أغارت القاذفات البريطانية والأمريكية على مدينة درسدن (على نهر الالبا)، التي اشتهرت بعمارتها البديعة وكنوزها الفنية النفيسة. أطلق القصف عاصفة نارية كاسحة. وقتل عشرات الألوف من الأطفال والنساء والرجال؛ وفي الحقيقة لن يعرف أحد أبدا العدد الدقيق للقتلى لأن المدينة كانت مكتظة باللاجئين (بعض التقديرات تشير إلى مئتي ألف ضحية، لكن يبدو أن العدد مبالغ فيه). تحول مركز المدينة القديمة (فلورنسا نهر البا) إلى أنقاض وخرائب. وظلت بؤرته المركزية تحترق طوال يومين اثنين؛ ثم انهارت وتحولت إلى كومة من الركام أيضا.

ظل المشهد على حاله بضعة عقود من السنين. ولم يكن لدى الزعماء الشيوعيين لجمهورية المانيا الديمقراطية السابقة نية في إعادة بناء هذه الكنيسة الرائعة - حتى لو توفرت لديهم الوسائل والإمكانات الضرورية. وقفت قبل خمسة وعشرين عاما أمام الأطلال: نمت أشجار البتولا بين الأنقاض، وخرجت أغصانها من الفجوات الفاغرة التي كانت نوافذ ذات يوم. في عام 1982، بدأ دعاة السلام الشباب في درسدن وضع الشموع عند الموقع. وفي السنوات التالية أصبح مكانا للتذكر وبؤرة لنشاط حركة السلام، التي كانت تتعرض لمضايقات مستمرة من الحكومة الشيوعية ومؤسساتها وعملائها. وفي عام 1990، بعد سقوط جدار برلين، قدمت مجموعة من المواطنين طلبا لإعادة بناء كنيسة سيدتنا العذراء. لقي

الطلب قبولا واسعا؛ وأسهم في المشروع أشخاص من مختلف بلدان العالم. وبعد أربع سنين، بدأت عملية إعادة البناء البالغة الصعوبة، والآن عادت الكنيسة الرائعة إلى مكانها المعهود.

لأكثر روعة من البناء ذاته قصص المصالحة التي حدثت خلال عملية إعادة البناء. وسوف أورد مثالين اثنين. فقد أقام المسيحيون في درسدن وإخوانهم في مدينة كوفنتري الإنكليزية اتصالات وثيقة طوال سنين عديدة. وكانت كوفنتري قد تعرضت لغارات عنيفة شنتها القاذفات الألمانية عام 1941. وساعدت مجموعات الشباب الألمان في بناء كاتدرائية جديدة شيدت قرب أطلال أخرى تعود إلى القرون الوسطى. وانضمت كنائس درسدن إلى «جمعية مسامير الصليب» التي أنشئت في كوفنتري كشبكة لعقد المصالحة. ثم نشطت مجموعة «درسدن ترست»، بقيادة الدكتور الان رسل (الذي اهتم دوق كنت برعايته اهتماما كبيرا)، وجمعت مبلغ 750 ألف جنيه إسترليني - خصص جزء كبير منه لبناء كرة تحمل الصليب بارتفاع تسعة أمتار (بمحض الصدفة، فإن الرجل الذي قام بمعظم العمل في بناء هذا الصليب الرائع، مستخدما تقنيات القرن الثامن عشر الأصلية بقدر الإمكان، هو الان سميث ابن أحد الطيارين الذين قصفوا درسدن بطائراتهم[(5)].

ثم هنالك قصة سكان بلدة غوستين البولندية. ففي عام 1942، ألقي القبض على مجموعة سرية معظم أفرادها من شباب البلدة الذين كانوا يخوضون حرب عصابات ضد القوات النازية. ثم أعدم اثنا عشر منهم في إحدى ساحات درسدن العامة؛ والذين لم يطلق عليهم الرصاص لأنهم لم يبلغوا السادسة عشرة وضعوا في معسكرات الاعتقال ونجوا من الموت.

بعد الحرب، عاد بعضهم إلى درسدن لزيارة قبور رفاقهم. وبدأت تتشكل صلات بين الكنائس في غوستين ودرسدن. وعرف الزوار البولنديون معاناة أعدائهم القدامى. وحين سمعوا عن خطط إعادة بناء كنيسة سيدتنا العذراء، قرروا المساهمة في المشروع. خصص مجلس مدينة غوستين مبلغا من المال لنحت صخرة على شكل لهب، ضمت بعد ذلك إلى المبنى كرمز للمصالحة بين البولنديين والألمان.

نظرا للعدد المحدود من الألمان الذين يترددون إلى الكنائس، لم تكن درسدن بحاجة ماسة إلى كنيسة إضافية. لكن كنيسة سيدتنا العذراء تبنت رسالة خاصة، تتجاوز حدود المدينة وحتى حدود المانيا: رسالة مصالحة ترتكز على التذكر العميق. أصبحت الكنيسة مكانا لا يزوره السياح فقط بل طلاب المدارس وجماعات الشباب من الأنواع كلها. وهناك، يعرفون عن الماضي، والذنب والمعاناة، ويأخذون لمحة عما يمكن إنجازه بالمصالحة والالتزام المشترك. أما هدف الكنيسة في برامجها فهو التحدث إلى الناس في مختلف بلدان أوروبا ـ وخارجها ـ عن إمكانية تحويل مواقع العار والألم إلى مراتع للبهجة والأمل.

بؤرة الدمار وثقافات التذكر

يمكن أن نعد كنيسة سيدتنا العذراء تعبيرا رامزا لثقافة التذكر العميق الذي يسم التاريخ الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية. فالتأثير بعيد الأمد لتلك «الحرب الأوروبية العظمى الثانية» متميز بوضوح عن الحرب العالمية الأولى. وفي حين أن معاهدة فرساي عام 1919 أملتها برأيي «سياسة الرد العنيف»، فإن الدروس المستفادة من دمار الحرب التي امتدت بين عامي

1939 ـ 1945 استرشد بهديها مزيد من المناهج والطرق المتكاملة (التي لم تستبعد كما ذكرت مسألة الذنب). أما الجيل التأسيسي من الزعماء السياسيين الذين عملوا في سبيل الجماعة الأوروبية في العقد التالي للكارثة المروعة، مثل روبرت شومان وكونراد اديناور وغيرهما، فقد خرج من فظائع المذبحة الأوروبية بقناعة راسخة تؤكد الحاجة إلى التغلب على العداوات القديمة بواسطة نوع من المصالحة السياسية.

من المؤكد أن العديد من الزعماء السياسيين لم يعودوا اليوم يتبنون هذا الالتزام العميق بالمصالحة. فالجماعة الأوروبية تبدو بنظرهم قاعدة للمصالح الاقتصادية فقط. ومن ثم لا توجد حاجة ملحة داخل أوروبا إلى الإبقاء على حيوية ونشاط رؤية أكثر اتساعا وجوهرية: الجماعة الأوروبية كمنطقة سلام. أوروبا متخمة بـ«بؤر الدمار»؛ قارة مترعة بقصص الانتصارات العبثية والمعاناة التي تعجز عن وصفها الكلمات. مقتل ملايين البشر، ونزوح ملايين اللاجئين، ودمار العديد من المدن ـ أمور ما زالت حية في ذاكرتنا الجمعية. ومع أن الجميع متفقون على أن محاربة هتلر حتى النهاية كانت أمرا ضروريا، إلا أن مشاعر الارتياح تجاه الانتصارات التي حققها الروس والبريطانيون والفرنسيون لم تكن قوية، خصوصا على مستوى القاعدة الشعبية. فالأثمان التي دفعت كانت باهظة جدا.

في الولايات المتحدة، ما يزال معظم الأمريكيين يميلون إلى الاعتقاد بأن الذهاب إلى الحرب يعني العودة منها بنصر مجلجل؛ في حين يؤمن معظم الناس في أوروبا بأن من المستحيل كسب شيء بالذهاب إلى الحرب. هذه هي النقطة التي يمكن عندها ملاحظة وجود اختلاف عميق في ثقافات التذكر بين الأوروبيين والأمريكيين. فالناس على هذا الجانب من الأطلسي

يتوصلون ببطء إلى فهم مفاده أن الإنكار لا يساعدهم. والصدق في التعامل مع الماضي والتعاطف مع الذين حملوا الأعباء على كواهلهم جزء من عملية مداواة جروح الانفصال والشك. أنا لا أقول إن ارتقاء شعوب أوروبا نحو تحقيق جماعة متحدة مستدامة قد اكتمل. فسوف تظهر على الدوام تحديات جديدة وعقبات كأداء، من الداخل والخارج؛ ولربما يثبت أن العلاقات مع الدول الأفريقية ودول الشرق الأوسط تحظى بالأولوية من حيث الأهمية. لكن على الرغم من جميع هذه التحفظات، إلا أنني على قناعة بأن الجماعة الأوروبية تجربة تاريخية وحتى غير مسبوقة في مجال سياسة المصالحة(6).

لا يوجد بالتأكيد سبب للشعور الانتصاري في هذه العملية. إذ تبدت حالة منذرة بالخطر تذكر بالتردد والتنافس بين البلدان الأوروبية في الطريقة التي أساءت فيها التعامل مع الحروب الأهلية بين شعوب البلقان بعد تفكك يوغسلافيا. المثال الآخر على التفرق والتشتت تجسده مقاربة البلدان الأوروبية للحرب على العراق. فقد اختار بعضها الانضمام إلى «قوات التحالف» بقيادة الولايات المتحدة، في حين قرر غيرها، خصوصا فرنسا والمانيا، عدم التورط (المباشر). هنالك الكثير مما يجب فعله، وربما لن يرتقي الأوروبيون وزعماؤهم السياسيون إلى مستوى التعلم من دروس تاريخهم وأخذ العبر منها.

هنالك مراقبون أمريكيون ينكرون صلة ما قلته للتو بالسياق عبر تقديم الحجة على أن الأوروبيين لم يتمكنوا من السعي وراء مناوراتهم الاجتماعية والسلمية إلا لأن النسر الأمريكي الكاسر وفر لهم الحماية من شرور العالم. مايكل هيرش، مثلا، بلغت به الجرأة حد إعلان ما يلي:

حين نضع جانبا لحظة غزو العراق المتهور، نجد أن أمريكا تنفق على الدفاع أكثر من باقي بلدان العالم الصناعي مجتمعة، لا لأن الولع بالحرب أو النزعة العسكرية متأصلان فيها، بل لأنها اليوم أكثر من مجرد «القوة العظمى الوحيدة». فهي تمثل عامل الاستقرار ودعامة التثبيت للنظام الدولي. وقوتها تغطي كل منطقة على الكوكب، وهي توفر مقابض التحكم التي تكبح الدول المولعة بالحرب وسباقات التسلح في المناطق الممتدة من شرق آسيا إلى أمريكا اللاتينية، وتمكن العولمة من السير قدما.. لكن، فيما يتعلق بالعديد من الأوروبيين في حقبة ما بعد الحرب الباردة، كانت هذه البنية المثبتة للاستقرار في القوة الأمريكية خفية إلى حد أنها لا تستحق الملاحظة. لماذا يظنون أن بمقدور حكوماتهم إنفاق هذه المبالغ الضئيلة على الدفاع (وهذا يتيح لها تقديم الدعم لدولة الرعاية الاجتماعية الأوروبية)؟ ومثلما يقول الأطفال في رواية آنا كارنينا «لا حاجة بنا للتفكير بذلك، فهو متاح ومتوفر لنا»[7].

هنالك الكثير من الأخطاء الذريعة في مثل هذا التصريح. فأكثر الجوانب المثيرة للسخرية في منطق هيرش وصفه الالتزامات بدولة الرعاية الاجتماعية في أوروبا بأنها لعبة أطفال ليست ممكنة إلا بوجود الأب الكبير في واشنطن، الذي يتمتع بما يكفي من الغيرية ليؤدي العمل القذر (ألا يعلم هيرش أن بناء أنظمة «دولة الرعاية الاجتماعية» هذه كان باهظ التكلفة وقضى في سبيله آلاف النقابيين والعمال منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي قبل وقت طويل من ارتقاء الولايات المتحدة

إلى مرتبة القوة العظمى؟). إذا أردنا أن نوسع حجة هيرش إلى نتيجتها المنطقية، نجد أن الأوروبيين هم المسؤولون عن بؤس الأمريكيين الأفارقة في نيواورليانز لأن واشنطن بحاجة إلى تقديم الدعم (غير المباشر) إلى الألعاب «الاشتراكية» المسرفة - ولذلك لا يتوفر لها ما يكفي من المال لرعاية الفقراء داخل حدود الولايات المتحدة.

الأمر المهم أن البلدان الأوروبية تعلمت نتيجة تجاربها مع العديد من «بؤر الدمار» الدرس الذي يؤكد أن سلامة أداء المجتمعات لوظيفتها تعتمد على الاستقرار الاجتماعي وعلاقات العمل العادلة بقدر اعتمادها على مؤسساتها العسكرية. وفيما يتعلق بالولايات المتحدة من ناحية أخرى، تحولت تجربة الرابح العالمي إلى شرك. فتحذير الرئيس ايزنهاور النبوئي من خطر «المجمع العسكري - الصناعي» ونزوعه إلى أن يصبح عاملا اقتصاديا شموليا كان صائبا وفي محله(8). ومن المحزن أن هيرش يصيب حين يعترف أن الولايات المتحدة تنفق من المال على التسلح أكثر من البلدان الصناعية مجتمعة. لكنه يخطئ في السبب الذي يقدمه: فكرته القائلة إن «تمكين العولمة من السير قدما» ضرورة تاريخية مجرد دعاية تحمل صورة أمريكا كأمة منقذة إلى حدها العسكري الأقصى. إذ يستحيل، كما يقترح هيرش «أن نضع جانبا لحظة غزو العراق المتهور»، وكأنه «هفوة» بسيطة يجب إهمالها عند صياغة المعادلة الكبرى. فهو جزء لا يتجزأ من الفتوحات التوسعية العالمية للإمبراطورية الأمريكية. فما الذي يمنع أي مراقب خارجي من التفكير بأن هذا الغزو مثال صارخ على تغذي المجمع العسكري - الصناعي الأمريكي على ذاته؟ يقول الرئيس السابق جيمي كارتر: «سباق التسلح الوحيد هو الذي نخوضه مع أنفسنا»(9).

في كتاب «أمريكا على حق أم باطل» يثير المراسل الصحفي والباحث البريطاني اناتول ليفين السؤال التالي: «لماذا قام البلد الذي سنحت له بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية الفرصة لإيجاد تناغم بين جميع دول العالم الكبرى ـ ومنها الدول الإسلامية ـ يناهض الإرهاب الثوري الإسلامي، باختيار سياسات قسمت الغرب، وزادت استعداء العالم الإسلامي، وعرضت أمريكا نفسها إلى أخطار داهمة تتعاظم باطراد؟»(10). يحتاج مثل هذا السؤال إلى إجابة دقيقة. وتكمن إحدى الإسهامات في الجواب في قضية ناقشتها في هذا الفصل: كيف يمكننا التعامل مع مواطن الضعف التي تعرضنا للخطر؟ ما هي العلاقة بين تجارب التعامل مع مواطن الضعف وثقافات التذكر والخيارات السياسية ـ العسكرية المستمدة منها؟ مثلما يقول ليفين ضمنا (وكما أكدت «مسودة الخطبة الرئاسية» في بداية هذا الفصل)، منح الحادي عشر من سبتمبر الولايات المتحدة فرصة إقامة نوع جديد وشامل من «التناغم» العالمي المناهض للإرهاب. لكنها أضاعت الفرصة. الغرب مقسم، ويمكننا الآن ملاحظة مستويات جديدة من العداء لأوروبا وأمريكا. أما استعداء البلدان الإسلامية فقد بلغ درجة عالية من الكثافة والحدة. والولايات المتحدة في بحثها عن المناعة والحصانة أصبحت أقل أمانا من حالها في الماضي.

لن يكفي وضع اللوم على عاتق الرئيس بوش وإدارته فقط. صحيح أن الإغراء قوي، وسوف يزداد جاذبية مع تفاقم الوضع في المستنقع العراقي. لكن ذلك سيكون نوعا من التضحية بكبش فداء، ويمنعنا من معاينة القضايا الأساسية. الرئيس السابق جيمي كارتر أشار إلى أن الإدارات الأمريكية اتبعت خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية سياسات

تتناقض مع المبادئ المتبناة سابقا. وعزا هذه «الأزمة الأخلاقية» إلى «الأصولية» التي مزجت الأفكار الدينية والسياسية[11]. وهو يقترح ما يلي كعلاج:

> على حكومتنا أن تشتهر بمعارضة الحرب دون تردد، والتزام حل النزاعات بالوسائل السلمية.. يجب أن يرانا العالم كمدافعين لا نلين عن الحرية وحقوق الإنسان، بين مواطنينا وداخل المجتمع الدولي أيضا. يجب على أمريكا أن تكون البؤرة التي يمكن للأمم الأخرى كلها أن ترص الصفوف حولها لمحاربة التهديدات الداهمة للأمن وتحسين جودة بيئتنا المشتركة[12].

يبدو أن كارتر يعتقد أن الثورة الأصولية التي تمسك الآن بزمام الأمور في واشنطن يمكن مغالبتها بالعودة إلى مثل الماضي العليا، التي يصفها كما يلي:

> لقد ظل الأمريكيون دوما على حق في الفخر ببلادهم، بدءا بإعلان الاستقلال في عهد أجدادنا الشجعان وتوكيدهم أن «جميع البشر خلقوا متساوين، وأن الخالق وهبهم حقوقا لا يمكن التصرف بها، منها الحق في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة». ومنذ ذلك الحين، استغل شعبنا الموارد الطبيعية العظيمة لأمريكا، وسهولة الوصول إلى المحيطات الدافئة، والجيران الودودين نسبيا، لتشكيل «اتحاد أكثر كمالا»[13].

لكن ذلك أكثر من مجرد وصف شاعري لتاريخ أمريكا. فعلى الرغم من قيمة نقد كارتر الذاتي، إلا أنه ينخرط في عملية التذكر الانتقائي.

حيث يؤمثل الفتح الأمريكي التوسعي (أتساءل ما هو رأي «الجيران الودودين نسبيا» فيما يقوله كارتر!)، ولا يأتي على ذكر العنف المتضمن في هذا «المسعى»، ولا يتطرق إلى التعامل مع الذنب المتأصل والكره الهائل الذي تراكم في شتى أنحاء العالم ردا عليه.

إذن، لن تنجح وصفة كارتر العلاجية. فالأزمة الأخلاقية التي يشخصها أعمق بكثير، وهذه الصورة الذاتية المؤمثلة هي جزء من الأزمة. التذكر العميق يتطلب نظرة أكثر عمقا - وألما - على الجانب الخلفي المظلم لنهوض أمريكا وارتقائها. والعديد من سكان العالم ينتظرون زعماء سياسيين في أمريكا أكثر عظمة وحكمة بحيث يعترفون بسيئات الولايات المتحدة، وأكثر جرأة وشجاعة بحيث يعيدون تعريف دور أمريكا بين أمم العالم. والاعتراف بمواطن الضعف التي يتقاسمها شعب الولايات المتحدة مع شعوب العالم قاطبة سيثبت أنه طريقة أكثر صدقا وأمانة وإبداعا للتقدم إلى الأمام مقارنة بالمسعى الخداع لاكتساب الحصانة الكاملة والمناعة المطلقة. هل يوجد درس يود مواطنو الولايات المتحدة تعلمه من الطرق التي اتبعتها أوروبا للخروج من ركام وفظائع الحرب العالمية الثانية؟

هوامش

1- انظر:

Hans von Sponeck and Andreas Zumach, Irak Chronik eines gewollten Krieges (Kolm: Kiepenhauer und Witsch, 2003), pp. 18 - 27.

2- أدرك حقيقة أن تعبير «مواطن الضعف» تعرض للانتقاد الحاد من الباحثات النسويات. إذ يعتبرن استخدام هذا المفهوم متعمدا ومقصودا إلى حد ما، ويضمر استراتيجية «ذكورية» لإضفاء الشرعية على الظلم الجندري (النوع الاجتماعي). يمكن العثور على مثال معبر على هذا الانتقاد في كتاب سارا كوكلي، حيث قدمت الحجة على أن الفلاسفة واللاهوتيين المؤيدين للحركة النسوية بحاجة إلى اتخاذ مقاربة أكثر دقة وقدرة على الأخذ بالحسبان السلسلة الواسعة من حالات الاتكال التي يخضع لها البشر. ولذلك، لم تضع موضع المسائلة فعلا حقيقة تعبير «مواطن الضعف»؛ وهي تعترض على الافتراض السائد الذي يفرق بين مواطن الضعف الأنثوية والذكرية، وتريد السمو على خط الصدع المتخيل لكن العميق. هذا بالضبط ما فكرت فيه. ففي إدخال القراءة الإيجابية لمواطن الضعف، أريد ترسيخها كشرط أساسي لمصفوفة الحياة بجميع أشكالها على هذه الأرض.

3- James Risen, "To Bomb Sudan Plants, Or Not: A Year Later Debate Rankle," New York Times, Oct. 27, 1999, p. AI.

لأن الضربة دمرت مصنعا ينتج أدوية مضادة للملاريا في منطقة فقيرة، رأى ويرنر دوم، السفير الألماني السابق في السودان، ملامح من إرهاب الدولة في الهجوم. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Werner_Daum.

4- Robert Jay Lifton and Greg Mitchell, Hiroshima in America: Fifty Years of Denial (New York: G. P. Putman, 1995), p. xii.

5- انظر:

Hans-Eckehard Bahr, Erbarmen mit Amerika: Deutsche Alternativen (Berlin: Aufbau-Verlag, 2003), esp. pp. 84ff.

6- Michael Hirsh, «Bloody Necessary,» Washington Monthly, April 2005;

www.washingtonmonthly.com/features/20050504/.hirsh.html (accessed Nov. 20, 2005).

7- انظر:

Dwight D. Eisenhower, «Military Industrial Complex Speech, 1961» (The Avalon Project at Yale University:

http://www.yale.edu/lawweb/avalon/president/speeches/eisenhower001.htm [accessed Dec. 18, 2005]).

8- Jimmy Carter, Our Endangered Values: America's Moral Crisis (new York: Simon & Schuster, 2005), p. 199.

9- وردت في:

M. Hirsh, «Bloody Necessary,» p. 2; Anatol Lieven, America Right or Wrong: An Anatomy of American Nationalism (New York: Oxford University Press, 2004).

10- Carter, Our Endangered Values, pp. 30ff., 94ff.

11- Carter, Our Endangered Values, pp. 199ff.

12- Carter, Our Endangered Values, p. 198.

ـ 6 ـ

صدام الأصوليات

هل كان كتاب صمويل هنتنغتون الرائج «صدام الحضارات» يشجع ما أمل بمنعه؟[1] التقط هنتنغتون جملة «صدام الحضارات» من برنارد لويس، الذي أصدر أيضا تحذيرا فيما يتعلق بالتعامل مع «جذور الغضب الإسلامي»، الذي وجده في الأحداث الملتهبة التي أدت إلى مقتل الحجاج في مكة، وتفجير السفارة الأمريكية في باكستان، والفتوى التي صدرت بحق سلمان رشدي بعد نشر كتابه «آيات شيطانية». وحسبما قال لويس:

> هذا ليس سوى صدام حضارات ـ ردة الفعل اللاعقلانية ربما لكن التاريخية بالتأكيد للعداء القديم لميراثنا اليهودي ـ المسيحي، وحاضرنا العلماني، والتوسع العالمي لكليهما. من المهم بشكل حاسم ألا نستفز من جانبنا إلى ردة فعل تاريخية أيضا ولكن لاعقلانية على ذاك العداء[2].

أراد هنتنغتون من عنوانه إعادة توكيد احتمال ظهور هذه التطورات المحفوفة بالخطر في المستقبل، ومن ثم رغب في تحذير الأمم الغربية من مغبة الانخراط فيها. وبدلا من ذلك، عُد كتابه وصفا واقعيا لوجهة محتومة

يتعذر اجتنابها تتخذها الحضارات العالمية. وبدا أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 قد أثبتت صدق تنبؤات هنتنغتون. وأصبح لويس نفسه على ما يبدو مرشدا روحيا للمحافظين الجدد في واشنطن، الذين تمثل هدفهم في تحويل العراق إلى أمة أخرى تتبع النموذج التركي[3]. مع بروز الإرهاب الدولي المدفوع ببواعث دينية، بدا الفهم الساذج لـ«نظرية الصدام» مخططا هيكليا سهلا يمكن أن يؤسس عليه الزعماء السياسيون استراتيجياتهم التصادمية. لكن أولئك الذين تحملوا عناء قراءة عمل هنتنغتون سرعان ما سيعرفون أن ترتيبه لحضارات العالم ـ خطوط التصدع واتجاهات العداء المحتمل بينها ـ مفرط في العمومية والسطحية إلى حد يمنعه من تقديم الخطة البليغة والمفيدة التي زعم تقديمها.

في الحقيقة، إذا نظرنا بعناية ودقة إلى حضارات الأرض، نكتشف أنها ليست بالضرورة ملتزمة علاقة «الصدام»، بل تتمتع بما يكفي من المرونة للسماح بتشكيلة واسعة ومتنوعة من علاقات الانفتاح والاتصال والتبادل. فالعوامل السياسية والاقتصادية والتقانية والثقافية والدينية للعولمة تشير بدرجات متفاوتة إلى أن هناك قدرا كبيرا من العلاقات التبادلية والتعاونية. والعلماء والمهندسون ورجال الأعمال يتنقلون بحرية بين الثقافات والحضارات. وبعض المراقبين يتحدثون عن «إنسانوية ثقافية» تكون رابطة قوية بين الشعوب التي تتبنى معتقدات مختلفة ووجهات نظر متباينة للعالم[4]. المثال المعبر عن هذه الإنسانوية التي تسمو على الحدود تجسده حياة المهاتما غاندي: كان هندوسيا مؤمنا بديانته، لكن منظوره يشمل العناصر الأساسية للمسيحية، وبذل ما بوسعه ليكون صديقا للمسلمين. أما أساليبه اللاعنفية في مقاربة الصراعات السياسية فقد

اشتهرت على نطاق واسع واسترشد بهديها الناس من أكثر الحضارات تنوعا وتباينا في نهاية المطاف. ولا ريب في أن كفاح جنوب إفريقية ضد النظام العنصري يدين بالفضل إلى غاندي، كحال حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.

يبدو أن شعار «الصدام» الذي رفعه لويس وهنتنغتون ينطبق على العالم الإسلامي. لكن المقاربة هنا أيضا مغالية في العمومية بحيث لا تفيد كثيرا. علينا ألا ننسى مثلا أن الإمبراطورية العثمانية ظلت حتى سقوطها عام 1919 أكثر تسامحا مع الأقليات الدينية مقارنة بالممالك المسيحية في عصرها. وحتى اليوم، إذا نظرنا إلى الظروف السائدة في ماليزيا أو إندونيسيا أو إيران أو المغرب، لا نستطيع إلا أن نميز تعددية هائلة ضمن مجتمعاتها الإسلامية المهيمنة. وفي الحقيقة، من المنطقي والأكثر معقولية فهم حضارات العالم بوصفها متمايزة، لكنها في الوقت ذاته تظهر شبكات متداخلة إلى حد بعيد من المعاني الدلالية التي تتفوق فيها العوامل المشتركة الجامعة على عوامل التصادم والمجابهة (سوف أتناول هذه النقطة بمزيد من الإسهاب في نهاية هذا الفصل). السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف ضاع التحذير المتضمن في جملة «صدام الحضارات» وتحول إلى دعوة إلى المجابهة؟ أحد الأجوبة يأتي من كتاب طارق علي «صدام الأصوليات» (2002)، الذي ألفه ليكون تصحيحا مقصودا ومستفزا لجملة ومفهوم لويس ـ هنتنغتون[5]. حجة طارق علي الأساسية ترتكز على أن الحضارات والأنظمة الدينية تصبح «نزاعة إلى الصدام» كلما «اختطفتها» الأصوليات. ورؤيته الخاصة عن أخطار الأصولية تنبثق من تجربة لا يريد لأحد غيره أن يعانيها.

فقد ولد عام 1943 لأسرة إقطاعية تسكن لاهور - في الهند آنذاك، وباكستان حاليا. عند مولده كانت هذه المدينة الشهيرة خاضعة للحكم الاستعماري البريطاني، ويتألف سكانها من المسلمين والسيخ والهندوس. صحيح أن عائلته مسلمة لكنها لم تكن ملتزمة الدين التزاما حرفيا متزمتا، أي مسلمة بالاسم فقط. وفي الحقيقة، كانت تعتقد أن الملالي رجال حمقى ومثيرون للاشمئزاز ليس لهم مكان في مجتمعها - ولا أهمية سياسية بالتأكيد. لكن الروابط التصالحية بين الثقافات المتعددة تفككت في لاهور وتفجرت على شكل صدامات مروعة تعجز الكلمات عن وصف فظاعتها في عام 1947، حين انقسمت الهند وباكستان إلى دولتين منفصلتين. قتل ملايين المسلمين أو أجبروا على الفرار إلى دولة باكستان الجديدة، في حين ذبح الملايين من الهندوس والسيخ أو أجبروا على الابتعاد عن الأراضي التي تضمها باكستان. أما والد طارق فقد نأى بنفسه باشمئزاز عن هذا الاضطراب المدفوع بالباعث الديني وتحول إلى شيوعي متزمت؛ وتبع الابن أباه في هذا التوجه العلماني، بل الإلحادي.

لكن الحادي عشر من سبتمبر غير منظوره إلى الهويات الدينية. وشعر طارق علي، الذي يعيش الآن في لندن بعد أن درس في اكسفورد - ويؤمن بمذهب اللاأدرية * وذو جذور إسلامية - أنه مضطر ليدرس بشكل متعمق ما جرى للمسلمين وما غير نظرتهم إلى العالم بهذه الطرق الدراماتيكية. كيف يمكننا فهم الشعور الحماسي المناهض للاستعمار في الشرق الأوسط؟ لماذا تعتقد كل من الهند وباكستان أنهما بحاجة إلى القنابل الذرية لدرء خطر الأخرى.

* مذهب يزعم استحالة معرفة شيء عن الله (طبيعته ووجوده). (م)

يظهر كتاب طارق علي وجود قصة طويلة خلف كارثة الحادي عشر من سبتمبر. فإذا أردنا العثور على سبيل إلى مستقبل دون هجمات عنيفة ودموية، يجب أن ندرس ونفهم العمليات الانتحارية. وحسبما قال:

علينا أن نفهم اليأس، لكن دون أن ننسى التمجيد المهلك الذي يدفع الناس إلى التضحية بحياتهم. وإذا بقي السياسيون الغربيون على جهلهم بالأسباب وتشبثوا بمسارهم السابق، سوف تتكرر مثل هذه الهجمات. إن للشجاعة الأخلاقية بعض القيمة العلاجية، لكنها عبثية وعديمة الفائدة كاستراتيجية سياسية. وليس بأفضل منها شن الحروب الثأرية المفضوحة في حمأة اللحظة. ولن تساعد محاربة الاستبداد والقمع بالوسائل الاستبدادية والقمعية.. قضية العدالة، أو تجلب ديمقراطية هادفة وذات مغزى. بل تفاقم دورة العنف(6).

كتب علي هذه الكلمات عام 2002. ومنذ ذلك الحين، أثبتت «الحرب على الإرهاب»، والحرب الثانية على العراق، وبناء الجدار العنصري بين إسرائيل والفلسطينيين أيضا، صدق تحذيره المرعب. إن دورة العنف أصبحت أكثر ضراوة من ذي قبل. وعدم الرغبة، أو القدرة على فهم جذور الأسباب يكشف عن نزعة أصولية متنامية. ولذلك فإن ما نراه هو صدام أصوليات.

يصر طارق علي على أن الأصولية الإسلامية لا يمكن فهمها بصورة صحيحة دون تمييز تمظهراتها المقابلة في أوروبا. إذ توفر إمبريالية الولايات المتحدة برأيه السياق القمعي الذي يحاول الأصوليون المسلمون محاربته. ويرى «العولمة» بوصفها تعبيرا يموه الهيمنة العالمية للولايات المتحدة. وفي

سبيل إثبات هذه النقطة، يستشهد بتوماس فريدمان، الصحفي الشهير في نيويورك تايمز، الذي كتب يقول عام 1999:

> من أجل نجاح العولمة، يجب على أمريكا ألا تخشى العمل كقوة عظمى جبارة كما هي في الحقيقة. واليد الخفية للسوق لن تنجح أبدا دون قبضة خفية. إذ لا يمكن لمكدونالد أن يزدهر دون مكدونيل ـ دوغلاس، الشركة المصممة لطائرات «اف 15»، والقبضة الخفية التي تحفظ العالم آمنا لتقانة وادي السيليكون تسمى جيش الولايات المتحدة، والقوات الجوية، والبحرية، وفيالق المارينز(7).

برأي طارق علي، يبدو «صدام الحضارات» مجرد مواجهة بين الهيمنة المتغطرسة للولايات المتحدة من جهة، والهجمات الانتحارية العديدة المموهة بغطاء الدين.

تباريح الحداثة

«الأصولية» تعبير يجب استعماله بحذر. فعلى الرغم من أن له استخدامات وصفية مشروعة، إلا أنه أصبح تعبيرا تشهيريا كثيرا ما يستعمل لوسم المعارضين بأنهم أعداء متزمتون ومتعصبون ولا عقلانيون. لا توجد طريقة لوصف «جوهر الأصولية» بشكل يرضي الجميع، لكن يمكن الحديث عن أنماط متكررة من الاعتقاد والسلوك. كيف، وتحت أي ظروف، انطلقت الأصولية؟ أعرض كبداية ملاحظة بسيطة: بوصفنا بشرا نحتاج جميعا إلى أصول جوهرية. ونحتاج إلى مكان وزمان لحيازتها وتخصيصها بطريقة واعية. لكن ما هي «الأصول الجوهرية»؟ لنفكر

على الأقل بما يلي: الحب والعطف والرعاية الدائمة التي توفرها الأسرة والمنزل، والعلاقات الموثوقة والثابتة في المجتمعات المحلية والجماعات الدينية، وشبكات النظام القانوني والعادات والقيم والتقاليد الثقافية التي يعول عليها. هذه هي منظومات المعنى، أو حسب تعبير جورج ليكوف «الأطر» التي تزود البشر بالوسائل اللازمة لاكتشاف قواهم وإيجاد دور لهم في الحياة[8]. ولذلك، تتكشف الحياة الإنسانية بواسطة حيازة وتحويل ميراث الماضي. كل واحد منا أكثر من مجرد نسخة بسيطة عن أجدادنا، مع أننا نبقى مدينين لهم بطرائق أكثر مما نعرف أو نرغب في الاعتراف بها. حيويتنا وحيوية ثقافاتنا وحضاراتنا تعتمدان على قدرتنا على إعادة بناء منظومات المعنى التقليدية و«إعادة تأطير» الأطر الموروثة في الوقت ذاته الذي نستجيب فيه بنشاط وحيوية لتحديات الغد. ومن ثم، نحن نعيش في حالة توتر بين الطاقات التي تربطنا بماضينا والطاقات التي تدعونا وتجذب اهتمامنا إلى المستقبل. ولذلك نحن بحاجة إلى أصول. نحتاج إلى ثقة أصلية، أو «ثقة بدائية» كما سماها اريك اريكسون، لكي نعيش حياة هادفة وذات مغزى.

أي نوع من الظروف يقود هذه العملية المستمرة من حيازة أصولنا نحو الأصولية؟ يحدث هذا في جميع الحالات التي تنهار فيها عمليات الحيازة. فكلما انحلت وتفككت منظومات المعنى المثبّتة، سيبحث الناس عن حلول أصولية (أو يتخلون عن أي بحث عن المعنى ويتبنون أساليب حياة «متقلبة» سوف أناقشها في موضع لاحق من هذا الفصل). تتألف هذه الحلول «الأصولية» من ثلاثة مكونات أساسية: 1) إطلاقية النصوص المقدسة أو / والتقاليد التراثية؛ 2) التزمت، أي الخضوع دون مساءلة لمجموعة مطلقة من

المعتقدات التأسيسية؛ 3) الصوابية الأخلاقية، أي الخضوع التام لمجموعة مطلقة القيم الأخلاقية. هذه محاولة فعالة وقوية لإعادة تأسيس عالم هادف وذي مغزى في خضم ظروف تبدو فوضوية ومضطربة.

حين نتفحص هذه الأنماط العريضة في الأصولية، يمكننا رؤية أننا نواجه ردود أفعال أصولية في شتى أنحاء العالم، خصوصا في الأوضاع التي تشهد اضطرابا اجتماعيا منذرا بالخطر أو حروبا أهلية طويلة، مع ما يرافقها من ضغوط البؤس وانقطاع الجذور والفوضى والتهجير والتشرد. هذه هي الظروف التي تدفع الناس إلى إعادة تأطير حياتهم ووجهة نظرهم بالعالم حول بضع حقائق توفر شعورا بالأمان المطلق. ما أقترحه هنا هو منظور ثقافي-أنثروبولوجي ونفسي-اجتماعي يمكن أن يساعد في تفسير لا نمو الأصوليات المتسارع في العالم فقط، بل «ضرورتها» كأعراض للبحث المشروع عن المعنى. فهي باختصار ردود أفعال مَرَضية على ظروف الحياة المفرطة في الإرباك والتدمير بحيث يتعذر على الناس احتمالها. يبدو من الواضح إذن أن الانتشار العالمي للحداثة، ومن ضمنها الضغوط الاقتصادية الساحقة والتأثير الثقافي المهيمن، يمثل قوة تستفز ردود أفعال أصولية متزايدة.

تستقصي كارين ارمسترونغ انتشار الحداثة في كتابها المؤثر «الصراع على الله»[9]. فبرأيها، يبدأ تاريخ الحداثة عام 1492، العام الذي شهد «اكتشاف» العالم الجديد وطرد اليهود من إسبانيا. وهو تاريخ ذو وجهين. أحدهما يروي قصص الفتوحات المذهلة، والاكتشافات المؤذنة بفتح آفاق جديدة، والثورات التي أتاحت فرصا غير مسبوقة للبشرية. لكنها الحقبة

التاريخية ذاتها التي شهدت تاريخ الاستعباد والاسترقاق وجرائم الإبادة الجماعية، ومشاعر القلق العميق، والإحباطات المخيبة للآمال.

الأصولية هي ردة فعل على الجانب العنفي المظلم للحداثة. فكلما حدث تسارع في الأمور التقانية والاقتصادية مثلا، أو زادت التعقيدات في مجال السياسة والعلم، تعاظم إغراء تقليص حدة هذه الفوضى عبر اعتناق بضعة معتقدات آمنة ويتعذر دحضها. هذا التقليص الاختزالي هو السمة المميزة لكل نظام أصولي.

نحت تعبير «الأصولية» عام 1920 في الولايات المتحدة على يد القس المعمداني والصحفي كورتيس لي لوز، الذي تعهد بأن المؤمنين «سيخوضون معركة حامية الوطيس من أجل الأصول». وخلال العقد السابق ظهرت سلسلة مؤثرة من المقالات لمئة كاتب من مختلف المشارب والتوجهات الدينية، ركزت على العناصر المفتاحية في الدين المسيحي، بعنوان «الأصول: شهادة على الحقيقة»(10). مثل هؤلاء الكتاب حركة قوية بين البروتستانت المحافظين والإنجيليين رفضت انتشار التفسيرات التاريخية - النقدية للكتاب المقدس. وعدت طرائق التفسير الجديدة خيانة للحقيقة المطلقة للإنجيل. في الوقت ذاته، كان هؤلاء «الأصوليون» الأوائل يردون بشكل صارم وسلبي على النزعات الليبرالية والشيوعية وغيرها من النزعات «الملحدة» التي تزايدت وانتشرت في المجتمع الأمريكي. أما تعبير «أصولية» فقد وعد بتوفير أرضية آمنة للمؤمنين بالكتاب المقدس، والمتشبثين بإيمانهم وبقوة مبادئهم الأخلاقية، والملتزمين الوقوف بصلابة في وجه نزعات الانحطاط والانحلال في العصر الحديث.

بقيت الأصولية البروتستانتية، أمام معارضة القساوسة البروتستانت من أمثال هاري ايمرسون فوسديك، الذي فضل التسامح على اليقين[11]، بعيدة عن الأضواء والساحة السياسية طوال أكثر من قرن من الزمان. ولم تمارس المناسبات التي احتفل بها الأصوليون أي تأثير محسوس على الأحزاب السياسية. لكن بعد نهوض «الأغلبية الأخلاقية» في منتصف السبعينيات بقيادة جيري فالويل، أصبحت قوة سياسية، واستطاعت تعزيز قاعدتها في العديد من الطوائف والمجتمعات والمنظمات المحلية، خصوصا داخل الحزب الجمهوري[12]. يجب أن نلاحظ أن هذه الحركة الأصولية ليست متجانسة. وفي الحقيقة، في حين قبلت الفروع التي كانت أكثر راديكالية سيناريوهات نهاية الزمان المحتومة بالقدر الإلهي، واقترنت بمشاعر وطنية شوفينية قوية (كما ناقشنا في الفصل الثاني)، فقد فضلت طوائف أخرى أن تدعو نفسها «أصولية» بالمعنى المسيحي القويم والمحافظ[13].

لذلك، لا يمكن استخدام الأصولية لوصف الطيف الواسع كله للبروتستانتية المحافظة. ويجب أن نتذكر أن الأصولية ليست تعبيرا وصفيا فقط بل يشمل في الحالة النمطية أفكارا وأحكاما تقويمية تختلف باختلاف الموقف. ومن ثم فإن ما يبدو «أصوليا» من المنظور الليبرالي ربما يعد «ليبراليا» من الطرف الآخر من الطيف[14]. علينا أيضا أن نضيف أن الأصولية لا تعني أبدا مجرد تأسيس بروتستانتية القرن العشرين. فقد حدثت عملية مشابهة في الكنيسة الكاثوليكية خلال الحقبة نفسها: والأهم في هذا السياق «القسم المناهض للحداثة» الذي تبناه البابا بيوس العاشر عام 1907[15]. ووجب على الأكليروس الكاثوليك القسم بالالتزام

الصارم بتعاليم الكنيسة الرسمية والجوانب الجوهرية والأصيلة للعقيدة، ولم يلغ القسم إلا عام 1967، وحتى آنئذ لم يضع إلغاؤه حدا لقدرات البابوية على إسكات الأصوات الخارجة على صوابية المعتقد القويم ومعاقبة أصحابها(16).

أظهرت كارين ارمسترنغ وكلاوس كاينزلر أن الحركات الأصولية بدأت في الحقبة نفسها في الأوساط الإسلامية واليهودية. فجماعة الإخوان المسلمين مثلا التي أسسها حسن البنا في مصر عام 1928 حركة أصولية بامتياز: حيث استهدفت استعادة سلطة ومرجعية الإسلام في الوقت الذي ناضلت فيه ضد القوى العلمانية والكولونيالية التي هيمنت على الشرق الأوسط. وبطريقة مشابهة، تشكلت حركة أصولية بين المتشددين اليهود احتجاجا على اللامبالاة الدينية والدوافع الصهيونية لتأسيس دولة إسرائيل. في جميع هذه الحالات، تبدو الأصولية الدينية علاجا للذين يعانون الظلم، واللامساواة الاقتصادية، والتناقضات الفكرية، والازدواجية الأخلاقية التي وجدوها صعبة الاحتمال.

المثال المعبر في هذا السياق يجسده النمو السريع للأصولية البروتستانتية والكنائس الكاريزمية الجاذبة في أمريكا الوسطى والجنوبية. فقد وجد الناس ملاذا في هذه الكنائس الصغيرة بعد أن قطعوا صلاتهم وفقدوا أصولهم نتيجة الهجرة الإجبارية من قراهم إلى أحياء الفقر في «البرية الضارية» التي تعمها الفوضى حول المدن الكبيرة. وكثيرا ما اعتقد الأوروبيون والأمريكيون الشماليون أن هذه الهجرات مجرد قضايا اقتصادية. لكن هذا النزوح وانقطاع الجذور شكلا في الواقع تجارب مدمرة أفرزت مضامين

ثقافية واجتماعية ودينية عميقة. وليس من المبالغة الحديث عن تجارب «نهاية العالم» التي واجهتها المجتمعات المحلية والطوائف الأصولية برسالة مبسطة، ارتكزت على التفسير النصي/ الحرفي للكتاب المقدس وقواعد صارمة للاعتقاد والسلوك. هنالك تطورات وطوائف مشابهة في كل مكان من العالم. فإفقار شرائح ضخمة من البشر والاضطرابات الفوضوية التي أصابت ظروفهم الحياتية وفرت الأسباب الضرورية لانتشار تشكيلة متنوعة من الأصوليات الدينية. ولا يمكن للمسيحيين المخلصين من أصحاب الضمير الحي أن يظهروا اللامبالاة تجاه هذا الإرباك والاضطراب والمعاناة.

ولا يمكن أيضا حصر الأصولية في نطاق الطوائف الدينية وحدها. فالجدل المحتدم في العالم حول مسار ومستقبل العولمة يسمه نزاع يمكن أن يعد أيضا صراعا بين «الأصوليين» و«الليبراليين»(17).

كيف تعمل الأصولية؟

يستحيل تقديم صورة شاملة جامعة للأصولية في أرجاء العالم، وليس ذلك ضروريا في سياق هذا الكتاب. لكن من أجل فهم ومغالبة «صدام الأصوليات» الذي يلقي بظله الثقيل على المشكلات السياسية في هذه الأيام، قد يكون من المفيد تعريف وتحديد أوضح استراتيجيات الأصولية للاعتقاد والعمل. أقترح أربعا منها: الاختزال، السلطة المرجعية المطلقة، الإنكار المترافق بالإسقاط، العنف العدواني.

الاختزال

يصح وصف الأصوليات بردود أفعال مَرَضية على الحداثة، ومن ثم يصبح الاختزال طريقة لتبسيط التعقيدات المرافقة للزيادة غير المسبوقة في البيانات والمعطيات من الأنواع كافة. المثال المعبر يجسده التعقيد المحيط بدراسة وتفسير الكتاب المقدس، الذي شكل معلما رئيسا لجذور الأصولية البروتستانتية والكاثوليكية. الأبحاث التاريخية-النقدية والمناهج الاستقصائية ذات الصلة أوجدت انطباعا لدى العديد من المسيحيين، العاديين والمرسمين، بأن الكتاب المقدس مزق إربا إربا، وألغي منه صوت الله، في حين قلصت «الكلمة» إلى إسهامات وتدوينات وتصحيحات مختلف الكتاب على مر العصور. فماذا بقي حين قلص الكتاب المقدس إلى آليات النص والنقل؟ خشي المسيحيون المحافظون من أن مرجعية وسلطة وقدسية الكتاب المقدس تعرضت للتدمير.

من المؤكد أن المشكلات التفسيرية للكتاب المقدس أصبحت بالغة التعقيد للبشر اليوم. وإلى الحد الذي يهيمن فيه النموذج العلمي، يجب على كل جيل تقديم خلفية جديدة وموسعة لقراءته. وأصبح من الصعب فعلا العثور على مقاربة صادقة فكريا، وهادفة وذات مغزى روحيا، ومقنعة أخلاقيا في الوقت ذاته. لكن ردة الفعل الأصولية على هذه المعضلة الإشكالية تمثلت في الاختزال المخل للتعقيدات التأويلية عبر التوكيد على معصومية الكتاب المقدس. وهذه طريقة يائسة لتبسيط المهمات التفسيرية: فهي تعلن أن حقيقة الكتاب المقدس «أنقذت» وأن أولئك الذين يعتنقون هذا الرأي سوف يتحررون من إسار الشكوك الفكرية وما ينجم عنها من

اضطراب روحي وتشوش أخلاقي. وعمل الأصوليون على تأطير مثل هذه الاختزالية في إطار «الإيمان الديني» النقي والبسيط؛ وهكذا يصبح الدين مسألة تتعلق بالخضوع والانصياع، حيث يضحي المؤمن عن طيب خاطر بأي أسئلة نقدية خدمة للحقيقة الربانية المقدسة.

لكن هل يوجد بديل آخر؟ من الوهم التظاهر بأن المسيحي العادي يستطيع تدبر أمر التعايش مع التعقيدات الكاملة للمبحث اللاهوتي. ويجب على جميع اللاهوتيين الأكاديميين ورعاة الكنائس - والناس العاديين خصوصا - تكثيف وإيجاز ثروة المعلومات المتوفرة والتفسيرات ذات الصلة لتصبح على مستوى أفهامهم. أصبح من المستحيل جرد جميع المعلومات المتوفرة حتى عن سفر واحد من أسفار الإنجيل - الرومان مثلا - فضلا على استيعاب التعقيدات المعروضة في «السوق» اللاهوتي ضمن منظومة متكاملة واحدة. فإذا صدق ذلك على دراسات ولاهوت الكتاب المقدس، سيكون أكثر صدقا على تفاعل وتداخل تلك المجالات البحثية المرتبطة بالفروع المعرفية الأكاديمية والبيانات والمعطيات الثقافية والسياسية الأخرى. يدرك من يتمتع بالفطنة والتفكير المتعمق أن على كل منا اختيار البيانات والمعطيات ذات الصلة بإطار المعنى الديني الذي يتبناه. وعلى جميع اللاهوتيين وزعماء الكنائس والناس العاديين اختزال وتقليص الحلول ووجهات النظر المعقدة من أجل الاستفادة منها. وإذا لم نتمكن من التبسيط بهذه الطريقة، لن نتمكن من الاتصال أبدا. لذلك، فإن من الطبيعي للأنظمة الدينية الفرعية، مثل طوائف أو كنائس المناطق، الاتصال على أساس الشبكات التفسيرية، والطقوس المعتادة، وأطر المعنى التي اتفقنا على فهمها بطرق متشابهة.

الشيء ذاته ينطبق على العاملين في مجال السياسة أو غيرها من الأنشطة الإنسانية. ففي حين أنهم ملزمون بتفصيل أكبر قدر ممكن من البيانات والمعطيات ذات الصلة، إلا أنهم بحاجة أيضا إلى سيناريوهات (تصميمات تأويلية) لتنظيمها بحيث يستطيعون استمداد قرارات محددة منها.

من الواضح إذن أن مجتمعاتنا الحديثة تشتغل، إلى حد ما، على الاختزال والتبسيط. لكن ما ليس واضحا هو: هل تعرف الطوائف وبنياتها الفرعية وصناع القرار فيها حقيقة أنها لا تعمل على «الحقيقة» بل على سيناريوهات تمهيدية ابتدائية؟[18] وإلى المدى الذي يجب علينا معرفة العالم كي نعيش فيه، فإن المطلب المهم هو وعي مستمر بالحاجة إلى إعادة كتابة / وإعادة بناء السيناريوهات من أجل التناغم والتكيف مع المعلومات المتغيرة بسرعة. لقد أصبح هذا التقويم المتواصل مكونا حيويا ومهما من مكونات المجتمعات الديمقراطية الحديثة. فإذا فشلت في البقاء في حالة من اليقظة والانتباه والاحتراس تجاه التعقيدات القائمة، فسوف تسقط ضحية للأفراد والجماعات الصغيرة أو وسائل الإعلام التي تزعم أداء العمل عنها بنزاهة وأمانة. وحالما تقبل الشعوب والمجتمعات فكرة أن التعامل مع التعقيدات أمر بالغ الصعوبة أو، أسوأ من ذلك، هي نتاج القوى الشريرة التي تتعمد إيقاع الفوضى والاضطراب والتشويش فيها، لا بد أن تقبل أيضا الآلية الاختزالية بوصفها الحل العملي والممكن الوحيد. أما المشاركة اليقظة والقادرة على نقد الذات في عملية التقويم المتواصلة للبيانات والمعطيات ذات الصلة فهي أمر إجباري وإلزامي على المجتمعات التي تؤدي وظائفها إذا لم تكن تريد الإذعان والاستسلام لـ «الحلول» الاختزالية.

السلطة المرجعية المطلقة

حالما يقبل المؤمنون بالآلية الاختزالية، تقع مسؤولية السيطرة على الشكوك والأخطار المحتملة على عاتق أولئك الذين يزعمون امتلاك القدرة التفسيرية. مرة أخرى نقول: إذا أخذنا المنظمات والمؤسسات الدينية كمرجعية لنا، سنجد زعماء ومرشدين روحيين، أو قساوسة في مراتب عليا يزعمون «معرفة» إرادة الله. ويرسخون منظومة تأويلية يجب أن يتحرك المؤمنون ضمن إطارها. وأولئك الذين ينتهكون حدود هذه المنظومة الاعتقادية هم «خونة القضية»؛ ولذلك فهم خطرون وربما يجب استئصالهم. من المهم أن تحتفظ مثل هذه المرجعيات الروحية المستبدة بالحق الحصري في تفسير إرادة الله، لأن الاختزال الراديكالي للبيانات والمعطيات يشمل انتقاء فكريا محفوفا بالخطر للبيانات يمكن أن يؤدي إلى طرح أسئلة متشككة وغير مستساغة من جانب الأتباع. في الفصل السابق وصفت الاختزال الراديكالي المتأصل في بناء سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية. ورواده (مثل هال ليندسي، وبات روبرتسون، وجيري فالويل، وتيم لاهاي) بحاجة إلى ادعاء السلطة المرجعية الحصرية في تفسير النصوص، وهو ادعاء بوجود دعوة ربانية يتوقعون لها ولاء مطلقا على ما يبدو.

من التقنيات المثيرة التي يستخدمونها لترويج هذه السلطة المرجعية الصارمة ـ والاستبدادية ـ استحضار صورة «الأب» وتعزيزها بالإشارات المرجعية العديدة إلى «قيم العائلة». ودور الأب هو تحمل مسؤولية الطرق والأساليب التي يتربى عليها الأطفال. وعليه أن يقود وعلى أطفاله الطاعة والخضوع. هذه البنية السلطوية.

من الواضح أن هذا النمط لا ينحصر في الأصوليين المتدينين فقط؛ بل يشمل أيضا المجال السياسي. فما إن يختزل الرئيس التعقيدات السياسية ـ فيما يتعلق بالإرهاب مثلا ـ إلى معركة ترتكز على مبدأ «إما / أو» بين الخير والشر، حتى يتعذر عليه القبول بشكل جدي بالجدل الديمقراطي الواسع النطاق حول الأساليب المحتملة لمعالجة هذه المشكلة. بل يأخذ دور الأب الذي يقول: «ثقوا بي»، ليعني ضمنا أنه أفضل من يعرف. فضلا على ذلك، قد يسوغ موقفه الأبوي عبر الإشارة إلى «الأب الأعلى» الذي استهدى قراره بشن الحرب بهديه، مثلما قال الرئيس بوش في مقابلته مع بوب ودوارد (التي أشرت إليها في معرض الحديث عن متلازمة الرابح ـ الخاسر في الفصل الثالث)[19].

لن أنكر أن الأمم والمجتمعات والمؤسسات الدينية بحاجة إلى «سلطات مرجعية»، أي أشخاص مستعدين وقادرين على قبول مسؤوليات والتزامات القيادة. ولا بد من وجود أشخاص يتمتعون بالشجاعة الكافية لقبول أدوار قيادية في مواجهة التعقيدات الكاسحة؛ لأن عليهم أن يكونوا المسؤولين عن تنظيم السيناريوهات اللازمة لإدارة القضايا المعقدة. وعليهم أيضا توفير المساحات الكافية لعمليات إعادة حيازة وتخصيص النتائج المكتشفة من أجل إجراء التعديلات المطلوبة استجابة للبيانات والمعطيات المتغيرة. ونظرا لأن من الصعب على المسؤولين في المواقع القيادية تنظيم تقويماتهم ومراجعهم، فقد أسست المجتمعات الديمقراطية سلامة أداء وظائفها على ركيزة نظام من الكوابح والضوابط والتوازنات. والزعماء السلطويون، خصوصا أولئك الذين يزعمون التمتع بالعون الإلهي، يمثلون خطرا كامنا على الديمقراطيات. ويمكنهم أن يحققوا ازدهارا أوسع ونجاحا أكبر في

الثقافات التي تعودت صور البطل الخارق، ولذلك تميل إلى منح الزعماء سمات وحقوق البطل المتفوق على مرتبة البشر.

الإنكار/ الإسقاط

لا بد للآلية الاختزالية والمرجعية السلطوية أن توجدا حالة يسودها قدر كبير من القلق والإجهاد. وفي حين أن الناس ربما يرغبون في منح زعمائهم الحق في التفكير واتخاذ القرار نيابة عنهم، إلا أنهم بحاجة إلى الاعتراف بمشاعرهم الوجدانية، ومشكلاتهم الروحية، ومعضلاتهم الأخلاقية. وهذا يصدق أكثر ما يصدق على البنى الأصولية. فكلما ازداد التأثير الذي يعزوه الأتباع والمؤمنون إلى زعمائهم، تفاقمت مشكلاتهم عند التعامل مع مشاعرهم وعواطفهم وإخفاقاتهم. وهذا يفسر التهوس بالجنسانية في الأوساط الأصولية المسيحية. فكيف يمكن للمرء أن «يولد من جديد» ومع ذلك يبقى «أسير الجسد»؟ الطريقة السهلة للخروج من المأزق هي إنكار ذنب الخطيئة في الذات وإسقاطه على الآخر - الأجنبي / الغريب أو العدو. فالإنكار ينتج قدرا عظيما من الغضب الكظيم غير المعترف به، الذي يجب توجيهه إلى القوى الشريرة هناك. في الفصول الأولى من هذا الكتاب تناولت قوة الإنكار وتأثيرها التقسيمي في العلاقات بالآخرين. يتضح ذلك بأجلى صورة في سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية: في تصويرها يصبح العالم الذي «لم يتخلص من ذنوبه» ملعبا للشيطان وشروره. وعند هذه النقطة تظهر الأصوليات نزعتها نحو اللجوء إلى العنف.

العنف العدواني

النتيجة المنطقية للآلية الاختزالية، والسلطة المرجعية المطلقة، والإنكار، هي الحاجة الملحة إلى شن الحرب على «قوى الظلام» التي تبدو أنها تهدد بالخطر الأمن المزعزع الذي أسسته الأنظمة الأصولية. أما ثنوية الخير/الشر المتأصلة في منظوماتها الفكرية فلا تسمح إلا بخيارين اثنين: إما هداية «الآخرين» أو تدميرهم، كسبهم وضمهم إلى صفها أو نبذهم وإقصائهم. هذه النزعة المولعة بالحرب تتبدى بوضوح في روايات وأفلام نهاية الزمان، مثل «المتروكون» ـ وغيرها. ويمكن العثور على مثل هذا العزم العنيد في «الحرب على الإرهاب»، خصوصا في عبارة الرئيس بوش المتكررة «النصر الشامل الكامل»، وحجته المرافقة التي تؤكد أن «علينا مواجهة التهديدات قبل أن تتشكل وتكتمل»، التي تعني أن علينا التجول في أرجاء العالم بحثا عن الأعداء لقتلهم[20]. هذا البحث لا نهاية فعلية له، لأن العدوانية التي يزعم تدميرها تعيد خلق ذاتها في كل هجوم.

لا أزعم أن هذه المعالم الأربعة تروي القصة الكاملة للأصولية. لكنني أعتقد جازما أنها تساعد في فهم طبيعة الأنظمة الأصولية ـ دينية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم جميعها معا. وحين نتذكر هذه المعالم، يمكننا أيضا فهم التغيرات في الأوضاع الدينية والسياسية. فخلال العقود الثلاثة الأخيرة اختبر العالم انتشارا غير مسبوق من المقاربات الأصولية لحاجاته ومعضلاته. ولربما يمثل ذلك الجانب الظليل من الموجة الجديدة للعولمة التي اجتاحت العالم في العقود الثلاثة الأخيرة. ويمكننا أيضا ملاحظته في الولايات المتحدة. ومع أن معظم الأمريكيين يحبون الاعتقاد بالاستمرارية المتواصلة للسياسات التي تنتهجها بلادهم، إلا أن هناك تغييرات عميقة

تمظهرت مع نهاية السبعينيات. ويصيب جيمي كارتر حين يكتب عن «نهوض الأصولية الدينية» وعن «الأصولية في الحكومة» بوصفهما ظاهرة برزت منذ أن ترك البيت الأبيض[21]. ويبدي توماس فرانك ملاحظة مشابهة حين يتحدث عن «ردة الفعل العنيفة» التي أوصلت رونالد ريغان إلى البيت الأبيض ومكنت الحزب الجمهوري من تعزيز قاعدة قوته، حتى في المناطق التي ظلت حتى ذلك الحين ديمقراطية غالبا[22]. على الصعيد الشخصي، يمكنني قول ما يلي: «أمريكا» التي عرفتها خلال السنة التي قضيتها في جامعة ييل (1965) ليست «أمريكا» التي أشاهدها اليوم.

المشكلة مع الحداثة: الذات المتقلبة

لا تمثل الأصولية ردة الفعل المرضية الوحيدة على تسارع وتعقيد وتعددية العصر الحديث. فالطريقة المرضية الأخرى للنجاة من ضغوطه هي الاستسلام لها. وصفت هذه الظاهرة بالتفصيل في كتاب روبرت جاي ليفتون «الذات المتقلبة»[23]: بروتيوس شخصية أسطورية من اليونان القديمة، وكان إله جميع الأشكال والهيئات، وعبر هذا الدور الكوني سيطر أيضا على الأمواج. لكن حين فقد قدرته أخذ يستمدها من القوى الأخرى التي تدفعه. فعندما تضرب عاصفة هائجة البحر، يمكن أن تصبح الأمواج كارثية؛ وحين يهب نسيم لطيف تهدأ الأمواج وتسكن. يستخدم ليفتون هذه الاستعارة التشبيهية حين يقول: «نحن نتحول إلى السيولة والميوعة ونصبح متعددي الجوانب والوجوه. ودون إدراك حقيقي لذلك، نطور إحساسا بالحيازة الذاتية لاضطراب وسيولة عصرنا»[24]. ويتابع القول إن التأثيرات التي أسهمت في هذه الحالة النفسانية يمكن اقتفاء

جذورها في عصر النهضة - أي في بدايات العصر الحديث. لكن ليفتون يلاحظ أيضا أن هذا «التقلب» قد ازداد إلحاحا خلال النصف الثاني من القرن العشرين. ويشير إلى «إرباكات واضطرابات التغيير التاريخي السريع، وثورة وسائل الإعلام، والتهديد بانقراض الجنس البشري. حيث تسارعت كلها بطريقة استثنائية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا ما سبب انهيارا راديكاليا للمجتمعات ومصادر السلطات المرجعية السابقة»(25).

في حين أن الذات الأصولية تسعى لإنقاذ نفسها من هذه الفوضى عبر التشبث بالحقائق المطلقة والمصادر «المقدسة» - التي لا تخضع للمساءلة والتشكيك - فإن الذات المتقلبة تسعى للبقاء في هذا الاضطراب العام عبر التحول إلى ذات ومائعة ومطواعة. هذا النوع من تخلي الذات عن مهمة إعادة حيازة منظومات المعنى الموروثة، بسبب تحديات وتشوش العالم المعولم الحديث يبدو أنه خرج عن السيطرة. ومن ثم، تقبل الذهنية المتقلبة النماذج والنزعات والتوجهات السائدة في عصرنا وتتبع دوافعه وبواعثه ووعوده دون مساءلة جدية لها. ليس ثمة قواعد أخلاقية صارمة تتبعها، ولا فضائل شخصية أو اجتماعية تتمسك بها مهما كان الثمن.

يصعب وضع أسماء ووجوه لهذه الذهنية المتقلبة. لكن بمقدورنا الإشارة إلى الممثل والمخرج السينمائي وودي الان، الذي يبدو أنه يتلاعب بالمشكلات الأخلاقية والوجودية التي يواجهها البشر. إذ لا يوجد شيء خارج منظوره الهزلي وحتى المتشكك. وفيلمه «ماتش بوينت» (نقطة الفوز) (2005)، مثال معبر في هذا السياق: بمحض الصدفة يفلت البطل الشاب من العقاب على

جريمته، فالصدفة ـ السعيدة أو المشؤومة ـ هي المحرك الرئيس في حياة الناس. وإذا كانت الحال كذلك؛ فلا يوجد شيء يمكن التشبث به.

المثال الثاني يمكن أن نجده في الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول التي نشرت في الصحيفة الدانمركية «يولاندز بوستن» في الثلاثين من أيلول/ سبتمبر 2005. فبغض النظر عن حقيقة أن هذه الصحيفة تؤيد بعناد الحركة اليمينية بزعامة فوغ راسموسين وسياستها التي تظهر بشكل سافر رهابا مرضيا من الأجانب، فإن نشر هذه الرسوم يظهر ما يمكن تسميته «الأمية الدينية». وعلى ما يبدو، فإن الصحفيين المتورطين لم يدركوا حقيقة عدم جواز إظهار النبي في أي صورة كانت، فضلا عن تقديمه في رسم كاريكاتوري ناقد أو ساخر. وحين أعلم الأصوليون المسلمون في الدانمرك العالم بهذا «الكفر»، أطلقوا موجة غضب واحتجاج عمت أرجاء العالم الإسلامي. وهذا ما دفع الصحفيين في مختلف بلدان أوروبا، خصوصا في فرنسا، إلى إعادة نشر عدد من الرسوم ـ «تضامنا مع زملائهم الدانمركيين» ودفاعا عن الحق الديمقراطي - المزعوم في «حرية التعبير». أظهر ذلك كله قلة حساسية تجاه المعتقدات الدينية للمسلمين. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الصفحات (شباط/ فبراير 2006)، يكشف العديد من السياسيين والصحفيين عن سذاجة ذات متقلبة حين يعبرون عن دهشتهم من أن يسبب مثل هذا الحدث هذا الغضب العارم ويؤدي إلى ردود الفعل العنيفة في البلدان الإسلامية.

يعكس المنظور المتقلب بطريقة غريبة الرؤيوية في الجانب الأصولي. فإذا صدقت نبوءات الهلاك المحتوم فلم نهتم ونعاني؟ وإذا صدق أولئك الذين يزعمون أننا جميعا على «التيتانيك» المتجهة نحو اصطدام مهلك مع الجبال

الجليدية للحرب النووية، أو الشتاء البيئي، أو معركة ارماجيدون، أو الموت الجماعي نتيجة فيروس العوز المناعي المكتسب/ الإيدز، فلم نهتم بحالة العالم بعد خمسين سنة من الآن؟

هذا لا يعني أن الأشخاص المتقلبين سيئون بالضرورة؛ فقد يتميزون بالسخاء، إذا كان ذلك هو ما يفعله الناس؛ لكنهم مهملون إذا ظهرت توقعات أخرى. ويبدو أنهم لا يستقرون على هدف، ولا يتمتعون بالقدرة على التحمل في أوقات الشدة. إذ يسود لديهم مبدأ «اليوم خمر وغدا أمر». وعلى الرغم من حقيقة ولع صناعات الترفيه ومراكز التسوق بهذا النوع من الذهنية، إلا أنها تمثل ردة فعل مرضية، شكلا من الانهيار الفكري والعاطفي/ الوجداني. في الواقع أنا أعرض فكرة الذات المتقلبة لسببين اثنين:

1- دون الغوص في التفاصيل، أعتقد أن بمقدورنا القول بكل ثقة إن التقلب معروف لدينا تماما. وسيوافق معظم الناس بالتأكيد على أن البواعث المتعددة الجوانب والسريعة التغير في حياتنا اليومية تدفعنا إلى تطوير نوع من الهوية المرقعة التي تمكننا من استيعاب سلسلة واسعة من الطرق والاتجاهات والميول. لكن، في حين أننا على قناعة بأن الانفتاح والتعددية من الجوانب الجوهرية الجيدة في عالمنا الحديث، إلا أننا نعاني أخطارهما الداهمة. فهل تتمتع الذات المتقلبة بما يكفي من المرونة لاتخاذ الخيارات الضرورية باستمرار؟ يبدو أن ليفتون يعتقد ذلك، لكنه يعترف بأن التقلب يمكن أن يتحول أيضا إلى مجرد انعكاس للتشظي الذي يحاول مواجهته. وهو يتحدث عن «التقلب المختل الوظيفة»[26]، وعن ذات متشظية «ليست ممركزة أو غير ممركزة، بل لا ممركزة»[27].

أنا أحاول أن أتعاطف مع التقلب والأصولية، لأنهما من الحقائق الواقعية القريبة منا. وحين أقترح الإشارة إلى التعامل مع الظاهرتين بوصفهما من ردود الأفعال المرضية على الحداثة، فأنا لا أرغب في تبريرها وإنكار أخطارهما. بل أريد توكيد أن من الضروري إذا رغبنا في التعامل معهما بنجاح الاعتراف بأن أخطاء كثيرة تحدث في عالمنا الحديث. وإذا أردنا مغالبة النزعتين المتطرفتين كلتيهما علينا اللجوء إلى النقد الذاتي حين نتفحص مثالب ونواقص وشراك الحداثة. وعلينا الاهتمام بالتغييرات الضرورية لنا للتغلب على تصلب وتشدد الأصولية وميوعة وعشوائية التقلب. ما الذي يمكن فعله لإيجاد أوضاع مستقرة يمكن لأطفالنا وشبابنا العثور فيها على الاستقرار والأمان دون خسارة فضولهم؟ ما هي الطاقات المتحضرة التي نحتاج إليها للحفاظ على عالمنا «المتحضر» منظما ومرتبا؟ هل ثمة طريق يتوسط انحسار الذات الأصولية وتشظي الذات المتقلبة؟

في الحقيقة، نحن لا نبدأ من الصفر. وعلى أولئك الذين يحاولون منا تجنب الحدين المتطرفين توكيد أنهم يمثلون الأغلبية. في الولايات المتحدة، مثلما هي الحال في أوروبا وغيرها من مناطق العالم، تشارك الأغلبية الساحقة من السكان في هذا العمل الحضاري والتحضيري باستمرار عبر إيجاد وإعادة إيجاد مساحة من الثقة وأرضية آمنة تمكنهم هم والأجيال القادمة من العيش حياة هادفة وذات مغزى في خضم ـ وعلى الرغم من ـ الاضطراب والشواش والفوضى. بكلمات أخرى، علينا منع الأصوات المتطرفة من الهيمنة على النقاش والحوار.

2- السبب الثاني الذي دعاني إلى أن اقترح الحديث عن الذات المتقلبة عند التعامل مع الأصولية هو الخطر الناجم عن إدانة الأصوليين لكل ما يقع خارج مجالهم بوصفه مائعا ورجراجا وفوضويا وفاسدا وبذيئا. في الوقت ذاته، هنالك الخطر الناجم عن إدانة أصحاب الذهنية المتقلبة لكل ما يقع خارج بواعثهم المرنة للاستيعاب والتكيف بوصفه عنيدا ومتصلبا ومتزمتا. ويبدو أن أصوات الجانبين المتطرفين هي المسموعة في حين تصمت أصوات أولئك القابعين في الوسط بينهما. فالخطاب العام المتعلق بالرؤى والقيم التي ترشد وتهدي المجتمع اختطفته مكبرات الصوت التابعة للمتطرفين الأصوليين وأصحاب الذهنية المتقلبة. فهي تدخل نزعة حربية مولعة بالقتال تباعد الشقة بين الناس، وبذلك تنزع إلى الانسحاب إلى ثقافات فرعية متعارضة. أما النتيجة فهي تعرض سلامة ووحدة المجتمعات ومرونة الحضارات للوهن والضعف. والمثال المقلق هو المعركة الغريبة بين الجماعات الإسلامية، خصوصا في الشرق الأوسط، و«الغرب» التي أشعلت فتيلها الرسوم الدانمركية المسيئة للرسول. لقد اختطف المتطرفون الأجندات السياسية.

المعضلة الأصولية - مثالان اثنان

لماذا تحظى الأصولية بهذه القوة في الولايات المتحدة؟ لا يمكن أن يكون البؤس الاقتصادي هو الذي يدفع الناس في أمريكا الوسطى والجنوبية إلى الأوساط الأصولية (مع أن توماس فرانك يعتقد أن التغيرات الاقتصادية

الحادة في أجزاء من الغرب الأوسط أسهمت في نهوض المعتقدات الأصولية)[28]. ولا مشاعر الذل والعار هي التي دفعت الكثيرين من المسلمين إلى مناصرة المواقف الأصولية والجماعات المتطرفة المشابهة. لكن إذا صدقنا الإحصائيات، نجد أن قرابة ثلث السكان في الولايات المتحدة يتبعون أفكارا وممارسات أصولية. إذ تهيمن الكنائس الوطنية الكبرى المغالية في توجهاتها المحافظة وزعماؤها على محطات الإذاعة والتلفزيون في شتى أرجاء البلاد، لماذا؟ ولمَ تغذي الانطباع بأنها في حالة حرب تدافع فيها عن نفسها بعناد في مواجهة أعداء يتمتعون بقوة ساحقة داخل وخارج الوطن؟ أحد الأسباب قد يكون العداء المستفحل في الولايات المتحدة بين المواقف الأصولية والمتقلبة.

ربما يمكننا القول إن الولايات المتحدة ليست فقط الرابح الأكبر من الحداثة بل هي الخاسر الأكبر أيضا. فعلى الرغم من مرابحها من آخر موجات العولمة، إلا أنها تواجه أيضا التعقيدات المهددة التي تستدعيها هذه الحالة المضطربة. ومن الواضح أن مزايا ومثالب الحداثة المعولمة متشابكة ومتناسجة. ومكانة أمريكا بوصفها القوة العظمى الوحيدة في العالم معروضة كاملة في روعة وتألق ووفرة المصارف، ومراكز الأبحاث، ومراكز التسوق، فضلا على الملاجئ الحصينة التي تخبئ الصواريخ النووية؛ في الوقت ذاته، فإن الجانب المظلم العنيف مرئي أيضا في بلداتها الصغيرة المتهالكة (خصوصا التي يقطنها السود) وسجونها المكتظة. الولايات المتحدة هي زعيمة الأمم الغنية المتقدمة ودولة من العالم الثالث في آن معا. وهي كبيرة ومجهولة وواسعة إلى حد يشمل أشد المجموعات غرابة والمواقف شذوذا؛ كل شيء فيها من يفاع النبل إلى

حضيض البذاءة، يبدو ممكنا ـ ومسموحا. سمها ما شئت: انغماس في الملذات، أو مادية، أو حب العنف، لكن يبدو أن الخطوط الكفافية للحرية وحدود الانفتاح قد بهتت.

لذلك، ليس من المفاجئ أن يرى الأصوليون أعداءهم متربصين عند ركن وخلف كل منعطف، ويعدوا «رسالتهم» تكمن في محاربتهم أينما وجدوهم. أما استحضارهم لما يسمى بقيم العائلة الأمريكية التقليدية فمحاولة لإعادة الأمة إلى نقائها الأصيل واستقرارها الأصلي كما يزعمون. بكلمات أخرى، يقود ثقافة الحرب التي تجتاح الولايات المتحدة حاليا أعداء ألداء من المتطرفين الأصوليين وأصحاب الذهنيات المتقلبة. والضغوط كبيرة على الطبيعة الديمقراطية للمجتمع الأمريكي. ففي حين أن الأصوليين يتبنون وجهات نظر استبدادية ـ بل حتى ثيوقراطية ـ فإن أصحاب المواقف المتقلبة لا يأبهون لذلك البتة.

في كتاب «ما الذي جرى لكنساس؟» يصف توماس فرانك بالتفصيل كيف استخدم الزعماء السياسيون مرارة واستياء الأمريكيين المفقرين في أماكن مثل كنساس لإثارة غضبهم وحنقهم على تعجرف «الليبراليين» وصلف «النخب» في «الولايات الزرقاء». واستغلوا صورة المواطن الأمريكي الحقيقي والأصيل وهو محاصر بالإباحية ومطوق بالانحلال والفساد. يستشهد فرانك بفيل كلاين: «وهكذا، نسمع من ساحل أن التعهد ليس دستوريا، ومن الساحل الآخر ضرورة إتاحة الفن الإباحي للأطفال..»[29]. إن نظرة على الصناعات الترفيهية تبدو كافية لتهييج مشاعر الخوف والغضب لدى الأصوليين. فها هو فيلم « جبل بروباك» الذي يدور حول اثنين من رعاة البقر المثليين يفوز بجائزة أفضل فيلم لعام 2005. أما

جائزة أفضل ممثلة فذهبت إلى فيليستي هوفمان التي اشتهرت بدورها في فيلم «ربات بيوت يائسات» السيئ السمعة، حيث لعبت هذه المرة دور امرأة تنتهك الحدود الجندرية بين الجنسين في فيلم «عبر أمريكا». في حين ذهبت جائزة أفضل ممثل إلى سيمور هوفمان على تجسيده شخصية الكاتب المثلي ترومان كابوت في فيلم «كابوت».

يمكن رؤية هذه الإشارات الدلالية المتحدية لـ«الطبيعي والمألوف» بوصفها تعبيرات متوقعة من التعددية النمطية في انفتاح الديمقراطية الأمريكية. لكنها بدت للذين حوصروا في إسار ذهنية «إما / أو» دلالات أكيدة على بلاد تخون قيمها الجوهرية وتحتاج إلى وضعها على جادة الصواب من جديد ـ بالقوة إذا لزم الأمر. هذا هو الانقسام القائم على مبدأ «إما / أو» نفسه الذي ناقشته في موضع سابق من هذا الكتاب. وهو ينتشر داخل الولايات المتحدة وعلى المستوى الدولي أيضا: حيث يضيف ملاحظة عدوانية إلى الاستثنائية التي تضع الولايات المتحدة فوق أو ضد «بقية» العالم. ويساعد في تفسير العنف الرؤيوي المتضمن في سيناريوهات نهاية الزمان، مثل «المتروكون»، ويهيمن على أساطير البطل الخارق في متلازمة الرابح ـ الخاسر.

الحرب على الإرهاب هي التعبير السياسي المنطقي لهذه الهواجس الأصولية. والحلول الصارمة التي تزعم تقديمها هي نتاج للاختزال الراديكالي للتعقيدات والمظالم العالمية إلى مجرد انقسام بين الخير إزاء الشر، الذي ينتج بدوره ذهنية لا تسمح بتفكير جدي في البدائل. ونتيجة لذلك كله، تسود الأشكال السلطوية الاستبدادية للزعامة، ويصبح العنف الواسع النطاق أمرا محتوما يتعذر اجتنابه (هذا العنف لا يقتصر على

ساحة المعركة فقط، بل يمتد إلى معسكرات الاعتقال وغرف الاستجواب أيضا). من الواضح أن مثل هذا العنف الأصولي يستفز ويعمق ردود أفعال عنيفة. هذه الحلقة المفرغة من العنف ورد الفعل العنيف هي التي تعطي «صدام الأصوليات» حتميته الوحشية وتغلق مقدما أي احتمال للسلام. ولا شك في أن الحرب التي شنها الرئيس بوش على عراق صدام حسين نتاج واضح لهذه المعضلة الأصولية. فعلى الرغم من إعلان بوش الانتصاري في أيار/ مايو 2003، بأن مهمة الغزو قد «أنجزت» إلا أن الحرب مستمرة وتهدد بالامتداد إلى جيران العراق. وحتى إذا استطاعت الولايات المتحدة تدبر أمر إعادة جنودها إلى الوطن، فإن حالة الحرب سوف تستمر على مستويات متفاوتة من العنف والحدة. فقد دمرت كنوز لا يمكن تعويضها، واشتدت مشاعر الغضب والكره إلى حد يصعب فيه تهدئتها في المستقبل المنظور.

دعيت الحرب على العراق «عملية الحرية العراقية». وليس من المفاجئ أن العديد من العراقيين اختبروا معاناة هذا النوع من الحرية بوصفها عملية إذلال إضافية. وعلى الرغم من أن معظمهم شعروا بالارتياح لإزاحة صدام حسين، إلا أنهم لا يرتاحون كلهم لوجود الأمريكيين في بلادهم. كيف حدث واستمر ما دعاه توماس فريدمان (وهو لا يعد بالتأكيد صديقا للشعوب العربية) بـ«الصدّامية»؟ يصف فريدمان هذا الموقف بأنه«متجذر في صلب الذهنية العربية، حيث ولد نتيجة سنوات من الاستعمار والإذلال»، موقف يلح على أن تعزيز واسترجاع الكرامة العربية والقومية العربية عبر تحدي الغرب أكثر أهمية من الحرية والديمقراطية والتحديث[30]. بكلمات أخرى، يرفض

العراقيون الوعد بالحريات الأمريكية لأنه لا يعني تحررا من سنوات الإذلال والهوان.

يقودني ذلك إلى المثال الثاني الذي يبدأ مع سؤال كثيرا ما طرح بعد الحادي عشر من سبتمبر: كيف يمكن أن يكون الشبان المسلمون الذين خطفوا الطائرات لتدمير البرجين التوأمين ومبنى البنتاغون من الطلاب الناجحين والموسرين الذين ينتظرهم مستقبل واعد؟ إذ لم يأتوا من عائلات فقيرة، ولا تعرضوا لظروف يائسة ومهينة. وفي الحقيقة، امتلكوا جميع الوسائل اللازمة للنجاح حتى في العالم الغربي. لكن ربما كان ذلك هو السبب نفسه بالضبط الذي جعلهم يقررون التضحية بحياتهم في محاولتهم قتل أكبر عدد ممكن من «الأعداء». انطباعي هو أنهم وجدوا أنفسهم في معضلة حادة من الفوضى وانقطاع الجذور: «فمن ناحية، كان عليهم حيازة منظومات المعنى الموروثة»؛ ومن ناحية ثانية، وجب عليهم التعامل مع وعود وإغراءات العالم الحديث. من الممكن أنهم شعروا بتمزق وجداني بين ذواتهم الأصولية، أي القيم التقليدية لأصولهم الإسلامية، وذواتهم المتقلبة، أي الفرص في الغرب بأساليبه الحياتية الليبرالية ـ والخليعة.

أعتقد أن من المنطقي الافتراض أن هذه المعضلة الساحقة صعب كثيرا على هؤلاء استيعابها. وكلما اقتربوا من الخيارات المغوية في العالم الغربي اشتد تأثير الخيار الوحيد المتاح أمامهم بين الاستسلام لإغراءات الغرب و«خيانة» ثقافتهم الموروثة أو محاربة هذه المغريات مهما بلغ الثمن. وهكذا، كانوا بحاجة إلى أبلسة الانفتاح المتقلب للديمقراطيات الغربية، لأن ثروة الخيارات التي تعرضها هذه الديمقراطيات تبدو وكأنها خارجة عن

السيطرة. المخرج الوحيد هو الانسحاب الأصولي إلى التضحية بالنفس، التضحية بالحياة في مواجهة مغريات الوجود العذب المريح، لكن العبثي، تحت طغيان «الشيطان الأمريكي» الفتان.

على نحو مشابه، وتجاهل حقيقة أن كل سورة من سور القرآن تفتتح باسم الله الرحمن الرحيم. وهم لا يجرؤون على التأمل والتفكر بما تعنيه الرحمة التي تشكل الدافع الأصيل والجوهري في الإسلام. ولا يوفر تطرفهم الحيز الكافي لملاحظة الأخلاقية في دينهم. حتى في حالة الجهاد القصوى، يجب عدم المساس بغير المحاربين - خصوصا النساء والأطفال. ولا يعرف الإسلام وفقا لمصدره الأول، القرآن، شيئا مثل «الضرر العرضي أو الإضافي» (قتل المدنيين في الأعمال الحربية).

كيف نتعامل مع الأصولية؟

إذن، كيف نتغلب على الأصولية؟ هنالك العديد من الجوانب والملامح التي تخطر على البال، وملاحظاتي ستكون مجرد مساهمة صغيرة في هذه المهمة الكبيرة. على المستوى الشخصي، أود توكيد حقيقة أن المؤمنين الأصوليين يستحقون احتراما عميقا على ولائهم وإخلاصهم والتزامهم. ومن الضروري الاعتراف بالألم الذي يشعر به الكثيرون منهم حين ينظرون إلى العالم وأخطاره. وحتى عندما نميل إلى اعتبار معظم هذه الأخطار متخيلة أو موهومة أو مغالية، فإن من المهم فهم أن بعضها حقيقي وداهم. أما السؤال الجوهري الذي يطرحه بروز هذا القدر من الأصولية فهو: ما هي الأصول الجوهرية التي نحتاج إليها في خضم عالم معقد ومعولم إلى حد يثير القلق؟ ما هي «الحقائق البدهية الواضحة» التي

يحتاج الناس من جميع الثقافات والديانات إلى حيازتها في المرحلة المبكرة من القرن الحادي والعشرين؟ كيف يمكن أن نتمسك ـ ونعيد بناء ـ هذه القيم والمعايير القانونية والبيئات المستقرة التي نحتاجها لإيجاد صور شاملة وموثوقة لمستقبل يستحق أن نعيشه في وجه تسارع التقانة، وتزايد التعقيدات الفكرية والأخلاقية، وتفاقم التفاوت الاقتصادي والثقافي، وتعاظم العداوات الدينية؟ هذه الأسئلة الملحة مهمة للناس في المجتمعات المتقدمة صناعيا والمسرفة بيئيا والميسورة اقتصاديا، بقدر أهميتها لشعوب ما يسمى بالعالم الثالث. بدلا من تجاهل الأصولية بوصفها لا عقلانية وغير ذات صلة، يجب أن يستلهم جميع أصحاب النيات الحسنة منها عزمها المصمم على إجراء بحث عنيد عن تلك القيم والمعايير التي نعدها جوهرية لحياة أحيائنا السكنية، ومجتمعاتنا المحلية والديمقراطية ـ أي وطننا الدنيوي.

يقودنا هذا كله إلى المستوى الاجتماعي. لم يكن الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس الوحيد الذي يثير السؤال المتعلق بقدرة ديمقراطياتنا الغربية على توفير / إعادة ابتكار القيم التي توجد وفقا لها. واستجابته تمثلت في أن مرونة أنظمتنا الديمقراطية لا يمكن أخذها كقضية مسلم بها. لذلك فإن الجدل العام، كما يؤكد، بحاجة إلى تنشيط، ومن أجل الوصول إلى تلك الغاية نحن بحاجة إلى تطوير مجتمع مدني حيوي ونشيط(31). عند معاينة الولايات المتحدة من منظور أوروبي، يبدو ذلك ضروريا جدا إذ لا توجد قوة خارجية قادرة على تحدي النظام الديمقراطي في الولايات المتحدة. ومثلما حاججت آنفا، يضيق المتطرفون من الأصوليين وأصحاب المواقف المتقلبة الحيز المتاح الذي يمكن فيه للجدل العام الداعم

للديمقراطية الأمريكية أن يجري. أي أن الأعداء الوحيدين الذي يجب أن يخشاهم الشعب الأمريكي هم أعداء الداخل.

كيف نواجه المتطرفين من الأصوليين وأصحاب المواقف المتقلبة على المستويات الدينية؟ من هم الأصوليون الذين نتفق عليهم جميعا مهما اختلفت دياناتنا وأوطاننا؟ كيف نعيد بناء الحيز المطلوب لتوطيد علاقات مستدامة بين شعوب العالم ردا على القوى التي تفرق شملها؟ ما هي الصور والرؤى، والرموز والقيم التي تمكننا من التوافق مع مواطن الضعف التي تعلّم حياتنا الفانية على الأرض؟ يحظى هذا الاهتمام بأولوية عاجلة وخاصة لأولئك المنتمين إلى طوائف ومجتمعات مسيحية. وإذا أردنا أن نكون عباد الله الصالحين، كيف نعزز وندعم هذه المهمة في مواجهة السيناريوهات الرؤيوية «للصناعات الترفيهية / العقيدية» الأصولية، إضافة إلى التدين المرقع الذي يتعامل مع المعتقدات والشعائر والممارسات الدينية بوصفها «سلعا وبضائع» يمكنك شراؤها من مراكز التسوق؟

أخيرا، كيف يمكننا، كمواطنين في العالم، العمل على صياغة سياسات تستبدل بسيناريوهات «الصدام» المدمرة للذات مفاهيم عن حياة دائمة ومستدامة ؟ لست واثقا أن الناس في المانيا، أو أي بلد أوروبي آخر، قد وجدوا إجابة مرضية. ومعظمهم يفضلون تجاهل المشكلات الفوضوية في العالم والاهتمام بشؤونهم الخاصة. هنالك اتجاه لترسيخ ذهنية ترى أوروبا «قلعة حصينة» مصممة على إبعاد الأفارقة أو الآسيويين الذين يريدون تسلق أسوارها. من ناحية أخرى، يعرف العديد من الأوروبيين أن قارتنا صغيرة ومفتوحة، وقريبة من الصراعات التي تجتاح أوروبا الشرقية

والشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن الكثيرين يتبنون مقاربة براغماتية تستهدف احتواء الصراعات المحتملة والمحافظة على أساليب الحوار ـ والعلاقات الاقتصادية ـ متاحة ومتوفرة، إلا أن هناك أيضا عداء متجذر وحتى مواقف تعبر عن خوف رهابي من الأجانب ظهرت على السطح عند اندلاع «حرب الرسوم الكاريكاتورية» في أوائل عام 2006.

من الواضح أن الصراع على المضمون الإلحادي الكافر للرسوم الكاريكاتورية في صحيفة «يولاندزبوستن» يجب اعتباره عرضا جانبيا غريبا للصدام الأوسع الذي تؤدي فيه الولايات المتحدة الدور الرئيس. وحتى في هذه الحالة، يظهر أن البلدان الأوروبية لا يمكنها ادعاء «الحيادية والنزاهة» عندما يتعلق الأمر بمواجهة أسئلة تتصل بتعايش شعوب العالم معا.

في حين يعد هذا سؤالا صعبا للأوروبيين، فقد يكون أشد صعوبة للمواطنين الأمريكيين. فقد اعتادوا، أكثر من جيرانهم على هذا الطرف من الأطلسي، الوعود الانتصارية للاستثنائية المسيحانية، التي يحملها بعضهم إلى حدودها الرؤيوية القصوى، ويقرنها آخرون بصور البطولة الخارقة «للقوة العظمى» العالمية[32]. وبالطبع، يدرك العديد من المواطنين أن عالما يقبع هناك ويعاني مشكلات هائلة وتحديات كبرى. فضلا على ذلك، هنالك الأرض ذاتها التي تظهر علامات متزايدة على القلق وعدم الاستقرار، كأنما استنفدت طاقاتها على التحمل أو تكاد. هنالك أيضا السياق المحير والمربك الذي يحاول الفصلان الباقيان من هذا الكتاب تقديم بعض الإجابات عنه.

هوامش

1- انظر:

Samuel Huntington, «The Clash of Civilizations,» Foreign Affairs 72, no. 3 (1993), 22ff.

توسعت المقالة وتحولت إلى كتاب بعنوان:

The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (New York: Simon & Schuster, 1996).

2- Bernard Lewis, «The Roots of Muslim Rage,» The Atlantic Monthly, September 1990.

3- انظر:

Michael Hirsh, «Bernard Lewis Revisited,» Washington Monthly, November 2004: http:/www.washingtonmonthly.com/features/20040411/.hirsh.html(accessed Jan. 16, 2006).

4- انظر:

Ram Adhar Mall and Klaudius Gansczyk, «Interkulureller Humanismus als Hoffnung fur das 21. Jahrhundert,» Hoffnung Europa: Strategie des Miteinander (Hamburg: Global Marshall Initiative, 2006), pp. 63 - 79.

5- Tariq Ali, The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihad and Modernity (London, New York: Verso, 2002).

6- Ali, Clash of Fundamentalisms, p. 3.

7- Thomas L. Friedman, New York Times, March 28, 1999, quoted by Tariq Ali, Clash of Fundamentalisms, pp. 260f.

للاطلاع على شرح أكمل للنزعة الانتصارية في الولايات المتحدة، انظر:

Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree (New York: Farrar, Strauss & Giroux, 1999), where he repeats the same statement on page 373.

8- طور ليكوف مفهوم «أطر المعنى» حديثا في كتاب:

Don't Think of an Elephant (White River Junction, VT: Chelsea Green Publishing, 2004).

9- انظر:

Armstrong, The Battle for God (New York: Ballantine, 2001).

انظر أيضا:

Klaus Kienzler, Der religiose Fundamentalismus: Christentum, Judentum, Islam (Munchen: Buchergilde Lizenzausgabe, Beck'sche Verlagsbuchhandlung, 1996)

10- Mark A. Noll, A History of Christianity in the United States (Grand Rapids: Eerdmans, 1992), pp. 38182-.

11- Noll, History, pp. 383 - 84 .

12- Noll, History, pp. 44 5 - 46.

13- للاطلاع على مثال آخر، انظر:

The editorial «Fundamentali or Fundamental?» Brethren Revival Fellowship, BRF Witness, vol. 28, no. 6 (Nov./Dec. 1993):

www.brfwitness.org/Article/1993v28n6.htm(accessedDec. 16, 2005).

14- في معرض توضيح كاينزلر لتعريف الأصولية التي تحمل قيمة سلبية قوية، يقتبس من المختص في العلوم السياسية توماس ماير، حيث يقول: «الأصولية حركة عنيدة في انعزاليتها ومعارضتها للعملية الحديثة من الانفتاح العام في التفكير والعمل وأشكال الحياة والمجتمعات، حيث تعد بأمان مطلق، ومواقف صلبة، وعلاقات يمكن الاعتماد عليها، وتوجه لا يدحض بواسطة الإدانة اللاعقلانية لجميع البدائل». انظر:

Kienzler, Fundamentalismus, p. 15.

15- انظر:

Kienzler, Fundamentalismus, pp. 60 - 63. The Two most important texts are the Decrete of the Holy See «Lamentabili» and the Papal Encyclical »Pascendi.»

للاطلاع على المصدر الأمريكي، انظر:

The Encyclopedia of Christianity, vol. J-O, Erwin Falbusch, ed. (Grand Rapids: Eerdmans, 2003), p. 610

16- من بين أبرز «ضحايا» هذه الأصولية مواطني وزملائي من اللاهوتيين: هانز كونغ ويوجين درورمان؛ وفي أمريكا اللاتينية، ليونارد بوف؛ وفي الولايات المتحدة، تشارلز كوران وماثيو فوكس (الذي طرد من الدومنيكان).

17- سوف أستشهد هنا بمثال معبر: اقترحت شبكة دولية مكونة من مؤسسات عديدة

(GlobalContactFoundation,GlobalMarshallPlanFoundation, Club of Budapest, Club of Rome, Okosoziales Forum Europa,

Global Society Dialogue)

تشكيل «خطة مارشال العالمية». واعتمدت اقتراحاتها لإقامة «مشروع كوكبي» على الأهداف الألفية للتنمية التي وضعتها الأمم المتحدة بغرض تشجيع «اقتصاد السوق الاقتصادي ـ الاجتماعي». أما العلماء المشاركون في هذه المؤسسات فلم يراودهم الشك في حقيقة أن مثل هذا المشروع ملح ويمكن إدارته ماليا. لكن تعرض لعراقيل مستمرة، إن لم يتوقف كليا، بسبب «المتشددين» من الاقتصاديين والسياسيين في العالم الذين تشبثوا باعتقاد أن نظام السوق الحر القائم حاليا يمكن/وسوف يحل مشكلات العالم. هذه «الأصولية الاقتصادية» هي التي تمنع تجريب واختبار مقاربات جديدة على المستوى العالمي. انظر:

Franz-Josef Radermacher, Global Marshall Plan: Ein Plaketary Contract fur eine Okosoziales Marketwirtschaft (Vienna: Okosoziales Forum Europa, 2004).

18- وحتى اقتراح أن هذه حقيقة سوف يعارضه من يعتقدون أن المشاعر النفسية اليقينية كافية لترسيخ حقيقة ما نعتقد به.

19- اتخذ الرئيس جورج بوش هذا الموقف حين تعرضت حرب العراق إلى انتقاد حاد. تقول رواية بوب ودوارد اعتمادا على هذه المقابلة: «هل طلب السيد بوش النصيحة من أبيه؟ سألت الرئيس عن ذلك. فأجاب: «لا»، ثم لجأ إلى موقف دفاعي. ثم قال شيئا أذهلني فعلا. فقد قال عن أبيه: 'إنه الأب الخطأ الذي ألجأ إليه طلبا للنصيحة. الأب الخطأ الذي أذهب إليه، فيما يتعلق باستمداد القوة». وأضاف بعدها: «هنالك أب أعلى ألجأ إليه».*

انظر:

«Woodward Shares War Secrets,» CBS News (online),

* تعالى الله عن ذلك الادعاء.

April 18, 2004: http://www.cbsnews.com/stories/2004/15/04/60minutes/main612067.shtml (accessed Jan. 18, 2006).

20- انظر:

Garry Gilmore, «Bush: U.S. Seeks Total Victory,» United States Department of Defense, News Information Service, Aug. 22,2005: http://www.defenselink.mil/news/Aug200520050822/04 25 _ html (accessed Jan. 16, 2006).

21- Carter, Our Endangered Values, pp. 30ff., 94ff.

22- انظر:

Thomas Frank, What's the Matter with Kansas? How Conservatives Won the Heart of America (New York: Metropolitan Books, 2004).

23- Robert Jay Lifton, The Protean Self: Human Resilience in an Age of Fragmentation New York: Basic Books, 1993).

24- Lifton, Protean Self, p. 1.

25- Lifton, Protean Self, p. 3.

26- Lifton, Protean Self, p. 202.

27- Lifton, Protean Self, p. 206.

28- Frank, Kansas, esp. chapter 2.

29- Frank, Kansas, p. 232.

30- انظر:

Thomas L. Friedman, «The Sand Wall,» New York Times, April 13, 2003, IV, 13.

31- Jurgen Habermas, The Future of Human Nature (Cambridge:

Polity Press, 2003); see esp. chapter 3, «Faith and Knowledge» (pp. 101 - 15), which was first published in Habermas's Glauben und Wissen (Frankfort/Main: Suhrkamp Verlag, 2001).

32- انظر:

Michael Hirsh, At War with Ourselves (Oxford/New York: Oxford University Press, 2005), p. 7 and elsewhere.

يصيب هيرش حين يقتفي أثر تعبير /uberpower/ في فلسفة فريدريك نيتشه دون إدراك إساءة استخدامه من قبل الفاشست الألمان. فقد تحدث نيتشه عن /Ubermensch/، الإنسان الذي تضعه قوته فوق بقية البشر. وعند تطبيق هذا النوع على القوة الأمريكية، يثبت هيرش جميع مخاوف أولئك الذين خضعوا لها.

ـ 7 ـ

الصراع على اللّه في أمريكا

«فليبارك اللّه أمريكا!». الألفة والسهولة اللتان يستحضر بهما «اللّه» في الحياة العامة في الولايات المتحدة ربما يشيران ابتداء إلى المراقب الخارجي بأن كل فرد من الأمة يوافق بكل ثقة على طبيعة هذا الإله. لكن هنا بالضبط تبدأ المشكلة. فاللّه يمثل للأمريكيين عدة وجوه وجوانب. بعض الملامح تذكرني بـ«مارس» إله الحرب في روما القديمة. وحين أنظر إلى تمثال الحرية، أتذكر فينوس ربة الجمال والحب القديمة. أو مردوخ، الإله البابلي الذي «خلق» العالم من العماء والشواش بواسطة العنف الإنقاذي، كما اقترح والتر وينك. فقد ذكر في كتابه «إشراك القوى» أن «أسطورة العنف الإنقاذي تدعم بركائزها الثقافة الشعبية الأمريكية، والدين المدني، والمشاعر الوطنية، والسياسة الخارجية، وأنها تتربص كالأفعى في جذر نظام الهيمنة الذي ميز الوجود البشري منذ ما قبل حكم بابل للعالم القديم»[1].

لكن لا تكفي الإشارة إلى الشخصيات الأسطورية للديانات القديمة. فحين يتحدث الرئيسان كلينتون وبوش عن اللّه فهما يشيران إلى إله

الكتاب المقدس. لكن ذلك لا يجعل مسألة طبيعة الله في نظر الأمريكيين أكثر سهولة في التمييز للمراقب الخارجي. فـ«الله» الذي شن جورج بوش باسم سلطته وإرادته الحرب على العراق لا يبدو أنه «الله» ذاته الذي يعارض باسمه العديد من المسيحيين هذه المغامرة. الكنيسة المنهجية (الميثودية) المتحدة، التي ينتمي إليها الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني، عارضت صراحة الحرب. في كانون الثاني/ يناير 2006، وقع تسعة وتسعون أسقفا وخمسة آلاف عضو بيانا يأسف «للغزو الظالم واللاأخلاقي واحتلال العراق». مخاوفهم عززتها أيضا مخاوف الأساقفة الكاثوليك في الولايات المتحدة[2]. أبلغني أحد الأصدقاء في حديث خاص بيننا، أن ثلاثة أرباع رعاة الكنائس (المرسمين) في الولايات المتحدة يعارضون مسيحية بوش، في حين يتفق معها ثلاثة أرباع أعضاء الأبرشيات، وذلك وفقا لتقديراته. ومع أن هذا التقدير غير الرسمي لا يتوافق مع نتائج الاستطلاعات العامة، التي تظهر انقساما متعادلا في الأمة، إلا أنه يشير إلى تباعد الشقة بين زعماء الكنائس الذين يعارضون الحرب معارضة قوية، وبين أعضاء الأبرشيات الذين يوافقون بحماسة فاترة أو حارة على الحرب. يجب أن نضيف أن المعمدانيين في الجنوب، الذين يمثلون أكبر الكنائس البروتستانتية في الولايات المتحدة، عبروا عن دعمهم لـ«شجاعة وقيادة بوش في معارضته الجريئة للإرهاب»[3]. هل نفترض إذن أن هناك نوعين من «الله» ونوعين من المسيحية في الولايات المتحدة؟

حول استخدام وإساءة استخدام الكتاب المقدس

نحن نبعد عن زمن كتابة العهد الجديد بألفي سنة تقريبا؛ والعديد من القرون الإضافية تفصلنا عن نزول التوراة التي يدعوها المسيحيون

العهد القديم. ولا ريب في أن قراءتنا لهذه النصوص تتأثر، شئنا أم أبينا الاعتراف، بهذه المسافة الزمنية الشاسعة. وليس المهم هذه المسافة التاريخية فقط؛ فهناك العديد من طبقات التفسير التي تتدخل بيننا وبين النص القديم للكتاب المقدس. هذه الطبقات التفسيرية أثرت فينا بطرائق كثيرا ما نجد صعوبة في فهمها وصعوبة أكبر في الاعتراف بها، حتى حين نميزها وندركها. وأولئك الذين يتحملون عناء دراسة العبرية واليونانية واللاتينية سوف يدركون بسرعة أن ترجمات النصوص الأصلية نفسها تتضمن تفسيرات وتؤدي من ثم إلى تغييرات في المعنى. فكيف نعرف مثلا أن لفظة «سلام» التي نعرفها حاليا تتصل بما كان شعب إسرائيل القديم يعنيه بلفظة «شالوم»؟ الشيء ذاته ينطبق على المفاهيم المفتاحية الأخرى، مثل العدالة والميثاق والحب والشرف. القول الفرنسي المأثور «الترجمة خيانة» صحيح على نحو خاص حين يتعلق الأمر بكلمة «روح» العبرية التي ترجمت إلى /spirit/ الإنكليزية و /esprit/ الفرنسية، و/espiritu/ الإسبانية. إطار المعنى الإنكليزي المتوافق مع مفهوم كلمة / spirit / لا يشترك مع إطار المعنى العبري لكلمة « روح». في اللغة العبرية، «الروح» مؤنثة، بينما /spirit/ الإنكليزية مذكرة. و«الروح» تلمح في دلالتها الضمنية إلى «العاصفة» و«النَفَس» و«الحياة»، ولذلك فهي تشير في مدلولها إلى طاقة الحياة، القوة الكامنة في الأحياء كلها. من ناحية أخرى، تأثر فهمنا لكلمة / spirit/ بالنكهة الثنوية للفظة اليونانية / pneuma/، التي تشير بدلالتها إلى أجسادنا، وأحاسيسنا، وعواطفنا. رتقت في تاريخ المسيحية تشكيلة متنوعة من التقاليد التفسيرية ومذاهبها التأويلية ذات الصلة. وسوف أذكر هنا مذهبين يبدو أنهما الأكثر استعمالا في الكنائس الأمريكية والأوروبية هذه الأيام: الوجودي والسياسي. التأويل الوجودي يصل نصوص

الكتاب المقدس غالبا بالمشكلات الوجودية للبشر، مثل الأخلاق والحب ومعنى الحياة واليأس والقلق.. الخ. أما التأويل السياسي (الذي تتنوع تقاليده التراثية) فيصل القصص التوراتية ـ خروج الإسرائيليين من مصر مثلا ـ بقصص الأمة. المثال على ذلك يجسده استخدام موضوع «الميثاق» الذي يهدي قصة الخروج لوصف العلاقة الخاصة بين أمة من الأمم والله. ومثلما شرح ريتشارد هيوز بوضوح في كتابه «أساطير تعيش عليها أمريكا»، عبر مفهوم «الميثاق» لـ«الأمة المختارة» عن فهم لعلاقة الله بإنكلترا خلال عصر الإصلاح[4]. ولذلك، وجد هذا الإطار التأويلي قبل أن يحمله الآباء الحجاج معهم إلى الأرض الجديدة ويعيدوا حيازته هناك في ضوء تجاربهم الجديدة. فقد رأوا أنفسهم ضمن إطار توراتي رمزي جعل القصة القديمة لإسرائيل مشابهة لتجاربهم في فتح واقتحام البرية. فهم «الشعب المختار في الأرض الموعودة»[5].

الافتراض السائد في الأوساط الأصولية لليهودية والإسلام والمسيحية يشير إلى إمكانية مغالبة المشكلات التأويلية الصعبة عبر التوكيد على عصمة النصوص المقدسة. فإذا كانت هذه النصوص منزلة وموحاة من الله، فإن معناها سيكون واضحا لا لبس فيه، ومن ثم فهو خارج إطار نزوات ورغبات التفسير البشري. وبهذه الطريقة، يزعم أولئك الذين يعدون أنفسهم «مؤمنين مخلصين وأتقياء» بالإنجيل أو القرآن أو التوراة، أنهم عثروا على موقع يمكنهم وفقا له رفض وتجاهل الأسئلة التأويلية بوصفها علامات على الردة، والشك غير الضروري، والمراوغة والمواربة.

مثلما أشرت آنفا، يمكن للمشكلات التأويلية أن تؤدي ـ وأدت في الماضي ـ إلى عشوائية متقلبة تعد الإنجيل تشكيلة متنوعة من النصوص القديمة

ذات الصلة إلى حد ما، لكن ليست لها أهمية مباشرة لحياتنا اليوم. من ناحية أخرى، تعد فكرة التفسير الحرفي / النصي القائمة على أساس أن حقيقية الإنجيل واضحة لا لبس فيها ولا تحتاج إلا إلى تطبيقها بصورة مباشرة في الحياة اليومية، مجرد وهم خداع. فمن نافل القول إنه حتى الذين يفسرون الإنجيل «حرفيا» ويؤمنون بعصمته لا يعدون جميع أجزائه على القدر ذاته من الأهمية أو المعيارية. فلو فعلوا لوجب رجم العديد من الناس بالحجارة حتى الموت. فإذا فسروا الآية 20 من سفر اللاويين تفسيرا حرفيا مثلا، وجب عليهم إنزال عقوبة الإعدام بمن يرتكب خطايا وذنوبا مثل شتم أحد الوالدين، أو إقامة علاقة جنسية مع زوجة الجار، أو اللواط. وإن فهموا فقرات العهد القديم بشكل حرفي بوصفها نصوصا معيارية للإيمان والممارسة، وجب عليهم السماح بتعدد الزوجات، إضافة إلى إرسال زوجاتهم إلى خارج المدينة خلال فترة الحيض. ولو قرأنا الآيات 20-25 من سفر التثنية نجد جملة غريبة، بل شاذة، من الأوامر التوراتية التي يتعذر حتى على أشد المؤمنين الملتزمين حرفية النص اعتناقها أو ممارستها.

بكلمات أخرى، ينتقي أنصار التفسير الحرفي بعض النصوص ويتركون غيرها وفقا لما يفضلونه وما تقتضيه أهدافهم التبشيرية. أحد الأمثلة المثيرة للسخط على هذه الانتقائية أثار انتباهي في الأيام الأولى من عام 2006. فحين أصيب رئيس وزراء إسرائيل ارييل شارون بسلسلة من الجلطات الدماغية، التقط القس بات روبرتسون بضع كلمات من النبي يوئيل (2:4) واستنتج أن غضب الله حل برجل «قسم أرض الله» عبر إزالة المستوطنات اليهودية من قطاع غزة[6]. فرضية العصمة تمكن الأصوليين من أمثال روبرتسون من تجاهل تعقيدات الكتاب المقدس التأويلية بكل فخر واعتزاز، والعاقبة بالطبع ادعاء شيء من العصمة لأنفسهم.

الأصوليون المسيحيون يتجاهلون حقيقة أن الأناجيل الأربعة في العهد الجديد تكشف قدرا كبيرا من الاختلاف فيما يتعلق بالحياة والشهادة وموت المسيح. وهذا مثال ممتاز على الحرية والاستقلالية اللتين قبل بهما زعماء الكنيسة في العصور المبكرة التحديات التأويلية المتضمنة في الدين المسيحي حين قرروا محتوى العهد الجديد. وإزاء الموقف الاختزالي للمهرطق مارشن، الذي أراد الاعتراف بإنجيل واحد فقط، لوقا، واختزال عدد الرسائل البولسية، اختارت الكنيسة مقاربة متنوعة ـ شملت حتى سفر الرؤيا للقديس يوحنا المثير للجدل الخلافي كآخر كتاب مقدس معترف بصحته(7).

ليس ثمة حاجة إلى الغوص في تفاصيل هذه الحجج الجدالية المبكرة حول ما ينتمي إلى الكتاب المقدس. الأهم إظهار أن عملية مشابهة حدثت داخل الإسلام. فالانفتاح النسبي الذي ميز العقود المبكرة بعد جمع القرآن وظهور تفسيرات إضافية، استبدل بالتقييدات النصية الأصولية للمعاني المحتملة لكتاب الإسلام المقدس. وفي حالة الأصوليين في الولايات المتحدة، كان الفشل من النوع الذي يوقف ويجمد العمل المستمر على «التجربة الأمريكية». ما علاقة ذلك كله بـ«كلام الله» في الولايات المتحدة؟ مثلما رأينا آنفا، أدرك الحجاج الأوائل الرب التوراتي باعتباره الإله الذي وضع الميثاق معهم*. وهذا ما رتب عليهم واجبات خاصة ومنحهم حقوقا معينة، فهموها بوصفها تخويلا بحيازة أرض الهنود «الوثنيين» وطردهم منها. في وقت لاحق من التاريخ الأمريكي، صاغ المؤمنون بمذهب التأليه الطبيعي من الآباء المؤسسين، من أمثال واشنطن وجيفرسون، سياسات الولايات

* هذا حسب ادعائهم.

المتحدة الجديدة التي كانت صياغة خلاقة للآراء والأفكار السابقة عن «رسالة أمريكا». فقد استخدموا التصنيفات التنويرية لتفسير الصور التوراتية لله عبر الحديث عن «الكائن الأسمى» و«العناية الإلهية» و«رب التاريخ». أما النموذج (البارادايم) العدواني والتوسعي لـ«القدر المحتوم» الذي ألهم الفتوحات الأمريكية في القرن التاسع عشر فقد أسهم في هيمنة رأي اقترب من ربط الله بقضية أمريكا*.

التفسير الداربي للكتاب المقدس وضع طبقة أخرى عليه. حيث فضل النصوص الرؤيوية وشيد منها سيناريوهات نهاية الزمان التي حولت* «الله» إلى كائن أسمى غاضب، والمسيح إلى بطل خارق ومنتقم جبار، والأمريكيين الشجعان إلى محاربيه الدنيويين. ومثلما رأينا في كتاب جيويت ولورنس، وجدت الشخصية الأسطورية للبطل الخارق طريقها إلى هذه الصورة عن الله. هذا هو الوجه العنيف الذي يعرضه «إله أمريكا» أمام العالم. فهو إله ذكوري يتمتع بسلطة أبوية صارمة، إله منتقم لا يعرف الرحمة يدمر «إمبراطوريات الشر» ويدعو شعبه المختار إلى ممارسة هذا التطهير العالمي بغضب بهيج، إله حرب يطالب بتضحيات دموية.

يمكن اقتفاء جذور هذه الصورة للإله، بكل ما فيها من سلبية وتنفير، في المصادر التوراتية. إذ يشير جيويت ولورنس إلى أنها مرتبطة بـ«الوطنية الشوفينية المتزمتة» التي يمكن العثور عليها في مختلف أجزاء الأناجيل المعترف بها[9]. ووفقا للباحثين، يمكن العثور على الصلة الرؤيوية في

* تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

سفر الأرقام25، الذي يروي قصة شخص اسمه فينيهاس، قتل إسرائيليا وزوجته بالرمح. أما المبرر الذي قدمه النص فهو انتهاك الزوجين نقاء وطهر إسرائيل وهذا ما جلب الطاعون للناس عقابا من الله. النظرية المعممة المستمدة من هذه القصة، كما يحاجج جيويت ولورنس:

> مارست تأثيرا طويلا ومهلكا: فقد افترضت أن البلايا التي تصيب الشعب المختار، كالمرض أو المجاعة أو الهزيمة، ناجمة عن الغضب الإلهي على أعداء الداخل. الخائن داخل المعسكر يصبح مصدرا للشر. لذلك، فإن تخليص الشعب المختار من مصادر الفساد الداخلية يعني إنقاذ الأمة. المتعصب المتزمت هو المنقذ المخلص، الذي يطهر الأمة بالعنف لتستعيد قدرها الانتصاري[10].

يغاير جيويت ولورنس هذه «الوطنية الشوفينية المتزمتة» مع موقف «الواقعية النبوئية» كما مثلها النبي اسحق (من بين آخرين)[11]: «يختبر أصحاب الرؤية النبوئية الواقعية حرية خلاقة وتستحثهم رؤية سامية للعدالة. أما هدفهم فأكثر تواضعا من المتزمتين المتحمسين: الإبقاء على الأزمة مع التقدم عبرها تدريجيا نحو الهدف، مدركين على الدوام إمكانية عدم تحقيقه أبدا»[12].

إله لينكولن وإله بوش

هل تجمع صور الغضب الإلهي والعدل الإلهي علاقة تضاد لا يظهر طرفها الأول إلا بغياب الثاني؟ يشير جيويت ولورنس إلى الرئيس ابراهام لينكولن بوصفه الدليل الدامغ في الحجة التي تؤكد أن مثل هذه المفاهيم

المتضاربة يمكن في الحقيقة جمعها معا. ففي خطاب القسم للولاية الثانية، أشار لينكولن إلى حقيقة أن الطرفين المشاركين في الحرب الأهلية المدمرة يقرآن الإنجيل ذاته ويصلون إلى الإله نفسه - للحصول على بركات متعارضة وتحقيق نتائج متناقضة، كما يبدو. واستنتج لينكولن أن كلا منهما لا يحتل موقعا يؤهله ادعاء الحماية الإلهية. وفي الواقع، تجسد الحرب، بكل المعاناة التي تجلبها، حكم الله على الطرفين كليهما:

لكن، حتى إذا شاء الله أن تستمر هذه الحرب إلى أن تغرق الثروة التي تراكمت نتيجة كدح العبيد طوال مئتين وخمسين سنة، وينتقم بالسيف لكل قطرة دم سفكها السوط، كما قيل قبل ثلاثة آلاف عام، يجب أن نتشبث بمقولة «إن أحكام الله صائبة وصادقة وفاضلة كلها»[13].

وهكذا، لم يكن لينكولن يخشى من الاعتراف بواقع الذنب في حياة أمته، ومن قراءته للعبارات النبوئية في الكتاب المقدس، عرف أن الله لا يميز بين عبد وسيد، وأن كل نقطة دم مهمة بغض النظر عن لون صاحبها، وأن البشر كلهم يتقاسمون الكرامة ذاتها التي وهبها الله لعبادة. فالله هو الكائن الأسمى والمطلق برأيه، الذي يحاسب الرابحين والخاسرين في جميع المعارك الدنيوية. ولهذا السبب أصر على وجوب أن تشارك الأمة برمتها، حالما تنتهي الحرب، في ما يمكن أن يسمى سياسة المصالحة:

حين نتخلى عن الحقد؛ ونتسامح مع الكل؛ ونتشبث بالحق؛ مثلما أراد الله، دعونا نسعى لإنهاء العمل الذي بدأناه؛ ونعالج جراح الأمة؛ ونرعى الأيامى والأيتام - ونفعل كل ما من شأنه إقامة سلام عادل ودائم، بيننا، ومع الأمم الأخرى.

هنا، نجد سياسيا أمريكيا يسمو فهمه اللافت والخاشع لله على تقسيم الناس إلى رابح وخاسر. لقد عرف لينكولن أن الرد الجوهري الوحيد على فكرة قبول الحرب بوصفها حكم الله على الأمة كلها هو تبني سياسة الرحمة ومداواة الجراح. وتمتع بما يكفي من الواقعية لفهم حقيقة أن السلام العادل والدائم لا يمكن التوصل إليه بواسطة (وهم) تدمير الشر بل برعاية الذين تحملوا وعانوا أكثر من غيرهم.

لكن إله الرئيس بوش لا يظهر مثل هذه الرحمة. إذ لم ينطق بكلمة تشير إلى أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر ربما تشمل أيضا عنصرا من الحكم الإلهي على سياسات الولايات المتحدة. ألم تدعم وكالة المخابرات المركزية أشخاصا مثل بن لادن حين حاربوا الاتحاد السوفييتي؟ لم نسمع كلمة واحدة تعبر عن الخجل أو الإحساس بالمسؤولية في جميع تصريحات الزعماء الأمريكيين والأوروبيين بعد الهجمات على البرجين التوأمين ومبنى البنتاغون. بدلا من ذلك، هيمن على الخطب سخط مرتكز على الإيمان بصوابية الذات وصرخات غاضبة تطالب بالثأر والانتقام.

برأيي كلاهوتي، ثمة بيان للرئيس يكشف الكثير. فبعد سنة من الهجمات، في الحادي عشر من سبتمبر 2002، قال في خطبة ألقاها في جزيرة اليس:

قضيتنا قضية الكرامة الإنسانية، الحرية التي تسترشد بهدي الضمير ويحرسها السلام. مثل أمريكا الأعلى هو أمل البشر جميعا. هذا الأمل ما يزال ينير دربنا. والنور يضيء في الظلمة. والظلمة لن تغلب النور.

فليبارك الله أمريكا! [14]

هنا، لا تصدمنا المسيحانية السافرة بل الاقتباس المباشر من إنجيل يوحنا (1:5). حيث يقول إنه (يسوع) النور الذي يضيء في الظلمة والظلمة لن تغلبه. فما يقوله الإنجيل عن يسوع بوصفه «نور العالم» ينسبه بوش مباشرة إلى «مثل أمريكا الأعلى». هذا التماهي يكشف الكثير: فقد حول بوش الخلاص بواسطة يسوع المسيح، الذي يعلق المسيحيون عليه أملهم، إلى أمريكا نفسها. «مثل أمريكا الأعلى» هذا هو في تفكير بوش «أمل البشر جميعا». بكلمات أخرى، يعتمد خلاص الجنس البشري كله على أمريكا.

هذا التماهي بين «مثل أمريكا الأعلى» ويسوع المسيح يصل إلى حافة الوثنية. ففي حين كان من الواضح لابراهام لينكولن أن الولايات المتحدة «خاضعة» بشكل صارم لإرادة الله ومشيئته، يرى بوش «أمريكا» على مستوى واحد مع المسيح. فـ«مثل أمريكا الأعلى» يأخذ دور المسيح ويبدو منتصرا مثله حين يبعث حيا[15]. أجد هذه التوليفة التي تجمع الصور اللاهوتية (فيما يتعلق بطبيعة وشخصية وأعمال المسيح) والوطنية مرعبة ومروعة - بوصفي لاهوتيا وألمانيا في آن. ولربما تطري دون شك العديد من المواطنين الأمريكيين، خصوصا الأصوليين منهم، الذين تبدو لهم العواطف الدينية والوطنية شيئا واحدا. لكن العناصر التجديفية موجودة. إذ تصبح «أمريكا» واقعا يشابه الله يتمتع بصفات إنقاذية وقوى خلاصية، وقدرة عنيدة على إنزال العقاب إذا دعت الضرورة*[16].

صراع أمريكا على الله

أدرك أن حجتي هنا سوف يجدها الكثير من الأمريكيين عسيرة الهضم، خصوصا أنها تأتي من أجنبي. لكن ما أقوله يعبر عن وجهة نظر

* تعالى الله عن ذلك الوصف علواً كبيراً.

وصراع بدأ يظهر داخل الولايات المتحدة. في الفصول الأولى من هذا الكتاب أشرت إلى كتاب جيم واليس «سياسة الله»، الذي يجسد مثالا مؤثرا ومعبرا عن هذا الصراع. فقد جادل في صحة الدمج الأصولي بين الدين المسيحي والاهتمامات القومية والرأسمالية والأخلاقية الانتقائية: «كيف أصبح دين المسيح يعرف بمناصرته للأغنياء والحروب وأمريكا»(17). كان صوت واليس الوحيد الذي ميز الوثنية في خطبة الرئيس بوش في جزيرة اليس. ويمكن أن نعد كتابه كله محاولة تستهدف دراسة تأثير الواقعية النبوئية للكتاب المقدس في التوفيقية الأصولية المتحمسة التي استخدمها ممارسو الدين المدني الأمريكي لتحويل أمريكا إلى كيان شبه مقدس. لكن ما أدهشني هو حقيقة أن واليس لا يبدو أنه يواجه مشكلات مع المسيحانية الأمريكية، مع أنها البنية الأسطورية التأسيسية التي تسهل دمج الدين مع الوطنية والرأسمالية والأخلاقية الانتقائية. ولا أجد أيضا في كتاب واليس التحدي المطلوب لـ«مروجي يوم الحساب» حسب معتقد «المتروكون»، لأن حماستهم الرؤيوية هي التي تجعل اندماج الدين والوطنية منذرا بالخطر على نحو خاص.

ثمة مثال آخر على النقد المحدود يمكن العثور عليه في مقالة «أرض الله مقدسة: رسالة مفتوحة إلى المسيحيين في الولايات المتحدة» التي كتبتها في الشهور المبكرة من عام 2005 جماعة من اللاهوتيين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت خلال اجتماع عقده مجلس الكنائس العالمي في الولايات المتحدة. نشرت رئاسة مؤتمر الأساقفة الأرثوذكس في الأمريكيتين «الرسالة المفتوحة» في الثامن من تموز/ يوليو 2005، وتركزت بؤرة اهتمامها على الضرر البيئي الناجم عن الأساليب الحياتية المسرفة

في الولايات المتحدة (علينا أن نضيف أوروبا أيضا)؛ وتناولت بوضوح «الإنجيل المزور» الذي يبرر إساءة استخدام الأرض وثرواتها:

> لقد أصبحنا مدمرين. الأرض في خطر من صنع أيدينا. وهذا يعني أن أزمتنا لاهوتية أيضا. لقد استمعنا إلى إنجيل مزور يدعونا إلى متابعة عاداتنا الحياتية دون تغيير.. وما يزال هذا الإنجيل المزور يجد مبشرين متباهين ويقتنص أتباعه من بين الزعماء السياسيين وصناع السياسة المتصفين بالجرأة التي تبلغ حد الوقاحة[18].

تعبير «الإنجيل المزور» يكشف الكثير: إذ يدق للاهوتيين جرس الإنذار، لأنه يقول إن الإنجيل الحقيقي قد دحض أو استبدل. وحيثما انتهك الإنجيل الصحيح وحرف، يصبح الدين المسيحي نفسه على المحك ويحتاج إلى من يدافع عنه. وهكذا تواجه «الرسالة المفتوحة» وضعا مهرطقا وتشكل ما يدعوه اللاهوتيون حالة الاعتراف، أي اللحظة التاريخية التي يتطلب فيها الإيمان بالإنجيل الصحيح مقاومة نشيطة (إلى درجة الشهادة) لمبشري الإنجيل المزور والزعماء السياسيين الذين استمدوا «الجرأة الوقحة» منه.

ملاحظة مشابهة ظهرت في بيان اعتراف كتبه فريق ريتشارد هيز (من كلية ديوك اللاهوتية)، وجورج هنسينغر (من كلية برينستون اللاهوتية)، وريتشارد بيرارد (من كلية غوردون)، وغلين ستاسن (من كلية فولر اللاهوتية)، وجيم واليس (من مجلة «سوجورنرز»)[19]. فقد لاحظوا أن «لاهوت الحرب ينبعث من أعلى الدوائر في الحكومة الأمريكية»، وأن «لغة الإمبراطورية الفاضلة تستخدم بوتيرة متزايدة»، وأن «أدوار الله والكنيسة

والأمة تختلط بالحديث عن رسالة أمريكا، والتفويض الإلهي لها للتخلص من عالم الشر»[20]. لذلك، يطالب الكتاب «باعتراف جديد بالمسيح». وفي خمسة توكيدات يعبرون عن الجوانب الجوهرية الأصيلة لتعاليم المسيح. وكل توكيد تتبعه الصيغة التقليدية «نرفض التعاليم المزورة..» التي تفرد بعدئذ التحريفات المهرطقة للدين[21].

هذه هي المعركة الروحية التي تهم عددا متناميا من المسيحيين في الولايات المتحدة[22]. اللاهوتي الألماني هانز ايكهارد باهر، الذي تأثر تفكيره تأثرا عميقا بالاتصالات السابقة مع مارتن لوثر كينغ، يتحدث في معرض الإشارة إلى المعركة عن نوعين من «الدين» في الولايات المتحدة. فهو يميز بين «الدين 1»، دين القوة العالمية الذي تعتنقه إدارة بوش، مدعومة بالكنائس الوطنية الأصولية، و«الدين 2»، «دين حقوق الإنسان» الذي يؤمن به العديد من الكنائس المسيحية[23]. يتسم «الدين 1» بـ«التطرف المتزمت القائم على تقسيم الناس إلى صديق/ عدو» و«نظام عالمي مسيحاني مزور» ومقاربة رؤيوية مرتكزة على «الحل النهائي» لقوى الشر. أما «الدين 2»، دين «أمريكا الأخرى»، فهو «ثمرة للخطاب الديمقراطي العام» في حركة الحقوق المدنية، و«طاولة الأخوة»، وصوت «الحلول السلمية البراغماتية» الذي ينتقد القوى المهيمنة ويمثل من لا صوت لهم.

أليست هذه مجرد شجارات نمطية بين اللاهوتيين؟ لا أعتقد ذلك. فهذا الصراع على الله هو صراع في الوقت ذاته على الصور السياسية والاجتماعية والثقافية التي تحكم آمال ومخاوف المواطنين الأمريكيين. وتستهدي بهذه الصور القيم التي يتمسكون بها والقضايا التي يركزون عليها، أو لا يركزون عليها، انتباههم. وطالما يبدو الإله العنيف لقوة أمريكا

العظمى متحكما بكل شيء، فإن أولئك الذين يرفضونه بوصفه وثنا معبودا مزيفا سيواجهون أوقاتا صعبة معه بالتأكيد.

اختيار الحياة، لا الموت: البحث عن الأصوليين العالميين

نظرا لقوة الوثن المعبود، من المهم العمل على البدائل. ف«الاعتراف» الذي أدخله هيز وهسينغر وستاسن وواليس وغيرهم في الجدل يعد خطوة على قدر كبير من الأهمية الدلالية. إذ يؤدي تركيزه على يسوع المسيح ورسالته العالمية إلى خمسة توكيدات مهمة فيما يتعلق بالحياة الوطنية:

1- «ولاؤنا للمسيح يأخذ الأولوية على الهوية الوطنية»*[24]. هذا البيان يؤدي إلى رفض أي تسوية بين المسيحية والإمبراطورية.

2- «المسيح يلزم المسيحيين بمعارضة الحرب بقوة». ومن ثم، يحظى «التعاون الدولي» بأهمية أكبر من «السياسات الأحادية الجانب». مع هذا التوكيد يرفض المسيحيون أي «حرب على الإرهاب تحتل الأولوية على حساب المعايير الأخلاقية والقانونية».

3-. «المسيح يأمرنا بعدم الاكتفاء برؤية الخطأ في عدونا بل الخطأ الأفدح في أنفسنا». وهذا يفضي إلى توكيد حقيقة أن الخير والشر يكمنان في قلب كل إنسان. ومن الواضح أن هذا التبصر يرفض أي افتراض بأن أمريكا «أمة مسيحية» لا تحتاج إلى توبة بوصفه من «التعاليم المزورة».

4- «يبين لنا المسيح أن حب العدو يكمن في صميم الإنجيل». ومن ثم، يرفض المسيحيون أبلسة الأعداء وأي نوع من أنواع سوء المعاملة لهم.

---

* الصحيح أن يكون الولاء لله وحده واتباع نبيه.

5ـ «يعلمنا المسيح أن التواضع فضيلة جديرة بالعفو عن الخاطئين والمذنبين». وهذا يؤدي إلى رفض «الهرطقة المانوية» التي «تقسم العالم إلى قوى الخير المطلق وقوى الشر المطلق».

في الختام يوضح هذا الاعتراف حقيقة «عدم وجود أمة/ دولة تستطيع أن تصل إلى القدرة الإلهية».

هذا بيان جريء في الحقيقة. وحين يحدد الملامح والمقومات المركزية لإنجيل المسيح، ينتقد صراحة بعض العوامل المفتاحية لـ«دين إله الحرب» الذي تعتنقه أمريكا. أنا واثق أن العديد من المسيحيين في شتى أرجاء الولايات المتحدة سوف يشعرون بالارتياح والتشجيع نتيجة ما يقدمه هذا الاعتراف من إرشاد روحي. لكن من منظوري كمراقب أجنبي، يبدو مبالغا في المحلية والظرفية، ومغاليا في ضيقه إذا أمكنني القول. فسياقه هو «التعاليم المزورة» للرئيس بوش التي ترى «الحرب على الإرهاب» مهمة أمر بها الله. ومما لا شك فيه أن هذا التزمت الوطني الشوفيني سوف يستفز مقاومة لا تلين من جانب المسيحيين في الولايات المتحدة. لكن هنالك سياقا أعرض وأوسع، يتطلب استجابة أعرض وأوسع. ومثلما حاولت في الفصول السابقة أن أبين، فإن أصولية اليمين المتطرف والمحافظ في الولايات المتحدة (وتأثيرها الجلي في إدارة بوش) ليست سوى تعبير عن واقع المعتقدات الأصولية في العالم. أشرت أيضا إلى أن هذا الانتشار الوبائي الذي يجتاح العالم يكشف عن خطوط تصدع عميقة تهدده بخطر داهم. لذلك، من الضروري اتخاذ موقف شامل في مواجهة هذه النزعات الأصولية المتنوعة من أجل التصدي لأكثر التشويهات والتحريفات إثارة للقلق في حقبتنا الراهنة:

1ـ حقيقة وجدية تهديد نهاية الزمان بالدمار الذاتي الشامل نتيجة توفر الرؤوس النووية لدى عدد من الدول والانتشار العالمي للمنشآت النووية؛

2ـ التغير المناخي الناجم عن الاحتباس الحراري الذي يحدث الآن، وتأثيره الكارثي الذي سيلحق الضرر بأجيال من أولادنا وأحفادنا؛

3ـ تفاقم حالات عدم المساواة في النظام الاقتصادي العالمي، وهذا يقتضي ضمنا تنامي خطر الحرب المستمرة على الوصول إلى / واستخدام الموارد الحيوية مثل النفط الخام، والغاز الطبيعي، والمياه؛

4ـ تنامي المواجهات بين القوة العسكرية للدولة والأنشطة الإرهابية المحدود النطاق «على الطراز المافيوي»، مع ما ينجم عنها من غياب المعايير القانونية وغيرها للحضارة.

يسبب كل من هذه التهديدات العالمية الأربعة قلقا كافيا لقتل أمل البشر بمستقبل يستحق العيش فيه. وحين تجتمع معا تستطيع إضعاف الطاقات الروحية والفكرية المطلوبة لاستمرار العمل من أجل عالم هادف ومستدام وذي مغزى. هذا هو برأيي السياق العريض الذي يجب موضعة البحث عن «الأصولية العالمية» ضمن إطاره. ومن المؤكد أن هذا البحث يتطلب حكمة وشجاعة أتباع جميع الديانات، لا المسيحية فقط. فإذا ما كانت هناك أي حاجة إلى حركة لتوحيد الكنائس حقا لتشهد على القيم الجوهرية التي يضع سكان الأرض ثقتهم فيها ويعلقون آمالهم عليها، فهي ضرورية وملحة الآن. وفي سبيل نقل هذا البحث خطوة إلى الأمام وتدعيمه وتشجيعه أود تقديم الملاحظات التأملية الآتية:

1ـ الوصية الأولى من الوصايا العشر هي البداية المثالية، لأن المسيحيين والمسلمين ورثوها من الديانة اليهودية*. فهي تمنع البشر من صنع أي صورة على هيئة الله. فالله فوق الأسماء والصور والمفاهيم التي يمكن أن نفكر فيها. وحتى حين يعتقد المسلمون والمسيحيون أنه تعالى قد تجلى على النبي محمد أو تجسد في يسوع المسيح**، فإنهم يتشبثون بسموه وعلوه وتنزيهه. من طرق التعبير عن هذا التنزيه فكرة القداسة: فالله الأسمى الظاهر/ الباطن هو الأقدس. ولا يمكن لإنسان أن يكون مقدسا بهذا المعنى، ومن ثم يستحيل أن توجد أشياء مثل «الحروب المقدسة». إن تنزيه الله الذي «ليس كمثله شيء» يؤدي إلى التكتم والحذر عندما يتعلق الأمر بفهمنا لله. ويفضي في الوقت ذاته إلى احترام عميق للمؤمنين بالديانات الأخرى. وحين يتعلق الأمر بمواجهة أسرار وغموض طبيعة الله ـ المصدر «الأصيل» للتواضع والاحترام ـ فإن كلا منا يقف خالي الوفاض.

2ـ يؤمن المسيحيون بأن كل شيء يدين بفضل وجوده إلى الله جل شأنه. لذلك، تدعو عقيدتنا القديمة الله «خالق السماوات والأرض». وهذا يعني أن الخلق واقع لن يفهمه البشر أبدا بصورة كاملة. ومهما كانت المناهج والأساليب والسيناريوهات التي يمكن أن نصممها لتنظيم التعددية الساحقة للظواهر، بدءا بأبعد المجرات وانتهاء

---

* الدين السماوي من عند الله وهو لا يورث ولكن لما حرفت اليهودية والمسيحية جاء الدين الإسلامي الشامل لكل البشر وهو الدين الذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة.

** هذا قول على الإسلام ونبيه غير صحيح كما إنه سبحانه وتعالى لم يتجسد في عيسى عليه السلام ولكن هذا هو الاعتقاد الخاطئ لدى النصارى.

(1) هذا لا يختص فيه المسيحيون فقط بل المسلمون الذين أعانهم وتطبيقهم له يدل دلالة قاطعة لصدق دينهم. وهم أدق الناس لتطبيق الإيمان والعقيدة الصحيحة.

بأدق العناصر داخل الذرة، تظل تقريبية وبحاجة إلى فهمها على هذا النحو. هذا ليس تجهيلا أو ظلامية بغرض تحدي العلم؛ بل على العكس، فكلما تعمق البحث العلمي تعمق الاعتراف بأن الحياة محاطة «بشبكات من العجائب» التي تكتنفها. لذلك، يشعر المسيحيون بالراحة في هذا الكون، المعتمد على الحب الذي يتجاوز كل فهم.

هذا هو السبب الدائم للخشية والرهبة، والإعجاب والتواضع، والشكر والحمد. فالإدراك العميق لشبكات العجائب يوجد ما أدعوه بالوعي الروحي (الزهدي) للاتصال الجوهري بين جميع المخلوقات. حب الحياة هذا يجب أن يقاوم أي نوع من الانسحار والافتتان بالموت. فهو يمقت كل تفجير انتحاري مثلما يشمئز من أوهام الفناء الخيالية في سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية.

3ـ يؤمن المسيحيون بأن الخليقة ترتع في رحمة الله وبركته ونعمته، ومع ذلك يمزقها الشر إربا إربا. أما السبب فيستحيل فهمه ويصعب تحمله. لكنه يصيب بـ«الصدمة والرعب»[25]، على الأقل لأن الشر والذنب موجودان في كل إنسان. الكتاب المقدس يتصدى لهذه الحقيقة المروعة في الصفحات الأولى حين يروي قصة قابيل وهو يذبح أخاه. هبة الحرية، التي يفخر بها البشر، وهم محقون في ذلك، تحمل في ركابها بذرة الحسد والطمع البغيضة. وإدراك تعدد الخيارات يتضمن تهديد العديد من حالات الاتكال. ولا توجد طريقة واضحة لفصل إرادة فعل الخير عن إرادة فعل الشر العنيدة على ما يبدو.

---

(1) هذا ليس قول صحيح لأنه ناتج عن عدم التطبيق الصحيح للدين السماوي الصحيح.

هذا أيضا أمر جوهري، ويفسر لماذا يعد المسيحيون واقعيين على الصعيد الأخلاقي. فهم لا ينكرون وجود الشر داخل نفوسهم؛ ويحاولون تجنب إسقاطه على الآخرين. وبقدر ما يحاولون الامتناع عن فعل الشر، يجب أن يعترفوا بحاجتهم إلى الخلاص والتوبة. لذلك، يتحول المسيحيون إلى يسوع المسيح[1]، لا لأنهم يجدون فيه المثال المجسد لإخوانهم البشر المتحررين من الطمع والحسد فقط، بل لأنه يحتفظ بحبه غير المشروط حتى في مواجهة الموت. إن القبول بهذا الحب هو مصدر الخلاص. ومن هنا، يسعى المسيحيون إلى الاقتراب من هذا المسيح، ويتذكرونه في صلواتهم وشعائرهم (خصوصا في القربان المقدس). في المسيح ثمة حقيقة جوهرية تتجلى: التحرر من عبء الذنب وضغوط الإذلال والمهانة خيار مدمج في الخلق، ومن ثم فهو فرصة متاحة لجميع البشر، بغض النظر عن مدى تعقيد صراعاتهم.

4- هذا يفسر السبب الذي جعل المسيحيين يضعون التاريخ في فئة التغير والتحول (/metanoia/ اليونانية تعني حرفيا تحولا في الرأي، وتغيرا وتبدلا). لكل أسر منتهى ولكل منفى نهاية؛ لا يوجد طريق ضيق إلى حد يجعل الالتفاف الكامل مستحيلا. ولا يوجد ذنب لا يغتفر. ولا صراع عنيد لا حل له. هذه الطاقات الإبداعية للخالق والقوى التصالحية ليسوع المسيح[1]، تتكشف في حضور ما يدعوه المسيحيون بالروح القدس، وما يدعوه الإنجيل بـ«الروح»، «القوة الكامنة في الأشياء» التي تهب الحياة وتديمها.

طاقات الروح مسيحانية لأنها تظهر طاقة المسيح المصلوب[1].

* هذا اعتقاد خاطئ حيث جعلوا عيسى عليه السلام ملجأ لهم ولم يجعلوا ذلك الاعتقاد لله. وكذلك الصلب التي اعتقدوها وصدقوها.

لذلك، لا تناسب طاقات الروح مزاعم القدرة الكلية المطلقة المميزة للأبطال الخارقين في الماضي والحاضر؛ بل توائم تجارب الضعف الإنساني المميزة للأغلبية الساحقة من شعوب العالم. إن قوة الروح تعزز وتديم تذكر الألم والمعاناة، وهو تعبير مركزي في عمل اللاهوتي الألماني يوهان بابتيست ميتز[26]. حيث يضع الألم والمعاناة في المركز لا لأنه يريد تمجيدهما بل لأنهما يمثلان تجربة جوهرية وأساسية للوجود الإنساني برمته. أتفق معه في هذه النقطة: فتعبيره «الألم والمعاناة» قريب إلى «مواطن الضعف» التي وصفتها آنفا، وهي حقيقة واقعية جوهرية في حياة الناس والشعوب كلها (ومفهوم أسعى إلى تحريره من مدلولاته السلبية). من المؤكد أن مفهوم مواطن الضعف كثيرا ما استغله الأقوياء وأساؤوا استخدامه؛ لكنه يمثل نقطة الانطلاق لجميع البدايات الإبداعية والخلاقة.

مواطن الضعف حقيقة شمولية تنطبق على جميع البشر. وحينما تلقى القبول والاحترام، توحد البشر وتمكنهم من العمل على منظومات الدعم والمساندة، ومنها الشعور بالأمان والأمن على الصعيدين القانوني والاجتماعي. عندما يدرك الناس أن التواصل بينهم مؤسس على مواطن الضعف المشتركة بينهم، يمكنهم مغالبة الانقسامات التي تفرقهم إلى أجناس، وثقافات، وأعراق. وهذا يتصل اتصالا وثيقا بمفهومي عن التذكر العميق: القدرة على تذكر لحظات الفرح والترح في حياتنا. قدرة تزيد وعينا بجذور صراعاتنا وتفتح عقولنا على فرص التغير والهداية.

5ـ أخيرا، من التجارب الجوهرية المهمة للمسيحيين أنهم يشكلون أمة منتشرة على امتداد العالم*، والطاقة التوحيدية للمسيح هي التي تجمعهم معا عبر جميع الانقسامات التي تضع الناس لولاها في معسكرات منفصلة. والحقيقة المحزنة أن المسيحية شهدت حقبا من الجفاء المرير والحروب الدينية الدموية؛ لكن من العدل القول أيضا إن القرن العشرين اتسم بمحاولات جديدة لاكتشاف الصلات الجامعة بين مختلف الكنائس والعثور على التعبيرات المناسبة لهذه الوحدة المتنامية. يبقى ذلك إنجازا عظيما حققته حركة توحيد الكنائس الحديثة.

مهما عانت هذه المحاولات من نقص وقصور، إلا أنها أظهرت الرؤية الجوهرية التي تؤكد عدم وجود مسيحي يمتلك حقيقة الإنجيل، التي لا تتمظهر إلا في العشرة والعلاقة الودية مع الآخرين. فحقيقة الإنجيل هي الحب. وكل من عشق يعلم أن الحب ليس تملكا بل مشاركة. ولذلك يتحدث العهد الجديد عن المسيحيين بوصفهم ينتمون إلى عائلة الرب**: الأبرشيات المسيحية تعد عائلات يساعد أفرادها بعضهم بعضا. فمنذ بدايات الكنيسة الرسولية كان من المفهوم أن الطوائف المسيحية تشكل شبكات من العون المتبادل. لذلك، يستحيل على الأفراد، أكانوا من المبشرين أو الدعاة على شاشات التلفزيون، أو الرؤساء، زعم معرفة إرادة الله دون استشارة واستنصاح الأعضاء الآخرين في الطوائف المسيحية.

* هذه ليست خاصية للمسيحين وحدهم. بل للإسلام كذلك.

** تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً من هذا الاعتقاد الخاطئ ينسبون لله الصفات البشرية ويرفعون أنفسهم إلى الإلوهية. تناقض عجيب.

من نافل القول إن هذه «الأصول» الخمسة تمثل اقتراحاتي للبحث الذي يجب أن يجري داخل المنظمات والمؤسسات العديدة التي تمتلك طاقة تمثيلية لفئات عريضة من آمال وحاجات البشر. من المهم أيضا لأصحاب الديانات الأخرى المشاركة في هذا البحث، حتى وإن بدت مقارباتهم متناقضة ومتنافرة أول وهلة. في جميع الحالات، ليس المهم فعلا كيف يصوغ البشر الأصول الجوهرية بل مدى التزامهم بها في حياتهم. فهذه «الأصول الجوهرية» لا قيمة لها إلا إذا طبقت عمليا في مجتمعات تعيش حياة مريحة وتتلقى العناية والرعاية[27]. ومهمة هذه المجتمعات هي تكثيف شبكات المعنى التي تمكن الأجيال القادمة من العثور على مكان لها في المجتمع دون الضياع بين عشوائية التقلب واستبدادية السلطة الحصرية. على الصعيد العملي، فإن ما يحتاجه المواطنون، رجالا ونساء، من أجل تنمية قدراتهم على تربية ورعاية الأبناء، هو أحياء سكنية آمنة ومؤسسات تعليمية وتدريبية كفؤة؛ وشروط عمل عادلة وأجور كافية؛ وأنظمة قانونية مستقرة وخدمات عامة يعول عليها؛ ومياه نظيفة، وطعام صحي، وبيئة مستدامة. في الحقيقة، فصّل ما أدرجته هنا بعناية أكبر عدد من الإعلانات والمواثيق حول الحقوق الإنسانية الفردية والاجتماعية، مثل الإعلان العالمي «لحقوق الإنسان» عام 1948.

اهتمامي بلائحة الأصول الجوهرية التي يمكن أن تتصدى للظروف اليائسة لوضعنا المعولم، يتصل من جوانب عديدة بعمل المنظمات والمؤسسات الدينية الدولية مثل «برلمان أديان العالم». وللإشارة إلى أهم مثال معبر عن التحدي الذي يواجهه، صاغ البرلمان في شيكاغو عام 1993 أربعة «توجيهات غير قابلة للنقد» والتزامات أساسية:

1ـ ثقافة لاعنفية واحترام الحياة؛

2ـ ثقافة تضامن ونظام اقتصادي عادل؛

3ـ ثقافة تسامح وحياة قائمة على الصدق والأمانة؛

4ـ ثقافة حقوق متساوية وشراكة بين الرجل والمرأة[28].

كتب المسودة التمهيدية الرئيسة اللاهوتي هانز كونغ[29]، الذي لخص برنامجه في ثلاث جمل صريحة ومباشرة: «لا بقاء دون أخلاقيات يلتزم بها العالم. لا سلام في العالم دون سلام بين الديانات. لا سلام بين الديانات دون حوار بين الأديان»[30]. يبدو ذلك برنامجا بسيطا، لكنه في الواقع مشروع جريء كرس له كونغ طاقاته المشهودة طوال أكثر من عشرين سنة.

يسهل رفض عمل كونغ وعمل برلمان أديان العالم بوصفهما تحويلا للانتباه وجهة الرومانسية السياسية. وفي الحقيقة، فإن ما حدث قبل أكثر من عقد من السنين في شيكاغو يبدو مستحيلا اليوم. فالتغيرات في المناخ السياسي والاقتصادي العالمي أدت إلى استقطاب عميق. والطبيعة التصادمية التي تلوث العديد من المشكلات الدولية تفاقمت بصورة حادة منذ هجمات سبتمبر الإرهابية عام 2001 على نيويورك وواشنطن. وهذا ينطبق خصوصا على العلاقات داخل/ وبين المجتمعات المسيحية والمسلمة. فهل يمكن وقف هذه النزعة وعكسها؟ قصة القس اليسوعي باولو دالوغليو تشير إلى هذا الاتجاه، ولذلك تشكل مصدرا للأمل.

في عام 1977، أرسل باولو إلى لبنان من قبل رئيسه المشهور بيدرو اوربي، لدراسة الثقافة العربية والإسلامية. واستطاع باولو، مع مجموعة دولية من الرهبان والراهبات، إحياء دير مار موسى في سورية، الذي أسس في القرن السادس، وزخرف بلوحات جصية بديعة في القرن الحادي عشر، ثم أهمل منذ القرن التاسع عشر. لم يكتف رهبان وراهبات الدير بالتعهد الرهباني التقليدي بالزهد والعفة والطاعة فقط؛ بل التزموا العمل والتأمل وحسن الضيافة وحب الإسلام. وهذا ما مكنهم من مغالبة حواجز الشك والعداء التي تعود إلى زمن الحملات الصليبية. واستطاعوا بوعي منهم وصل عناصر من دينهم المسيحي بعناصر من الإسلام. صحيح أن في ذلك مسحة توفيقية بالطبع؛ وهم يقبلون هذا الانتقاد عن طيب خاطر. لكن باولو وجماعته على قناعة بوجود مبادئ إيمانية جوهرية تجمع المؤمنين من الديانتين كلتيهما معا. عرف باولو من تجربته أن الناس الذين تربوا على تقاليد تراثية دينية متخمة بالمجابهات التاريخية بحاجة إلى التنقيب بعمق أكبر للعثور على جذور مناسبة لإقامة علاقة عادلة وسليمة. ومن الواضح أن بالخروج على الطرائق المعتادة لمصادقة الجيران المسلمين، يأمل باولو وجماعته في دير موسى في المساعدة على مغالبة الحلقة الجهنمية من الخوف والعنف التي تجتاح الشرق الأوسط. يقول باولو: «الذين لا يعودون إلى جذورهم ويكتفون باتباع حرفية [أي نص مقدس] هم الذين يثيرون المشكلات في هذا العالم. فإذا اتبعناهم هلكنا»(31).

هذا مجرد مثال على الطبيعة الراديكالية للدين (/راديكالية/ تعني في المدلول اللاتيني الأصلي /radix/ أي /جذر/ مفرد جذور). يستتبع ذلك

أن أولئك الذين يزعمون امتلاك معنى دينهم الحقيقي، يهودا أم نصارى أو مسلمين أم سواهم، ليسوا راديكاليين بما يكفي. فقد أخذوا على عاتقهم أمر تطبيق دينهم بأيديهم - وخيانته أيضا. السيناريوهات الرؤيوية التي تجتذب الكثيرين من المسيحيين والمسلمين ليست استثناء: فهي تخون الجذر (radix) الذي نبتت منه الديانتان: الله الذي جوهره الحب.

هوامش

1- انظر:

Walter Wink, Engaging the Powers: Discernment and Resistance in a World of Domination (Minneapolis: Fortress Press, 1992).

انظر حجته على أن مردوخ هو الإله الذي تسيطر روحه على أمريكا في كتاب:

The Powers That Be: Theology for a New Millennium (New York: Galilee/Doubleday, 1998), esp. pp. 42ff.

2- «Methodist group calls Iraq war «unjust, immoral,» CNN Online, Jan. 26, 2006: http://edition.cnn.com/2006/US/0125//churches.iraq.reut.

3- «Methodist group calls Iraq war 'unjust, immoral.'»

4- انظر:

Hughes, Myths America Lives By (Urbana/Chicago: University of Illinois Press, 2003), pp. 20 - 28.

5- Hughes, Myths, pp. 28 - 33 .

6- Alan Cooperman, «Iranian Leader, evangelist call prime minister's illness deserved,» Washington Post, Jan. 6, 2006, p. A12.

7- كان مارشن شخصية نافذة في القرن الثاني، واختزاليته الحادة فيما يتعلق بمضمون ومدى العهد الجديد مرتبطة بثنويته الغنوصية، التي قادته إلى فصل الإله العبري عن المسيح بوصفه إله الرحمة الجديد. انظر:

H. Kraft, «Marcion,» Religion in Geschichte und Gegnwart,

3rd ed., vol. IV (Tubingen: Mohr, 19571965-), pp. 74042-; see also L. Vischer, «Kanon, Kirchengeschichtlich,» RGG, 3rd ed., vol. III, pp. 1119 - 23.

للاطلاع على أحد المصادر الأمريكية، انظر:

Bart D. Ehrman, The New Testament: A Historical Introduction to Early Christian Writings (New York: Oxford University Press, 1997), pp. 7 - 11.

8- ثمة مثال معبر يجسده «حكم الإعدام» الذي أصدره آية الله الخميني على الكاتب المسلم الهندي الأصل سلمان رشدي بعد نشر كتابه «آيات شيطانية». من اللافت أن أئمة المدينة البريطانية برادفورد هم أول من دق جرس الإنذار، على الأقل لأنهم خشوا من تعرض الجالية الإسلامية إلى خطر امتصاص المجتمع البريطاني العلماني «المتقلب». لمزيد من التفاصيل، انظر:

Klaus Kienzler, Der Religiose Fundamentalismus: Christentum, Judentum, Islam (Munchen: Beck, 2001), pp. 80ff; see also Jewett and Lawrence, Captain America and the Crusade Against Evil, pp. 30ff.

9- Jewett and Lawrence, Captain America, esp. pp. 45ff., 61ff., 168ff.

10- Jewett and Lawrence, Captain America, p. 169.

11- Jewett and Lawrence, Captain America, pp. 313ff.

12- Jewett and Lawrence, Captain America, p. 314.

13- «The Second Inaugural Address of Abraham Lincoln, 4 March 1865,» The Avalon Project of Yale University Law School: http://www.yale.edu/lawweb/avalon/president/inaug/lincoln2.htm.

14- George W. Bush, «President's Remarks to the Nation, Ellis Island, NY, September 11, 2002» (White House release: http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002-20020911/09/3.html [accessed Jan. 22, 2006].

15- يقول صمويل هنتنغتون: «أصبح العلم، مثلما أشار الكثير من الباحثين، رمزا دينيا في الجوهر، المعادل للصليب في المسيحية». انظر:

Who Are We? America's Great Debate (London: Simon & Schuster, 2004), p. 129.

ويضيف: «كلمتان.. لا تظهران في بيانات وعبارات وشعائر الدين المدني: عيسى المسيح. وفي حين تعتنق أمريكا المذهب البروتستانتي دون الله، فإن الدين الأمريكي المدني هو المسيحية دون المسيح» (ص107). في ضوء هذه الملاحظة، يبدو من الغريب برأيي أن يقول هنتنغتون: «وبذلك، تكون أمريكا أكثر البلاد البروتستانتية تدينا، وهي تتفوق بهامش كبير في هذا السياق» (ص92). فإذا كان الإصلاح الديني يعني شيئا فهو إعادة اكتشاف مركزية المسيح؛ ومن هنا، يبدو لي أن«الدين المدني الأمريكي» الذي تحدث عنه هنتنغتون إنما هو خيانة لعصر الإصلاح.

16- أشرت في الفصل الأول إلى أهمية العلم الأمريكي. والجهود السياسية لإدخال تعديل دستوري يحظر «تدنيس العلم» مجرد مثال على محاولات تحويل العلم إلى رمز مقدس. ونظرا لأنه أهم رمز للولايات المتحدة، فهو يربط قدسية الرب بقداسة الأمة. لمزيد من التفاصيل، انظر:

Jewett and Lawrence, Captain America, pp. 297ff.

17- انظر:

Wallis, God's Politics, p. 3.

18-«SCOBAHierarchsEndorseStatementonEnvironment,God's

Earth is Sacred: An Open Letter to Christians in the United States,» SCOBA News (online):

http://www.scoba.us/news/newsdetail.asp?id=137(accessed July 28, 2005).

19- «Confessing Christ in a World of Violence,« Hospitality 24, no. 1 (Jan. 200): 3, 10.

النص وقائمة الموقعين منشوران على موقع «سوجورنرز» على الويب:

www.sojo.net/index.cfm?action=action.election&item=confession _ signers.

20- «Confessing,» p. 3.

21- بمحض الصدفة، تتبع بنية هذا «الاعتراف» صيغة «إعلان بارمن» الشهير حول اعتراف الكنيسة عام 1943، الذي أصبح وثيقة أساسية للمسيحيين البروتستانت والأبرشيات البروتستانتية في مقاومة نظام هتلر.

21- المثال المشهود على هذا الاهتمام يجسده البيان الذي خاطب به ممثلو الكنائس الأمريكية إخوانهم المسيحيين من مختلف أرجاء العالم الذين اجتمعوا في الملتقى التاسع لمجلس الكنائس العالمي المنعقد في بورتو اليجري (شباط/فبراير 2006). تضمن البيان عناصر من إعلان الاعتراف بالذنب والاعتذار. انظر:

A Letter from the US Conference for the World Council of Churches to the 9th Assembly of the World Council of Churches, Porto Alegre, February 18, 2006:

www.wcc-usa.org/newscontaier/article/1099/a-letter-from-the-US-conf. (accessed March 8, 2006).

23- انظر:

Hans Eckehard Bahr, Erbarmen mit Amerika. Deutsche Alternativen (Berlin: Aufbau-Verlag, 2003).

24- هذا الشاهد والذي يليه مقتبسان من نص:

«Confessing Christ in a World of Violence.»

25- باقتباس الشعار المشؤوم الذي ظهر على السطح حين عبرت المؤسسة العسكرية الأمريكية عن آمالها في مهمتها في العراق عام 2003 - خنق وكبت جميع أشكال المقاومة بالتقانة الساحقة والمتفجرات والقنابل الذكية البالغة الدقة في إصابة الهدف.

26- John Baptist Mrtz, Zum Begriff der Politischen Theologie, 1967-1997 (Mainz: Grunewald, 1997).

27- للاطلاع على مزيد من التفاصيل، انظر:

Geiko Muller-Fahrenholz, God's Spirit Transforming a World in Crisis (New York: Continuum, 1995), esp. Part III, pp. 108- 70.

28- Declaration Toward a Global Ethic, Parliament of the World's Religions, Chicago, Sept. 4, 1993 (posted by the Council for the Parliament of the World's Religions: http://www.cpwr.org/resource/ethic.pd [accessed Jan. 22, 2006]).

29- انظر على وجه الخصوص:

Kung, Global Responsibility: In Search of a New World Ethic (New York: Crossroad, 1991).

30- Kung, Global Responsibility, p. XV.

31- Robert B. Kaiser, «A Voice in Wilderness» Company (online magazine of Jesuits), April 27, 2004:
www.companymagazine.org/v213/wildreness.htm.
www.deirmarmusa.org (accessed Jan. 21, 2006).

ـ 8 ـ

إعادة ابتكار أمريكا من جديد

في خطاب القسم لولايته الأولى، قال الرئيس بيل كلينتون إن الوقت قد حان لـ«رؤية [جديدة] وشجاعة ابتكار أمريكا من جديد»، وأضاف إن «على كل جيل من الأمريكيين تحديد ما يعنيه أن نكون أمريكيين». لكن في الخطبة ذاتها طمأن مواطنيه بأنه «لا يوجد خطأ في أمريكا لا يمكن علاجه بما هو صواب في أمريكا»[1].

ماذا عن إعادة ابتكار أمريكا؟ وكيف يتعامل مع الفكرة أمثالي من غير الأمريكيين؟ جزء من الجواب يكمن في أنني، أنا المواطن الألماني، أمريكي جزئيا أيضا. لا بالاختيار، بل نتيجة الحقيقة البسيطة التي تؤكد إن العالم الذي أعيش فيه يأخذ شكله غالبا بواسطة الولايات المتحدة، و«أسلوب الحياة الأمريكي»، والسياسات السياسية والاقتصادية والدولية التي صممت ونفذت في واشنطن. لذلك، يعنيني كأجنبي تصور ما يمكن/وما يجب أن تكون عليه أمريكا. بكلمات أخرى، أصبح مستقبل «مشروع أمريكا المسيحاني» مشروعا يؤثر في البشرية جمعاء. فهو يمثل الأمل للعديد من الناس في شتى أنحاء العالم؛ ويثير في الكثيرين غيرهم مشاعر الخوف والشك والارتياب.

أمريكا في المركز: ثلاث مقاربات

«المجتمع الدولي، الذي تحتل أمريكا مركزه، هو أعظم إبداع تاريخي غير مكتمل»[2]. هذه العبارة المذهلة صرح بها كاتب بارز في مجلة نيوزويك، إحدى أوسع المجلات المقروءة انتشارا في العالم. أنا على يقين أن قلة قليلة من الناس في العالم سيقولون اليوم: «إذا كان هذا المجتمع الدولي هو أعظم إبداع تاريخي، فإن التاريخ صانع هزيل!». لكن بغض النظر عن ذلك، هنالك الكثير من الحقيقة في هذه العبارة التي تفتتح الفصل الختامي «نحو إجماع جديد»، في كتاب مايكل هيرش «نحن في حرب مع أنفسنا» (2003). حيث يناقش دور الولايات المتحدة فيما يتعلق «ببقية بلدان العالم» في بداية القرن الحادي والعشرين. ووفقا لهذا الفهم، فإن الوضع يتسم بالمفارقة من عدة جوانب: قوة غير مسبوقة تعاني من مواطن ضعف غير مسبوقة. فعلى الرغم من هذا الجبروت العسكري الساحق، تبقى الولايات المتحدة جزءا من الشبكة العالمية للشعوب. وفي الحقيقة، فهي تقبع في المركز لأنها ببساطة أهم عامل سياسي واقتصادي وثقافي في العالم اليوم. وفي سبيل أداء هذا الدور بنجاح، يجب عليها الاهتمام بإيجاد الظروف الملائمة في شتى أرجاء العالم. بكلمات أخرى، على الولايات المتحدة العمل على ترسيخ القيم والحقوق ذاتها التي تحكم بها نفسها في أرجاء الأرض كافة. يقتبس هيرش من هنري كيسنجر قوله: «الاتجاه المهيمن على تفكير السياسة الخارجية الأمريكية يجب أن يتمثل في تحويل القوة إلى إجماع بحيث يرتكز النظام الدولي على الموافقة بدلا من الخضوع المتردد»[3].

من الواضح أن هيرش (صدر كتابه عام 2003) شعر بالقلق نتيجة استخدام «القوة العظمى» للولايات المتحدة لإنشاء إمبراطورية تحكم العالم

بالقوة الغاشمة وحدها. لكن ذلك سيكون خيانة للقيم والمثل العليا التي جعلت الولايات المتحدة القوة العالمية التي نعرفها اليوم. وسيكون أيضا خيانة للجهود العظيمة التي بذلتها لترسيخ القيم والقواعد الأساسية للمجتمع الدولي. هنا، يشير هيرش غالبا إلى الأمم المتحدة ومنظماتها الفرعية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أي مؤسسات بريتون وودز، إضافة إلى محكمة الجنايات الدولية في لاهاي. يجب على الولايات المتحدة أن تلتزم بناء هذا المجتمع الدولي وتعزيزه والمحافظة عليه لأنه نظام يوفر درجة عالية من الانفتاح والديمقراطية لشعوب العالم. فـ«الانفتاح والديمقراطية يحددان من نحن»[4].

يحاول هيرش عقد مصالحة بين النزعة الانعزالية الأمريكية التقليدية والنزعة العالمية الأمريكية التقليدية أيضا. ويقدم الحجة لمصلحة الهيمنة «الناعمة»، التي يوازنها دعم قوي وعنيد للبنى التي تديم وتعزز وتقوي التعاون الدولي. ولذلك، يريد من الولايات المتحدة أن تسهم بكل سخاء - بسخاء أكبر في الحقيقة من إسهاماتها حتى الآن - في ترسيخ ظروف عالمية عادلة وسلمية. لكن في الوقت ذاته، يجب على الأمة المحافظة على وضعها العسكري المتفوق بوصفها قوة عالمية حارسة. يتابع هيرش قائلا:

لقد أوجدنا، بقوة أكبر من ذي قبل، «مجتمعا دوليا متكاملا»؛ إذ توجد فعلا، مؤسسات دولية ورأي عام دولي، أكثر تجذرا وعمقا من أي وقت مضى، وهنالك أيضا، أجل، شيء يشبه الضمير الدولي. في هذه الظروف غير المسبوقة يكمن الأمل بأن تكون مزايا هذا المجتمع الدولي المتكامل، الذي توفر له القوة الأمريكية الحماية والأمن، أكثر إغراء من مزايا الحروب والفوضى والانسحاب من ذلك النظام[5].

أعتقد أن من السهل جدا رفض ودحض حجة هيرش بوصفها صوتا «ليبراليا» واهيا ضمن الجوقة الصاخبة لـ«المحافظين الجدد» المحتفين بـ«الإمبراطورية الأمريكية».

لكن المشكلة في كتاب هيرش تقع على مستوى آخر. إذ يبدو أنه يفترض أن قرار الولايات المتحدة وحدها هو الذي يحدد هل / وكيف تريد أن تكون شريكا فاعلا في «المجتمع الدولي». ولم يشغل باله بالأسباب الداعية للاستياء الهائل والمنتشر على أوسع نطاق بين شعوب العالم من الولايات المتحدة. وهو يعطي الانطباع بأن تاريخ أمريكا الطويل من الذنب والعنف، إلى جانب التواريخ المعاكسة للأمم والمتخمة بالإذلال والمهانة والعجز المتضمنة في هذا المجتمع الدولي، يمكن تجاهله بكل سهولة. بكلمات أخرى ما زالت تبهم تفكيره المتعلق بدور أمريكا في العالم خرافة البراءة المسيحانية الأمريكية. أما الجانب الآخر المفقود برأيي فهو القضية البيئية. إذ لم يظهر هيرش أي اهتمام بدور الولايات المتحدة وتأثير أسلوبها في الحياة في وضع عالمي يهيمن عليه شبح الاحتباس الحراري، وتتقلص فيه الموارد الطبيعية، ويتنامى عدد السكان.

المقاربة الثانية التي أود استقصاءها تحمل نبرة مختلفة اختلافا بينا. يقول روبرت بيلاه، عالم الاجتماع البارز المتخصص في الدين المدني، الذي شخص مشكلات أمريكا بأكثر الأساليب إيجازا وبلاغة(6): «أمريكا مركز لنوع جديد من الإمبراطورية، لكنها الإمبراطورية الوحيدة الموجودة. والأمريكيون، شاؤوا أم أبوا، مواطنون في تلك الإمبراطورية ومسؤولون عن العالم كله»(7). ويتابع قائلا: «ردة فعلنا على الحادي عشر من سبتمبر تشير إلى أننا أبعد ما نكون عن الجاهزية لتحمل تلك المسؤولية»(8). ويعرض

السبب لهذا الرأي في مقدمة كتاب عن الأساطير الأمريكية لريتشارد هيوز، ويتفق الاثنان على أن «أسطورة البراءة» هي التي تجعل دور القوة العالمية للولايات المتحدة منذرا بالخطر إلى هذا الحد:

> لم تكن لا مؤسستنا العسكرية ولا تدخلنا الاقتصادي في بلدان العالم يتسمان بالبراءة. ولم تعتقد أي إمبراطورية ظهرت في التاريخ ببراءتها. التواضع فيما يتعلق بمن نحن وماذا نستطيع أن نفعل أمر جوهري إذا ما أردنا تجنب العديد من الكوارث التي تنتظرنا(9).

هنا، تتبدى إشارة واضحة الدلالة على أن المفكرين الأمريكيين الكبار، من أمثال بيلاه وهيوز، يدركون ضرورة عكس أساطير أمريكا الرئيسة عكسا كاملا من أجل إعادة ابتكار رؤية جديدة للولايات المتحدة. كتاب ريتشارد هيوز ممارسة لما أدعوه بـ«التذكر العميق». وعندما يناقش الأساطير الأمريكية، يفسح مجالا لأولئك الذين عانوا ويلاتها. حيث يركز بؤرة اهتمامه على الأمريكيين الأفارقة (يمكنه أن يركز أيضا على سكان أمريكا الأصليين) ليظهر أن «أساطيرنا الأمريكية أبهمت وخربت أحيانا أركان وعد العقيدة الأمريكية المأمول، خصوصا للأقليات من السكان»(10). وعبر عرض ردود أفعالها يأمل هيوز بالتلميح إلى التحفظات التي تشعر بها شعوب العالم فيما يتعلق بالقوة الخارقة الأمريكية.

ثالثا، أريد الإشارة إلى تصريح كتبه اللاهوتي الالماني يورغن مولتمان:

> باعتبار أمريكا شعبا يحكم نفسه بنفسه، فهي ما دعاه فرانكلين روزفلت التجربة الشجاعة والدائمة للعصر الغربي

الحديث. فهذا الكومنويلث الديمقراطي هو في الحقيقة ابتكار إنساني على حد تعبير بيل كلينتون.. الولايات المتحدة «أسست» عن سابق قصد وإصرار على ركيزة إعلان الاستقلال، والدستور، ووثيقة حقوق المواطنين. والحقوق المدنية الأمريكية مستمدة من حقوق الإنسان، وهي تشير إلى حقيقة أن «جميع البشر خلقوا أحرارا ومتساوين». في هذا السياق، تعد الولايات المتحدة بلدا، بل البلد الأول، لجميع البشر. وحقها ووعدها يمثلان كيانا سياسيا للبشرية مؤسسا على حقوق الإنسان للجميع دون استثناء، وهذا يتخطى الدول الوطنية، ويضمن السلام العالمي.

ومن ثم، ستبقى الولايات المتحدة كيانا غير منجز وغير مكتمل تاريخيا إلى أن تنجح أو تفشل هذه التجربة السياسية التي تختبرها البشرية على نفسها. وتظل الديمقراطية الأمريكية غير مكتملة طالما لم تكسب الديمقراطية العالم كله إلى صفها. وهذا ما يجعل هذه التجربة تجربة مسيحانية. فإن نجحت ستبدأ حقبة من السلام للجنس البشري؛ وإن فشلت فسوف يغرق عالم البشر في بحر من العنف والظلم والحرب - ولا ينطبق ذلك على عالم البشر وحده بل على عالم الطبيعة أيضا[(11)].

تعبر أفكار مولتمان عن انسحار بالرؤية التأسيسية للولايات المتحدة التي اجتذبت ملايين المهاجرين وأرشدت مسعى مختلف الجماعات في العالم لترسيخ حقوق الإنسان. لكنه واقعي أيضا بما يكفي لرؤية أن الحالة الراهنة للتجربة الأمريكية لا يمكن عولمتها لتشمل البشر كلهم: «سياسيا، لا تستطيع البشرية تحمل أكثر من أمريكا واحدة، والشيء ذاته يصح

بيئيا على الأرض. فإذا أصبح العالم كله أمريكا، فسوف يتعرض للدمار والخراب»[12]. يضيف مولتمان قائلا إن فكرة المسيحانية في حد ذاتها هي تسوية وتنازل من الألفية التاريخية التي ميزت الحلم الأمريكي. يقول مولتمان: «هنالك وعي بهذا الغموض المبهم في أمريكا، فبقدر ما يطارد الكابوس الأمريكي (مالكوم اكس) الحلم الأمريكي، ستظل الرؤيوية الأمريكية تسعى وراء المسيحانية الأمريكية»[13].

يصارع هيرش وبيلاه ومولتمان، كل بطريقته المختلفة، المفارقة المميزة للتجربة الأمريكية. فالكثيرون داخل الولايات المتحدة، إضافة إلى العديد غيرهم في شتى أنحاء العالم، يدركون حقيقة أن أداءها الفعلي لا يتصل بصورة كافية مع الرؤى التي عبرت عنها الوثائق التأسيسية. في القرون السابقة، رأى الناس أمريكا «عالما جديدا» يفصله عن العالم «القديم» محيطان، و«ملاذا شاسعا للحرية»، وملتزما تجربة ديمقراطية لم يشهدها العالم من قبل. لكن الولايات المتحدة الآن لم تعد ذاك العالم البديل؛ فهي تقبع وسط «القرية العالمية»، وتحيط بها بلدان العالم. هذا ما يعنيه ضمنا تعبير «المركز» الذي أشار إليه هيرش، ويدل على تغير في الصورة لا يجده العديد من مواطني الولايات المتحدة مريحا.

تعبير «المركز» يتضمن أن هناك عالما حوله، طرفا يحيط به؛ ويعبر هيرش وبيلاه ومولتمان كل بطريقته عن قلق عميق من الأسلوب الذي تتشكل فيه العلاقة بين المركز والأطراف. فنموذج الإمبراطورية الكلاسيكية يقوم على مركز يسرق الموارد من الأطراف. هذا ما فعلته روما ـ وما جعلها غنية ثم سبب انهيارها. وهذا ما تفعله الولايات المتحدة والدول الصناعية المتقدمة الأخرى في أوروبا وآسيا الآن. لذلك، يقدم الكتاب الثلاثة الحجة

لصالح نموذج يتقاسم فيه المركز الموارد مع الأطراف عبر مد وتوسيع أسلوبه الحياتي لتعتنقه الأسرة البشرية برمتها. هذا يعني، حسب تعبير مولتمان، أن تصبح التجربة الأمريكية «تجربة سياسية تختبرها البشرية على ذاتها». في حين يجب أن تصبح القيم والمثل المعلنة في الوثائق التأسيسية للولايات المتحدة القيم والمثل التي يتبناها الجميع. في التعبير المثالي، تصبح البشرية «أمريكا».

لا يقول مولتمان الكثير عن تكلفة هذا التغيير في النموذج (البارادايم). لكنه يشير إلى أن صورة المركز/ الأطراف يجب أن توسع لتشمل الواقع البيئي. فالمجتمع الدولي، الذي تحتل الولايات المتحدة مركز قوته، محاط هو أيضا بالمجتمع الطبيعي: وكوكب الأرض هو مساحته النهائية والمحددة. مع أن هذه الملاحظة واضحة ولا تحتاج إلى ذكر، إلا أن معظم الأمريكيين والأوروبيين مستمرون في إنكار هذه الحقيقة وفي العيش كأنما نملك عالما ثانيا موضوعا في مستودع في انتظارنا. لقد اعتدنا الظن أن عالمنا لا نهائي وموارده لا تستنزف إلى حد أننا لا نستطيع، ولن نستطيع، فهم الجدة الراديكالية لمأزقنا العالمي. يؤكد مولتمان هذه المعضلة بالقول إن التجربة الأمريكية متنافرة ومتناقضة مع طاقات الأرض وقدراتها على التحمل. ويبدو أن الإنسان الأمريكي غير مناسب للعمل ضمن حدود هذا العالم المحدد والمحدود الموارد. (أكرر القول إنني لا أقصد المواطنين الأمريكيين وحدهم، بل جميع الذين يتبعون «أسلوب الحياة الأمريكي» القائم على الاستهلاك المريح).

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا: ما نوع التغيير على النموذج البيئي الذي يجب على الإنسان الأمريكي إجراؤه لإيجاد كوكب يتمتع باستدامة بيئية؟

تبدو المسألة وكأنها تقنية؛ لكن لها في حالات عديدة تأثيرا مباشرا وكارثيا على حياة أطفالنا وأحفادنا. في خطاب القسم للولاية الأولى، أعلن بيل كلينتون أن «رحلة أمريكا البطولية الطويلة يجب أن تمضي قدما إلى الأبد»[14] فإذا كانت عبارة «قدما إلى الأبد» تعني تقدما لا محدودا نحو مزيد من الثراء المادي والقوة العسكرية، ففي المعنى سذاجة منذرة بالخطر. أخشى أن يلعن أحفادنا بعد خمسين سنة من الآن - إذا ظلوا أحياء - الإهمال والأنانية اللذين بددنا بسببهما، نحن الأمريكيون وأولئك الذين يعيشون في البلدان المحظوظة وتبنوا العادات الأمريكية، ميراثهم.

المسيحانية ومواطن الضعف

«إعادة ابتكار أمريكا»؟ يتطلب الحديث عن مثل هذه الفكرة تغييرا هائلا في النموذج (البراديم). اقتبست من هيرش وبيلاه ومولتمان، محاولا إظهار أن وضعنا في بداية القرن الحادي والعشرين يتسم بمستوى جديد من الضعف والانكشاف أمام الخطر العالمي. في الفصل السابق أوجزت الجوانب الأساسية الأربعة لمواطن الضعف تلك: 1) التهديد المستمر بالفناء الذاتي للبشر نتيجة الأسلحة النووية وإنتاج الطاقة الذرية؛ 2) التغير العالمي في المناخ؛ 3) التفاوت الصارخ والمتفاقم بين المناطق الغنية والفقيرة، الذي تزيد حدته الحروب على نهب الموارد الطبيعية الحيوية؛ 4) المواجهات المتصاعدة بين القوى العسكرية للدولة والجماعات «الإرهابية» الصغيرة، مع كل عواقبها وتبعاتها على معايير حقوق الإنسان.

يمكن ترتيب هذه المشكلات العالمية حسب نظام مختلف. وبرأيي إن هذه العوامل، أو أخرى تشبهها، تمكننا من فهم ما تعنيه مواطن الضعف

اليوم. فهي لا تصف واقعنا الوجودي فقط، أي ضعف أجسادنا وفناء كل جسم حي؛ بل تصف أيضا واقعنا الكوني، أي أن لكل نظام للحياة على الأرض نهاية لا بد آتية. اعتادت الأجيال السابقة قبول مواطن الضعف الفردية بوصفها أمرا محتوما يتعذر اجتنابه، لكنها شعرت بالارتياح نتيجة الاعتقاد أن الحياة نفسها منيعة وحصينة وسوف تستمر إلى الأبد. لكن على البشر اليوم التوافق مع حقيقة غير مسبوقة تشير إلى أن أشكال الحياة التي نعرفها كلها تتعرض لتهديد كارثة واسعة النطاق، إن لم يكن انقراضا كاملا لها. هذا هو السياق الذي يجعل من تأملاتنا حول تجربة أمريكا المسيحانية حاجة ملحة وضاغطة.

هل يعني ذلك أن هذا المشروع التاريخي قد انتهى؟ لا أظن. فكل شيء يعتمد طبعا على تكيف أمريكا مع الواقع الكوني ومواطن الضعف فيه، الذي أصبح سياقا شاملا للبشر أجمعين. ومثلما أظهر ريتشارد هيوز، يبقى الكثير من الأشياء المفيدة والثمينة في أساطير أمريكا التأسيسية، ويمكن تطويرها، بشرط أن تكون أمريكا مستعدة للاعتراف بحقيقة ضحاياها. هذه هي مقاربة التذكر العميق: عملية يفسح فيها المجال لجميع الشركاء، والرابحين والخاسرين لرواية قصصهم. ومن ثم يؤدي ذلك كله إلى خطاب جديد حول طبيعة القوة وواقع الذنب. وليس من الضروري أن ترتبط أسطورة البراءة بأسطورة الشعب المختار. وفي الحقيقة، لا يكتسب الاختيار عمقه إلا حين يكون قادرا على ضم الفشل والذنب - ومن ثم عامل التوبة. وحين تفهم القوة بهذه الطريقة، يمكن رؤيتها كتمكين للآخرين بدلا من حرمانهم مواهبهم ومواردهم لمصلحتنا. ومن ثم، تتخذ فكرة «النجاح» وجها جديدا: حيث يوجه نحو تحسين المجتمع وإلغاء متلازمة

الرابح ـ الخاسر. وهكذا، يصبح خاضعا لعلاقات عادلة ونزيهة بين أفراد المجتمع. لكن حين تكون «القوة على حق» لا يجد الضحايا ما يأملون به.

ينتمي التغيير والتوبة والتمكين والعدالة إلى سياق أضع فيه أيضا فكرة الحرية. فالحرية استقلالية سيادية يمارس فيها شخص أو جماعة أو أمة شؤونها. الحرية تأتي من الداخل ولا يمكن أن تعطى كهبة(15). باختصار، يساعد السياق العالمي لمواطن الضعف الأمة الأمريكية على إعادة توجيه فكرتها عن المسيحانية. حيث لا تعينها على التخلص من التشويهات والتحريفات المسيحانية التي عرفناها في الفصول الأولى من هذا الكتاب فقط؛ بل الأهم أنها ترسخ علاقة جديدة بين رفاهية وخير وسعادة المجتمع الأوسع، «المحيط والأطراف»، و«رسالة» مراكزه. إن الإقرار بأننا كائنات ترتع بما وهبها الله من نعم، على الرغم من أننا بشر فانون، ونعيش في نظام عالمي عادل ورحيم، وإن يكن محدودا، يمكن أن يهدئ حدة الطاقات المسيحانية.

سياسة المصالحة ـ خيار أمريكي؟

في الفصل الخامس بدأت الحديث عن سياسة المصالحة، وأريد أن أتابع الموضوع في محاولة لاقتراح وجه آخر لمسعى أمريكا المسيحاني(16). وحين استخدم تعبير «سياسة المصالحة» أتعمد جمع وموالفة المفهوم الديني عن المصالحة مع الفكرة العلمانية عن السياسة. في السياق الأوروبي، يحجم العديد من السياسيين والمستشارين السياسيين عن خلط الدين (بوصفه شيئا خاصا وشخصيا كما يزعمون) بالسياسة (بوصفها شأنا عاما وتعدديا بالضرورة). وهم يشيرون سلبا إلى جهود المسلمين لإخضاع

المؤسسات الديمقراطية إلى نظام ثيوقراطي، كما هي الحال في إيران. ويعدون تأثير الجماعات البروتستانتية المحافظة في المؤسسات السياسية الأمريكية قد تجاوز الحدود. من ناحية أخرى، أظهرت أعمال الشغب التي قام بها الشباب في العديد من المدن الفرنسية (خريف عام 2005)، أن الحكومة العلمانية، مثل الحكومة الفرنسية، لا تعرف كيف تتعامل مع تلك الشرائح السكانية ذات التقاليد الدينية القوية والمؤثرة (التقاليد الإسلامية في الحالة الفرنسية). في بعض الأمثلة، كانت المؤسسات الإسلامية هي التي قامت بتهدئة حدة الصراع.

على وجه العموم، يجب أن يتركز الجدل العام الذي يكون ويدعم المجتمع الديمقراطي على المسعى لإجراء حوار مكثف مع المتدينين. ما نحتاج إليه يتجاوز محو الأمية الدينية، أي حوار عام واع حول أهداف ورؤى ومثالب مختلف الجماعات الدينية. أعتقد أن تلك هي الطريقة الوحيدة لدمج إساهاماتها المحتملة ومنع المناورات التي تلجأ إليها جماعات التمثيل والضغط الدينية لاختطاف الأحزاب أو الحكومات الديمقراطية، أو حين يتجه التأثير في الاتجاه الآخر، وتختار الأحزاب السياسية بعض الجماعات الدينية المعينة كقاعدة شعبية لها في الحملات الانتخابية.

بعد أن نتذكر هذه التحفظات، أود اقتراح طرق يمكن عبرها لسياسة المصالحة أن تمثل أداة مفيدة لمقاربة الانقسامات السياسية العميقة و المتجذرة داخل/ وبين الأمم.

1- تسعى سياسة المصالحة إلى منع المواقف الاستفزازية والسلوكيات التصادمية. ونظرا لأنها تبدأ من القناعة بأن الآخر، العدو مثلا، ليس مختلفا عنا اختلافا جوهريا، لأننا جميعا بشر، فسوف تسعى

دوما لوصل العناصر وربط العوامل، خصوصا حين تختلف مواقف ومواقع «الآخر» اختلافا جذريا عن مواقفنا ومواقعنا. وهذا ينطبق على التعامل مع الجماعات الأصولية، على الرغم من مواقفها الهجومية والمتغطرسة. لهذا السبب، يصر الحاخام مارك غوبين، باحث السلام في جامعة جورج ماسون (في فيرفاكس بولاية فيرجينيا) على لقاء الأصوليين والتعامل معهم باحترام عميق[17]. إذ يجب أن نقدر إخلاصهم والتزامهم، كما يشعر، ونكون مستعدين لوضع إخلاصنا والتزامنا موضع التحدي. وكقاعدة عامة، تنطلق سياسة المصالحة من افتراض وجود هوية خلف الهويات المتصارعة للجماعات والأحزاب والشعوب. هذه هي هوية انتمائنا المشترك للجنس البشري، التي نختبرها في مواطن الضعف الموجودة في كل واحد منا. إن هذا الارتباط النهائي الذي يجمعنا كأعضاء في العائلة الإنسانية يمثل النقطة المرجعية لجميع الجهود الهادفة لتعزيز حقوق الإنسان. وحقيقة أن جميع البشر بحاجة إلى الحقوق التي لا يمكن التصرف بها نفسها تتضمن أنهم قادرون جوهريا على الحوار المتبادل والمصالحة فيما بينهم.

2ـ تأخذ سياسة المصالحة على محمل الجد حقيقة أن الذنب والعار جزء لا يتجزأ من طريقة تعامل الناس بعضهم مع بعض. فتواريخ القمع والإذلال متناسجة في حياة الأمم. وتشكل المادة الأساسية لأنماط الصراع المعياري والأحكام المتحيزة المسبقة. ومع ظهور صراعات جديدة، تنزع إلى الدخول في قوالب جامدة وفقا لبنى الصراعات التي انتهت منذ أمد بعيد. المثال المعبر في هذا السياق

يجسده الإطار المرجعي لتجربة «الحروب الصليبية». فعلى الرغم من أن الصراعات المعاصرة لا علاقة لها بالحروب الصليبية في القرون الوسطى، إلا أنها ما زالت توضع تحت ضوء التجارب المخزية القديمة. سرعان ما ينسى «الرابحون» لمعارك التاريخ الماضي؛ في حين تعلق في ذاكرة «الخاسرين». من هنا تظهر الحاجة إلى تطهير صراعات الماضي من دنسها، وتحمل وخزة ألم الجروح القديمة بواسطة التذكر العميق، والتعامل بأسلوب صريح مع ذكريات الماضي، التي تكمن دوما في انتظار الفرصة للوثوب والتأثير في خضم أي صراع ينشأ.

يمكن لهذا التذكر العميق المتبادل أن يكون بالغ الصعوبة، ويتطلب غالبا الكثير من الوقت والجهد. من الأمثلة على ذلك محاكمة مجرمي الحرب في نورمبرغ، وطوكيو (في أعقاب الحرب العالمية الثانية)؛ وبعد ذلك المحكمة التي انعقدت في لاهاي بعد حروب البلقان؛ ثم محكمة اروشا ردا على عمليات الإبادة الجماعية لقبيلة التوتسي على أيدي الهوتو غالبا. لهذه الجهود أهمية كبيرة، على الأقل لأنها ترسخ سيادة القانون، الذي يعد أعظم منجزات الحضارة في حياة البشر. لكنها لا تنجح في امتصاص السم من الجراح القديمة. وكقاعدة عامة، تستهدف هذه المحاكم الأطراف المذنبة ومعاقبتها على جرائمها؛ لكنها لا تحقق الكثير حين يتعلق الأمر بتعويض الضحايا واستعادة كرامتهم.

لذلك كله، هنالك طريقة إضافية تطور للبحث عن حقيقة جرائم الماضي وتسهيل المصالحة في آن معا. هذه هي مقاربة لجان «الحقيقة

والمصالحة»، الأداة التي استخدمت في أكثر من ثلاثين حالة لتسليط الضوء على انتهاكات حقوق الإنسان وإرهاب الدولة[18]. وما تشترك فيه هذه الجهود هو التأكيد على مصير الضحايا ومعاناة أقاربهم؛ لكن في معظم الحالات، كانت معاقبة الجلادين إما غير ممكنة سياسيا أو متعذرة عمليا. وعلى الرغم من هذه القيود، إلا أن مزيدا من اللجان ما زالت تشكل. وتثبت أن هناك وعيا متناميا لدى الناس في مختلف بلدان العالم بأن صراعات ومآسي ومشكلات الماضي التي لم تحل ليست سوى قنابل موقوتة خطرة. أما المزيج الانفجاري من الذنب والعار فيجب التصدي له بحيث يمكن للناس التحرر من إسار الشر الذي يقيدهم بالماضي ويشدهم إليه. ولا يمكن تحرير أو مصالحة الشعوب طالما لم تتحرر من قيود جراح الماضي التي لم تندمل.

لذلك، يمكن فهم سياسة المصالحة بوصفها جهدا واعيا لتطهير النفايات الخطرة المتخلفة عن مظالم الماضي وجرائمه. هذه المهمة يجب ألا توكل إلى بعض الجماعات التمثيلية أو الأقسام التاريخية، على الرغم من بعض العون الذي تقدمه في هذا السياق. بل يجب أن تعد مكونا حيويا من مكونات العلاقات الداخلية والدولية. بكلمات أخرى، إنها مهمة سياسية بامتياز، مع أن بعض السياسيين سيحاولون النأي بأنفسهم عنها.

3ـ حالما يوافق الشركاء السياسيون على المضي قدما بعملية التذكر العميق معا، عليهم التوافق مع العوامل الضرورية لمثل هذه العملية. إذ لا توجد طريقة لتجنب ضرورة الاعتذار. وعلى الجانب المسؤول عن مظالم ومآسي الماضي الموافقة على تقديم صورة تفصيلية

وشاملة عن الجرائم المرتكبة. أما الحقائق التي يجب كشفها فلها أربعة جوانب:

* يجب تسمية النشاط الإجرامي بوضوح والاعتراف به صراحة؛
* يجب كشف هذا النشاط الإجرامي بشكل محدد قدر الإمكان؛
* يجب التعبير بجلاء عن الندم على النشاط الإجرامي؛
* يجب توضيح الاستعداد لتقديم التعويضات[19].

من أهداف هذه العملية استعادة ما يمكن تسميته بـ«السيادة الأخلاقية» فيما يتعلق بجرائم وأضرار وجراح الماضي. فشرف ضحايا الجرائم واحترام الذات للمسؤولين عنها يجب استعادتهما بحيث يمكن للطرفين أن يلتقيا وجها لوجه. لذلك، لا تتعلق سياسة المصالحة أساسا بالتعويضات المالية؛ فهناك طرق عديدة للتعويضات يمكن التفاوض عليها. أما الهدف الرئيس فهو إقامة علاقة جديدة بين الأعداء السابقين مرتكزة على الثقة المتبادلة.

4- ليس من المفاجئ أن تتوقف عمليات سياسة المصالحة عند الخطوة الأولى غالبا، أي مرحلة الاعتذار. فهذه لحظة مؤلمة بالتأكيد: الاعتراف بالذنب عمل صعب ومرير دوما، وكثيرا ما يرفضه الناس والأحزاب السياسية المحاصرة في إسار إيديولوجية الرابح/الخاسر. لست بحاجة إلى مناقشة هذا السؤال بتفصيل أكبر، لكن النقطة التي تعنيني هي: الاعتراف بالذنب إشارة دالة على السمو الأخلاقي والأمانة والصدق تعم فائدتها جميع الشعوب والأمم. نحتاج إلى

مزيد من «الرابحين» الذين يمتلكون ما يكفي من الاستقلالية والأمانة للاعتراف بسيئاتهم. ولسوء الحظ، فإن الاعتذار، خصوصا من الأحزاب السياسية، كثيرا ما يعادل الاعتراف بالهزيمة، ومن ثم يعد عملا جبانا. في حين تبقى سياسة المصالحة، من جهة أخرى، مدركة لحقيقة أن إعادة توطيد علاقات بناءة بعد سنين طويلة من الصراع أو الحرب أو انتهاكات حقوق الإنسان، تتطلب الإرادة للتوصل إلى تسويات. التسويات يجب أن تكون مشرفة بالتأكيد، لكن الاتفاقات يجب أن تشمل التخلي عن المواقف التي بدت سابقا غير قابلة للتفاوض. ومن الواضح أن مثل هذه المقاربة غير مقبولة لأصحاب الذهنيات المحاصرة بأسطورة البطل الخارق. فهي تتطلب نوعا مختلفا من البطولة، نوعا يعطي الأولوية لمصلحة وسعادة المجتمع الأوسع على المصالح الأنانية الضيقة.

5- حين ننظر إلى تحديات القرن الحادي والعشرين، لا تغدو سياسة المصالحة أكثر من مجرد سياسة واقعية وعملية. فقد تبدو المصالحة مغالية في المثالية أو حتى في الرومانسية، لكنها تنبثق من تقويم واقعي للوضع الإنساني العالمي. وهذا يتطلب فهما لحقيقة أن لسياسة المصالحة بعدا بيئيا. ومثلما ذكرت قبلا، تجبر مواطن الضعف التي نعانيها جميعا وتسم عصرنا الراهن البشر كلهم على البحث عن طرق للتعايش والتوافق تكون مفيدة ونزيهة وعادلة بقدر الإمكان. هذا العمل بحاجة إلى وضعه ضمن المنظور البيئي، لأن الكوكب الأرضي هو الذي يضع الحدود لكل ما نفعله نحن سكانه (على الرغم من جميع الأوهام الفانتازية الهروبية إلى الكواكب

الأخرى، على طراز «ستارتريك»). ومن ثم، يجب أن تتركز بؤرة اهتمام شعوب الأرض كلها على الحفاظ على هذه الأرض قابلة للسكنى والعيش. كيف يمكن عقد مصالحة توائم بين حاجات البشر وسلامة وظيفة النظام البيئي الذي نعيش فيه؟

يجب أن تتصدى لهذا السؤال بصورة رئيسة الأمم التي تجد نفسها في «المركز» لأنها السبب وراء العبء الأثقل على كاهل أمنا الأرض. لذلك يجب أن تجسد نموذجا يحتذى مثاله في هذا السياق. سيكون من غير الواقعي بالطبع الافتراض أن التفاوت الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الصارخ بين شعوب العالم يمكن إلغاؤه كلية. ويمكننا توقع ظهور مناسبات جديدة لاندلاع صراعات عنيفة. ومع ذلك، يجب أن يتمثل الهدف في إيجاد أنظمة من الأحياء السكنية المستدامة التي تستطيع البقاء ضمن الطاقات الاستيعابية لوطننا العالمي. يستتبع ذلك أننا، نحن سكان الكوكب الأرضي، بحاجة إلى تطوير مشاعر وطنية بالانتماء إلى الأرض تحظى بالأولوية على مشاعر الانتماء إلى الأوطان. أنظمة الأحياء السكنية المستدامة بحاجة إلى التمتع بقدر معين من الأمان والأمن. أما المؤسسة الرئيسة لضمان المعايير القانونية والاجتماعية المطلوبة فيجب أن تكون الأمم المتحدة، في حين توفر الولايات المتحدة القوى الكافية لأداء هذه المهمة.

6- هنالك الكثير مما تستطيع المؤسسات الدينية والمنظمات الإنسانية فعله لترويج وتشجيع أهداف وأساليب سياسة المصالحة. ولا يمكن التقليل من شأن المجتمع العلمي الدولي. وعلى العلماء من شتى بلدان العالم لعب أدوار مهمة في إشراك الناس من جميع مناطق العالم ومساعدتهم على تجاوز حواجز العرق والجنس والطبقة والدين المعتادة. أما المنظمات الأهلية (غير الحكومية) فهي التي تستطيع

تسهيل الحوارات، وتحضير الاعتذارات، وتطوير استراتيجيات التعويضات المحتملة[20]. والأهم أنها قادرة على بث الثقة حيث زرع المسؤولون الحكوميون الكراهية والفرقة. وهي القادرة على إظهار النيات الحسنة والانطلاق من بدايات صادقة ونزيهة في مواجهة جميع أولئك الذين تزدهر مصالحهم على الاستغلال والفساد.

مشورة النبي ميخا*

وجدت صعوبة في عرض جوانب ومقومات سياسة المصالحة هذه، لأن صوتا في داخلي يخبرني أن الأمر لا يستحق العناء، وأن الوقت قد فات، وأن القابعين في مراكز السيطرة والتحكم سوف يسخرون مني ويبعدونني عن المسرح. ومع أنني قلت لنفسي ـ اعتمادا على الوقائع العالمية ـ إن سياسة المصالحة أكثر منطقية من سياسة الرد العنيف التي نشهدها كل يوم، إلا أن الحالة السياسية الراهنة ظلت تلح علي بأن القوى الكبرى اليوم تقرأ الوقائع العالمية بطرق معكوسة. خصوصا أن القيادة الحالية للولايات المتحدة، القوة المركزية المحركة لشؤون العالم، مصممة على اتباع أجندة مختلفة اختلافا جذريا على ما يبدو[21].

إذن، إلى أين نتجه؟ لا أعتقد أن تحولا نحو سياسة المصالحة سيحدث في ظل الإدارة الأمريكية الحالية. ولا أظن أن من الممكن توقع أي اعتراف بذنب أمريكا التاريخي في المستقبل المنظور. فإغراء القوة الأمريكية المطلقة وشبه المقدسة كبير جدا إلى حد يمنع التفكير بمراجعة وتنقيح لإحساسها الأسطوري بالاستثنائية والفرادة. ولن تجري على الأرجح أي

* أحد أنبياء العبرانيين في القرن الثامن قبل الميلاد. (م)

محاولات لتغيير الأجزاء الجوهرية من المجمع العسكري ـ الصناعي وتحويله ليخدم الأغراض المدنية والإنسانية في وقت قريب. وفيما يتعلق بالقيادة السياسية في أوروبا، لا تمتلك أي أمة ما يكفي من القوة والشجاعة لتطوير رؤية بديلة. البديل يجب أن يأتي من داخل القوة العظمى، وأنا على يقين بأنه سيأتي.

فعاجلا أم آجلا ـ والأفضل عاجلا ـ سيضطر رئيس أمريكي، إلى جانب مجموعة من أبرز أعضاء الكونغرس، إلى القول: «نعبر عن أسفنا». سيكون الاعتذار معبرا عن السيادة والأمانة والاستقلالية ومتوافقا مع قوة أمريكا ودليلا يثبت عظمتها كأمة. وهذا سيعد المسرح ويعبد الطريق أمام أمم أخرى لتدخل في عمليات مشابهة؛ لأن العالم متخم بالجرائم المرتكبة منذ عهود وتنتظر التعويض عن أخطائها وأضرارها بالمصالحة.

في عام 1630، ألقى القس جون وينثروب من على ظهر السفينة «اربيلا» عظة بعنوان «نموذج للإحسان المسيحي». في هذا النص المحوري، حيث عد وينثروب الإحسان وعمل الخير من العوامل المطلوبة للميثاق مع الله، تحدث عن البركات والآلاء التي سيرتع فيها الناس حين يلتزمون الميثاق؛ لكنه أوضح دون لبس أيضا العقاب الذي سيحل بهم إذا أداروا ظهورهم له(22).

لكن كيف يتجنب الناس «جنوح السفينة» الذي أشار إليه؟ يستحضر وينثروب «مشورة ميخا»: العدل وحب الرحمة، والتواضع أمام الله (ميخا 6 : 8). كان وينثروب واحدا من أبرز الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وعرف أن «مشورة ميخا» أحد «الأصول الجوهرية» التي يجب على الناس

وحكوماتهم تذكرها دوما. فهي تشير إلى ثلاثة معايير فطرية وأساسية للقوة العادلة - العدل، والرحمة، والتواضع*. هذه المعايير الثلاثة ترشد استخدام القوة، وتعمل على احتواء إساءة استخدامها.

لربما يكون التواضع أصعب فضيلة تمارس عمليا، خصوصا للأمريكيين في الولايات المتحدة. ألم يخبرهم زعماؤهم مرارا وتكرارا أنهم الأعظم؟ ألم يدفعوا دفعا للاعتقاد أن قوتهم الخارقة مطلقة وكلية القدرة وأن عليهم ألا يخشوا شيئا؟ لذلك كله، يبدو أن التواضع يتعارض تعارضا جذريا مع رسالة أمريكا العالمية؛ وفي الحقيقة، تفوح منه رائحة الضعف والجبن. لكن العكس هو الصحيح. فكلمة تواضع / humility / جذرها لاتيني / humus/ ويعني «الأرض». التواضع هو الفضيلة التي تجعلنا قريبين إلى الأرض؛ وتحافظ على صدقنا وإخلاصنا لشرطنا الإنساني، ولجميع المخلوقات الحية التي تشاركنا العيش على هذه الأرض. لذلك، يحظى التواضع بأهمية قصوى، خصوصا لأولئك الذين وضعت قوة عظمى في عهدتهم. التواضع هو ترياق الفوضى المتأصلة في ما دعاه اليونان القدماء الغطرسة /hubris/، الغطرسة الاستكبارية للقوة التي لا بد أن تشكل بداية نهايتها.

---

* ولقد سبقهم ديننا الإسلامي الحنيف إلى ذلك بتوجيهاته السمحة.

هوامش

1- انظر:

Bill Clinton, «First Inaugural Address, January 21, 1993,» The Avalon Project at Yale Law School: http://www.yale.edu/lawweb/avalon/president/inaug/clinton.jtm (accessed Jan. 20, 2006).

2- Michael Hirsh, At War with Ourselves (Oxford/New York: Oxford University Press, 2003), p. 237.

3- Hirsh, At War, p. 239.

4- Hirsh, At War, p. 256.

5- Hirsh, At War, p. 257f.

6- انظر على وجه الخصوص:

Billah, The Broken Covenant: American Civil Religion in Time of Trial, 2nd ed. (Chicago/London: University of Chicago Press, 1992).

7- روبرت بيلاه في مقدمة لكتاب ريتشارد هيوز:

Myths America Lives By (Urbana and Chicago: University of Illinois Press, 2003), p. xi.

8- Hughes, Myths, p. xi.

9- Hughes, Myths, p. xii.

10- Hughes, Myths, p. 9.

11- Moltmann, Coming of God, p. 175.

12- Moltmann, Coming of God, p. 177.

13- Moltmann, Coming of God, p. 177.

14- Clinton «First Inaugural.»

15- يفسر ذلك ـ جزئيا ـ السبب وراء اختيار اسم «عملية الحرية العراقية» للحرب الاستباقية على العراق، ولماذا أفرزت مثل هذا الاستياء، خصوصا داخل العراق. إذ لم تكن تستهدف، كما نستطيع أن نرى حتى الآن، حرية العراقيين، بواسطة العراقيين، ومن أجل العراقيين (بالاستعارة من صيغة لينكولن المشهورة)، بل حرية الولايات المتحدة في تأمين مصالحها في العراق وفي الشرق الأوسط. وحين تعرض بوش للضغط لتقديم مسوغ للحرب بعد فشل عدد من الذرائع التبريرية التي قدمها، قال الرئيس إن الحرب شنت لجعل الولايات المتحدة أكثر أمانا.

16- اتبعت سياسة المصالحة على عدة مستويات في شتى أرجاء العالم. أود أن أعبر عن شكر خاص لفرق صنع السلام، خصوصا تلك التي استمدت إلهامها من كنائس السلام التاريخية (ما يزال حتى كتابة هذه الصفحات فريق صنع السلام المسيحي مفقودا في العراق منذ عام 2005). لقد قدمت جامعة ايسترن مينونايت في هاريسبرغ (بولاية فرجينيا) باحثين مقتدرين ومرافق تدريب ممتازة. هنالك وكالتان تستحقان الذكر من بين الوكالات الدولية المتصلة اتصالا مباشرا بجماعات المجتمع المدني والمشاركة في إجراء عمليات مصالحة مهمة: الشبكة الأفريقية لبناء السلام والمصالحة (في نيروبي، كينيا) بقيادة الباحث الإثيوبي هيزاكيا اسيفا؛ والمركز الأوروبي لتوقي الصراعات، بإدارة الباحث الهولندي بول فان تونغرين (في اوتريخت، هولندا).

17- انظر:

Marc Gopin, Between Eden and Armageddon: The Future of World Religions, Violence and Peacemaking (Oxford/New York: Oxford University Press, 2000), esp. pp. 199ff.

18- انظر:

Priscilla B. Hayner, Unspeakable Truth — Confronting State Terror and Atrocity (New York/London: Routledge, 2001); see also United States Institute for Peace Library, «Truth

Commission's Digital Collection,» United States Institute of Peace:

http://www.usip.org/library/truthhtml (accessed Jan. 20, 2006).

انظر أيضاً تقييمي للجنة جنوب إفريقية للحقيقة والمصالحة في كتابي:

The Art of Forgiveness, pp. 85 - 101.

19- انظر:

Aaron Lazare, On Apology (London/New York: Oxford University Press, 2004).

يذكر لازار أيضا أربعة مكونات في عملية المصالحة: 1) الاعتراف بالانتهاك؛ 2) نقل مشاعر الندم والمواقف ذات الصلة بالصبر والتحمل والإخلاص والصدق والأمانة؛ 3) التفسير؛ 4) التعويض.

20- للاطلاع على مثال معبر عن وفرة البرامج التي يمكن تشجيعها عبر الشبكات الدولية لفعاليات المجتمع المدني، انظر:

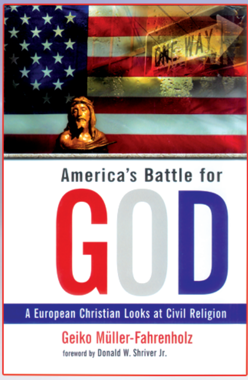
Paul Van Tongeren, Malion Brenk, Marte Hellema, Juliette Verhoeven, eds., People Building Peace II: Successful Stories of Civil Society (Boulder/London: Lynne Rienner Publishers, 2005).

21- شعرت بالارتياح يأتي من أمكنة لم أتوقعها قط. إذ يؤكد توماس فريدمان بحماس متعاظم على وجود تغير وتبدل في النموذج (البراديم)، يبتعد عن اقتصاد مرتكز على النفط ويقترب من اقتصاد يركز على واردات الطاقة القابلة للتجديد. انظر:

Thomas L. Friedman, «New 'Sputnik' Challenge: The All Run on Oil,» New York Times, Jan. 20, 2006, p. A17.

22- John Winthrop, «A Modell of Christian Charity,»posted by Hanover College:

http://history.hanover.edu/texts/winthmod.html(accessedJan. 29, 2006).



«يأتي هذا الكتاب من لاهوتي مسيحي يعتمد على واقع الزمالة المسكونية (التي تشمل الكنائس كافة) للسمو على الحواجز القومية، وفتح آذان المسيحيين في الولايات المتحدة لسماع حكمة إخوانهم في الدين في البلدان الأخرى ووجهة نظرهم بالعالم. إن قراءة هذه الصفحات بصبر وأناة تتطلب من المسيحي الأمريكي إجراء تمييز لاهوتي حاسم وواع بين الولاء للولايات المتحدة والولاء لله والمسيح. أما إخفاق بعض المسيحيين في إجراء هذا التمييز بوضوح - الذي ترمز إليه الأعلام الأمريكية المرفوعة على العديد من الكنائس في شتى أنحاء البلاد - فهو إحدى المآسي المعاصرة للحياة الدينية في أمريكا. جيكو موللر- فاهرنهولتز يعبر عن حزنه لهذه المأساة، كحالي أنا».

دونالد شريفر

جيكو موللر-فاهرنهولتز: باحث ألماني لاهوتي وكاتب مستقل، ومستشار لحركة وحدة الكنائس العالمية. عمل في مجلس الكنائس العالمي، ومديراً للأكاديمية البروتستانتية في الكنيسة اللوثرية، ودرس في جامعتين في كوستاريكا، دعا أوروبا وأمريكا الوسطى وأمريكا الشمالية وطناً له في مختلف مراحل حياته، وامتلك منظور مراقب خارجي يرى الولايات المتحدة بعين الحب، وهذا ما يجعله مؤهلاً على نحو فريد لتقديم صورة تمثل رأي شعوب العالم بأمريكا، وكيف يمكن للعامل الديني الراهن في السياسة الأمريكية أن يبدو كغلالة تخفي وراء قشرة من التقوى جوهر المشاعر الأنانية الوطنية. وهو يقدم توليفة فريدة جامعة لوجهات النظر التاريخية، واللاهوتية، والسياسية، والثقافية — النفسية، ويعرض رأياً دقيقاً ومتفكراً ومتبصراً للحالة الأمريكية المعقدة.

من مؤلفاته الأخرى:

(روح الله: تغيير العالم المحاصر بالأزمة).

(فن المسامحة: تأملات لاهوتية عن المداواة والمصالحة).

ISBN:978-603-503-034-2
9 786035 030342

موضوع الكتاب: ١- الديانات - الالتزام

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com